أسرار
فرقة الحشاشين

أصولها و مراميها
وأثرها قديماً
وحديثاً

دراسة تاريخية
وفكرية و عقائدية

أبو عمر محمد هادي بن محمد نزار

تقديم

عبد الله السبت

أسرار
فرقة الحشاشين

أصولها ومراميها وأثرها قديما وحديثا

(دراسة تاريخية وفكرية وعقائدية)

أبو عمر محمد هادي بن محمد نزار

تقديم

عبدالله السبت

دار الفتح
الشارقة

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى لدار الفتح

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

موافقة وزارة الإعلام والثقافة

رقم أ ع ش ٢٢٩٢

تاريخ: ٢٧ /٧/ ١٩٩٦م

الناشر

دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف المطبعة : ٣٢٢٣٠٨ - هاتف النشر : ٣٢٦٠١٨-٦.

فاكس رقم: ٣٢٦٨٣٨-٦٠ ص. ب : ٢٣٤٢٤ الشارقة - إ.ع.م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواهب المنان، المتفضل سبحانه على عباده بالإحسان، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير.

والصلاة والسلام على رسوله الهادي للحق وعلى صحابته ومن سلك دربهم وبعد.

فإن اللّه سبحانه قد كرم الإنسان بالعقل، وميّزه عن غيره مما خلق، و به وحده أُنيط التكليف وحُمّل تبعة الفهم عن اللّه سبحانه والإدراك، فالعقل نعمة جليلة من اللّه ومنة عظيمة.

إلا أن المشكلة الكبرى للإنسانية في عصورها المختلفة أن الإنسان وبجهالته يطغى، ظانّاً أنه بعقله يستطيع الوصول للسعادة والحياة الصحيحة، لكن أنّى له ذلك، والعقل بنفسه لا يستطيع القيام بل لابد له من أركان تعينه وتسنده، لذا كانت الحاجة ماسة للنور الرباني؛ إذ إن الأساس في الانحراف العقلي عندما يخوض العقل فيما هو خارج عن قدراته، حيث إن مصادر العقل المباشرة للمعرفة هي: السمع، والبصر، والشم، واللمس، والذوق. فهذه هي المصادر التي يستطيع العقل الحكم بواسطتها على الأمور، وما سوى ذلك فلا يمكن للعقل أن يخوض فيه إن كان صاحبه يحترم عقله.

والدين قد أعطى العقل حقه هذا كله في الحكم بين الاختيارات وحذّره من أن يرقى مراقي أُخَر فيحكم فيما لا يقع تحت دائرة العقل فيضل ويشقى، ومن هنا قال علماء السلف أنه لا تعارض بين صريح المعقول وصحيح المنقول،

وقد نوَّه شيخ الإسلام ابن تيمية في سفره العظيم «درء تعارض العقل والنقل» على هذه القضية فبسط القول فيها فراجعه لزاماً هُديتَ للرشد.

ومن تشبع بسيرة الفلاسفة والعقلانيين عبر حياة الأمم منذ أرسطو ومروراً بكل طوائف المذاهب العقلية، يرى تهافت الفلاسفة ومن سلك مسلكهم في إيصال الإنسانية لشاطئ الأمان، ومن ثَمَّ كلما جاءت أمةٌ لعنت أختها وكلما جاء مذهب أسقط ما سبقه وهكذا هم في تساقط متتابع[1].

وإن القضية التي نريد تقريرها هنا: هي أن العقل ـ وهو نعمة عظيمة أنعم بها المولى على عباده ـ إذا لم يحسن صاحبه تقديره قدره، ووضعه فيما يليق به ومن ثم الاستفادة منه فإنه يجره لنوع من التعالي والغرور يجعله يطغى، فيظن أنه بهذه الملكة يستطيع أن ينافس الخالق في التشريع لنفسه وللبشر، بل يتمادى فيظن أنه لا خالق وأن عقله هو الأساس، وكلما طغى الإنسان وغلا في تمجيد العقل كلما انحدر وهوى في الدرك.

وهم ـ أي العقلانيون ـ عندما يعجزون عن تفسير ظاهرة معينة يلجأون لما سموه بمذهب الشك وظنوا أن هذا هو الحل لهذه المعضلة، وما علموا أنهم يزدادون حيرة، وقد صدق من وصف تجاربه ورحلاته في هذا المجال عندما قال:

نهاية إقدام العقول عِقالُ ... وأكثرُ سَعْي العَالَمينَ ضلالُ

وأرواحُنا في وحشة من جُسومِنا ... وغايةُ دُنيانا أذَىً ووبالُ

---

(١) نستطيع أن نقول أن العقل المجرد قد ساهم في قيام حضارة يطلق عليها بعرفهم راقية، وأوجد مدنية متطورة ولكنها فارغة روحياً لذلك انهارت الحضارات البائدة وستنهار الحضارات القائمة لبعدها عن حضارة الوحي الذي جاء من عند من أوجد العقل ولا استمرار لحضارة إلا الحضارة المتكاملة التي تربط المادة بالروح وهو الصراط المستقيم الذي رسمه الإسلام للبشرية (الناشر).

ولم نَسْتَفِدْ مِن بَحثِنا طُوْلَ عُمرِنا سُوى أن جَمَعْنا فيهِ قيلَ وقالوا[1]

وقال الآخر[2]: لقد خضت البحر الخضم، وتركت أهل الإسلام وعلومهم، وخضت في الذي نهوني عنه. والآن إن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لي، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي.

وقال آخر وقد نزلت به نازلة من سلطانه فاستغاث برب الفلاسفة فلم يغثه، قال: ثم استغثت برب الجهمية فلم يغثني، ثم استغثت برب القدرية فلم يغثني، ثم استغثت برب المعتزلة فلم يغثني، قال: فاستغثت برب العامة فأغاثني.

وقال آخر[3] أيضاً: من التزم دين العجائز فهو الفائز.

فهذه صرخات من تائبين كانوا مُمجِّدين للعقل، بل كاد أن يكون العقل رسولاً عندهم إذ أدركوا الحقيقة بعد أن صرفوا جُلَّ العمر في متاهات البحث العقلي.

وهؤلاء الذين يدرس كتابنا هذا أحوالهم وهم طائفة من الباطنية قد جرَّهم تمجيد العقل وجَعْلُه رسولاً إلى دهاليز من الضلال والانحراف عن الإنسانية، بل إلى السعي في تدمير الإنسان وبنيه.

وهم أيضاً استخدموا هذه الطلاسم والمذاهب العقلية للدعوة إلى ما هم عليه من الضلال ولتجنيد الشباب واستخدامهم جنوداً بل آلات صماء لا إرادة

---

(١) القائل هو الفخر بن الخطيب الرازي ذكرها في كتابه (أقسام اللذات). وأوردها الإمام ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل ١/١٦٠ وكذا ابن القيم في الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة.

(٢) هو أبو المعالي عبدالملك بن عبدالله بن يوسف الجويني إمام الحرمين. وذكرها ابن السبكي في طبقات الشافعية ٥/١٨٥ وابن القيم في الصواعق المرسلة ١/١٦٧ - ١٦٨.

(٣) ذكره ابن حجر في لسان الميزان عن الفخر بن الخطيب الرازي (٤/٤٢٦ رقم ١٤١١).

لها لتنفذ مخططاتهم، ولا يُعلم طائفة استغلت العلوم العقلية والفلسفة للسيطرة من خلالها على عقول الأتباع أكثر من هؤلاء؛ ورسائل إخوان الصفا[1] برهان على ذلك.

والسيطرة على العقول لتحقيق المآرب أشد أنواع الاحتلال، يقول دكتور هاني عبدالكريم في كتابه "العقل تنظيمة وإدارته": «إن احتلال العقول هو أجدى وسيلة للسيطرة على المجتمعات والشعوب، فالعقل هو مركز التحكم في سلوك الإنسان، ومهما يُسن من قوانين للسيطرة على الإنسان وتنظيم المجتمع الإنساني، نجد أن عقولاً كثيرة تتفنن في الالتفاف حول القوانين ومراوغتها والخروج عليها، فتعود المشكلة كما بدأت (صراع بين العقول)، عقول المنظمين وعقول الخارجين على النظام المفروض».

فهؤلاء قاموا باحتلال عقول الأتباع بالإحالة بينها وبين النور الإلهي بتمجيدهم للعقل الإنساني وتقديسه، ثم تسلطوا عليه بالحجج الفلسفية العقلية، فلما تمكنوا من السيطرة التامة عليه كان صاحب هذه العقول الممسوخة خامة سهلة التشكيل والتوجيه وبيئة رخوة لتنفيذ إراداتهم ومخططاتهم.

ونحن إذ نحترم صاحب العقل عندما يحترم صاحب العقل نفسه ويجعل من عقله عقالاً لهواه.

فلسنا من الداعين إلى إلغاء العقل عن الإعقال والتدبر، بل نرى أن تلك هي مهنته أن يعقل عن الله ورسوله وأن يتدبر الكون والكتاب ليهتدي العقل

---

(١) انظر لزاماً حقيقة إخوان الصفا ـ طبع دار الفتح. ولا شك في تأثر الحشاشين وهم الفرقة الإسماعيلية المعروفة برسائل إخوان الصفا وهم من الإسماعيلية كما ثبت تاريخياً.

وينير البصيرة، ولكن نحذّر من الغلو في الاعتماد المطلق على العقل وأن تناط به سياسة الإنسان على البسيطة فهذه مهمة رب العقل فاعقل ذلك.

إن سحر البيان لا يقل أثراً وفتكاً عن السحر - والمرء يُقاد بقلبه فينقاد، وتسمع الجوارح وتطيع حتى لمجهول، وربنا سبحانه ذكر ذلك بقوله: ﴿**إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾ وقال: ﴿**أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً**﴾.

فهذه العماية والانقياد الأعمى إنما هو ناتج عن تأثر القلب بعقيدة ما وتصديقه لها، فالصراع على الأرض اليوم والأمس ومنذ كانت الدنيا إنما هو صراع فكر وعقائد، وكل الحروب التي نشبت عبر العصور قامت على ذلك، وقد تُغلف باقتصاد أوسياسة ولكن الذي يحرك الناس وتسفك لأجله الدماء إنما هوما استقر في القلب من عقيدة تجاه الآخر، فعندما يتغير ما استقر في القلب فلا تستبعد أن يقتل الأب ابنه والابن يقتل أباه، وهكذا فَسِّرْ ما تراه اليوم والأمس من صراع في دنيا الناس.

وقد أدرك اليهود والمجوس هذه الحقيقة وهذه الخاصية للإنسان، فسعوا لصياغة العقل كما يريدون، وكل من اطلع على رسائل إخوان الصفا في مجلداته الأربعة يدرك هذه المسألة وكيف تدرج في التأثير العقلي، هذه الرسائل التي كان لها دورٌ في صياغة العقل في تلك الحقبة من التاريخ.

إذن العقل هو الذي يقود الإنسان، والمرء إذا لم يحجر على عقله ويحصنه بالوحي فإنه يكون تبعاً لهواه عابداً لنفسه أو لشيطانه، وسيطرة غير الوحي على العقل تجعله يضل وتنقلب عنده الموازين.

والعقل إذا لم يكن متبعاً للشرع لم يبق أمامه إلا الهوى والشهوة، وكل من الهوى والشهوة يهوي بصاحبه في الدركات، ويعمي ويصم ﴿**ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من اللّه**﴾.

وقد أدرك هذه الحقيقة سدنة الحكم في بلاد الكفر فسعوا لاختراق العقل العربي وللسيطرة على أمة العرب والإسلام عبر السيطرة على عقول أبنائها، فسعوا لاختراق العقل العربي عبر مفاهيم طرحت بوسائل إعلامية ودعائية منوعة، وهكذا غُزِيَ المسلمون في كل بقعة من بلادهم بل وفي كل نسمة من حياتهم.

وإذا كان الأمر كذلك فإن على ولاة الأمر وأهل الحل والعقد وأرباب الفكر والسياسة أن يعقلوا هذه القضية ويولوا التربية العقلية حقها، وبمقدار العناية العقلية بالناشئة يُحمون من الانحراف، ويحال بينهم وبين الأفكار الهدامة وتجنيب البلاد والعباد من الدمار الذي نشاهد آثاره في كثير من المناطق من عالمنا الإسلامي.

إن الذي نشاهده في دنيانا إنما هو نتاج تأثرات عقلية وهذه نكررها ليعقل الأمر قومُنا، فالمسألة ليست عاطفية أوانفعال من الشباب أو نزوة صبيانية، إن الأمر أكبر من ذلك إنما هي عقيدة وفكر استقر في العقول.

فلا بد أن نعالج أمور الشباب اليوم بالعلم المرتبط بالوحي، فهذا هو العلاج الصحيح والفعال.

إن الفكر الفاسد لا يهدم إلا العلم الصحيح وإن العقل إذا لم يُغذَّى بالوحي غُذِّيَ بالهوى، والهوى يُهوي ويدمر.

لذا فإن الهدف من تسليط الضوء على المذاهب الفكرية القديمة وإظهارها للأمة يراد به التنبيه إلى أن المرض القديم هو نفسه الجديد!!.

وهذه النماذج ـ التي ستراها في كتابنا هذا ـ من الشباب المستعد للموت، يمكن لأي صاحب بيان وحجة ودهاء أن يوجد مثلها ممن لديه الاستعداد للموت والتدمير، لأنه أوحي إليه بأن ذلك طريق الخلود في الجنة، واقرأ إن شئت ما جرى بين علي بن أبي طالب وقاتله الخارجي عبدالرحمن بن ملجم، ونحن مهما علت منزلتنا في الدنيا فلن نبلغ المكانة التي كانت لعثمان بن عفان ولعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

إن اليد الأثيمة التي لم تتورع عن سفك دم عثمان وعلي بن أبي طالب لا نراها تتورع اليوم عن قتل حاكم أو وزير أو عالم أو طفل .. إن تلك الأيدي التي قتلت الصحابة الكرام وهم من هم لا يمكن أن تتورع عن قتل غيرهم، إذ إن المسوغات والمبررات الشرعية التي زُوِّرَت لتهيئ أولئك للقيام بسفك دم طاهر لا نظن أنه يعجزها إقناع الشاب الفارغ ذهنياً من علم الكتاب والسنة بقتل غيرهم، والحال في زماننا أكثر فساداً عن حال مجتمع الصحابة والتابعين ،ولذلك فإننا نرى أن إقدام الشاب على تطليق أمه من أبيه وتزويجها لآخر من جماعته ما هو إلا جرس إنذار لنا اليوم.

فالعاصم من ذلك إذن هو حماية ذهن الشباب بالعلم النافع وربطه بالعلماء والأبرار، ولا طريق ينجي من الفتن غير ذلك!

فصل

ولعلك تسأل لماذا كل هذا الحقد على الإسلام من يهود ومجوس، وما الذي جناه أهل الخير والحق إلا أنهم نشروا دين الله بين تلك الأمم؟! إلا أننا

نرى بعضاً منهم يسعون لإيذاء أهل الحق، إن الفطرة السليمة تقود إلى شكر من أرشد وهدى، ولكن الفطرة التي أفسدها شياطين الإنس، جعلت المرء يكفر ولا يشكر، وإن دهاقنة الضلال سعوا جادين لأن يطفئوا نور اللّه بأفواههم ولكن اللّه مظهر دينه وإن رغمت أنوف.

إلا أن غالب داء هؤلاء مرجعه إلى الغرور والكبر المؤديان إلى المناداة بالعنصرية والنظرة الدونية للأمم والأعراق الأخرى، فأنى لهم شكر من قام بالهداية وأرشد إلى الحق.

وخير من صوّر السبب الدافع لأهل الشرك لحرب الخير والنور هو العليم بأحوال الملل والنحل ألا وهو الشيخ محب الدين الخطيب، حيث يقول ـ رحمه اللّه ـ: «لما تخطت رسالة الإسلام حدود الجزيرة العربية المباركة ـ فدخلت العراق وإيران شرقاً، والشام شمالاً، ومصر وإفريقية غرباً ـ كان ذلك سعادة للأخيار من أهل البلاد المفتوحة، وغذاء لعقولهم، وبهجة وحبوراً تطمئن بها قلوبهم، وشجىً للأشرار منهم، وغُصّة في حلوقهم ومبعث إحنة وغلٍّ تسممت بهما دماؤهم وأرواحهم.

إن الأخيار من طبقات سالم مولى أبي حذيفة، وعبداللّه بن سلام، وسلمان الفارسي، فالحسن البصري، وعبداللّه بن المبارك، فمحمد بن إسماعيل البخاري، وأبي حاتم الرازي، وابنه عبدالرحمن، وأندادهم وتلاميذهم، استقبلوا هداية الإسلام السليمة الأصيلة بأرواحهم وعقولهم، وفتحوا لها أبوابهم وصدورهم، وأحلوا لغتها محل لغاتهم، وعملوا بسننها بدلاً من سننهم، ونسخوا بإيمانها كل ما كانوا ـ أو كان آباؤهم ـ عليه من قبل، فساهموا في حفظ كتاب اللّه وسنة رسوله الأعظم، وحرصوا على فهمهما كما كان يفهمهما أبو بكر

وعمر وعثمان وعلي وعائشة وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود ومعاذ بن جبل ومن ائتم بهم وسار على منهاجهم، حتى صاروا بنعمة اللّه إخواناً للمسلمين كصالحي المسلمين، وأئمة للمسلمين كسائر أئمة المسلمين.

وإن الأشرار من طبقة الهرمزان، وعبداللّه بن سبأ، وعبداللّه بن يسار، وأبي بكر الكروس، ورشيد الهجري، ومحمد بن أبي زينب، والأحول الخبيث ـ شيطان الطاق ـ وجهم بن صفوان، وتلميذه هشام بن الحكم ـ الذي كان غلاماً لأبي شاكر الديصاني ـ وهشام الآخر وهو ابن سالم الجواليقي ـ وكان يقول إن اللّه جسم ذو أبعاد ثلاثة ـ والأحوص أحمد بن إسحاق القمي الذي اخترع لشيعة عصره عيد بابا شجاع الدين، وبنو أعين: زرارة وبكير وحمران وعيسى وعبدالجبار.

إن الأشرار ممن سمينا، وألوفاً كثيرة من أمثالهم، قد أبغضوا من صميم قلوبهم أصحاب محمد ﷺ وأحبابه وأعوانه على الحق، لأنهم أطفأوا نار المجوسية إلى الأبد وأدخلوا إيران في نطاق دولة الإسلام، وأقاموا المسجد الأقصى على أنقاض الهيكل، فهذا (الذنب) الذي ارتكبه نحو المجوسية واليهودية أبو بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وعمرو بن العاص ويزيد ومعاوية ابنا أبي سفيان، وسائر إخوانهم من الفاتحين والصالحين، لن ينساه لهم مبغضوهم من اليهود والمجوس، وقد قاوم أسلافهم زحف الإسلام وامتداد رسالته بأسلحتهم ودسائسهم جيشاً لجيش، وجهاداً لجهاد، ومعركة بعد معركة، حتى هزمهم اللّه في كل موقف، وخذلهم في كل ملحمة.

فباتوا ينتظرون الفرص السانحة ويترقبون للمسلمين الأولين ما يترقبه المبطلون لأهل الحق في كل زمان ومكان، فلما لم ينالوا منهم شيئاً، وطالت عليهم خلافة أمير المؤمنين عمر، واتسعت الفتوح في زمنه، وانتشرت كلمة الإسلام في آفاق مترامية الأطراف، تآمروا حينئذ على سفك دم عمر وهو حمو رسول اللّه أبو أم المؤمنين حفصة، وصهر علي بن أبي طالب زوج بنته أم كلثوم الكبرى التي ولدت له ابنه زيداً وبنته رقية، وأم كلثوم بنت علي هي التي كانت في بيت أمير المؤمنين عمر لما تآمر على قتله الهرمزان وأبو لؤلؤة وغيرهما، ولا يزال الشيعة إلى اليوم مسرورين بما ساء علياً وبنته أم كلثوم وسائر أهل البيت من سفك دم أعدل من حكم في الأرض بعد محمد ﷺ وصاحبه في الغار، المجاور لهما في المدفن النبوي الطاهر جواراً لا ينقطع في الدنيا ولا الآخرة.

وقد ظن المجوس من الذين قتلوا عمر أنهم قد قتلوا الإسلام بقتله، ولكنهم ما لبثوا أن علموا أنهم باءوا من هذه بمثل الذي باءوا به من تلك، وحفظ اللّه رسالته، وحاط دعوة الحق بعين عنايته وجميل رعايته، وعادت جيوش الإسلام في خلافة ذي النورين توغل فيما وراء إيران، وتفتح لكلمة اللّه آفاقاً أخرى متجاوزة الحد المنيع الذي كانوا يسمونه "باب الأبواب"، فلم تكن على وجه الأرض يومئذ ـ ولا في العصور التالية إلى يوم القيامة ـ رايات تخفق بالنصر والعدل والرحمة كهذه الرايات النيرة الظافرة.

حينئذ أيقن المجوس واليهود أن الإسلام إذا كان إسلاماً محمدياً صحيحاً لا يمكن أن يحارب وجهاً لوجه في معارك شريفة سافرة، ولا سبيل إلى سحقه باغتيال أئمته وعظمائه. فأزمعوا الرأي أن يتظاهروا بالإسلام، وأن ينخرطوا في سلكه، وأن يكونوا (الطابور الخامس) في قلعته، ومن ذلك الحين رسموا خطتهم على أن يحتموا بحائط

يقاتلون من ورائه الرسالة المحمدية وأهلها الأولين، فتخيروا اسم «علي» ليتخذوه ردءًا لهم. وأول من اختار ذلك لهم يهودي ابن يهودي من أخبث من ولدتهم نساء اليهود منذ عبدوا العجل في زمن موسى إلى أن اخترعوا الفكرة ..». (انتهى كلام محب الدين الخطيب رحمه الله).

لعلك تبصرت - يا عبدالله - وأدركت الحقيقة التي غُلِّفت بأنواع وألوان من الأهداف والغايات لكن الحقيقة هي هذه التي بصرت بها فعض عليها ودعك من الأقاويل.

ولك أن تسأل بعد كل هذا السرد والعرض ماذا نستطيع أن نفعل وقد توغلت الباطنية وسلكت كل الدهاليز ونبتت عليها لحوم وتعلقت بها الأهواء. حتى تبنت كثير من الحركات - التي تنسب إلى الإسلام وأيضاً تلك التي تتسمى بالثورية - طريقتها وأسلوبها إن لم تكن تشبعت بمنهجها ومعتقداتها.

أقول: تستطيع أن تأتي بكل خير لأمتك لأنك ترجو من الله ما لا يرجون بشرط أن تصدق النية وتُحسن الاتباع.

إننا نرى أن الأمة فيها خير عظيم، ولا يزال السواد الأعظم على خير، لكن الباطنية لبّستْ وبنت بيوتاً وهي أوهن من بيت العنكبوت، إن الأمة إذا أدركت هذا الخطر العظيم القادم ودرست التاريخ علمت أن الباطنية متعاونة مع اليهودية ومع كل ما نسج من مكر شيطاني إنما هي ملة واحدة، عند ذلك تقوم الأمة من رقدتها لتحطم صروح الزجاج وتهتك بيوت العنكبوت.

ونخلص من تلك الدراسة بأن الباطنية ومن نسج على منوالها قد اعتمدت أسساً وسارت على نهج ملخصه في التالي:

أولاً: استغلال ميل النفس البشرية للعطف على المظلوم وبغض الظالم فقاموا بتكييف الحوادث التاريخية بطريقة تتناسب ونشر فلسفتهم وأفكارهم بالتدريج .

ثانياً: استغلال فطرة التدين والميل البشري للإيمان بالمغيبات في إدخال التفسيرات الفلسفية والفكرية على الحوادث التاريخية والعقائد الإسلامية والتي تعتبر أمضى أسلحتهم في سيطرتهم على عامة المستهدفين بدعوتهم ومخططاتهم.

ثالثاً: إن في بداية طرحهم لدعوتهم يتم التركيز على تثبيت فكرة أن الاستحسان العقلي المجرد يغني عن غيره من الأدلة ومن ثم يبدأون في بناء تركيبة عقلية المدعوين وفق ما قد تمرس عليه دعاتهم من علوم الكلام والسفسطائية في الجدل.

وبذلك يثبت بطلان فكرة قدسية العقل المجرد بمنأىً عن الهدي الإلهي ، حيث ثبتت قدرة مثل هؤلاء الباطنيين وأمثالهم من الفلاسفة على التلاعب بعقول الناس وتسخيرهم لأفكارٍ شيطانيةٍ تدميرية.

وإننا من واقع دراستنا لتاريخ الملل والنحل رأينا أن أُسّ البلاء والجرثومة القاتلة هم هؤلاء الذين تمكنوا اليوم كما تمكن الأولون من التوغل في القصور والدور وتفانوا بالخدمة بأنواعها وأصبحوا سادة الرذيلة في كل المنتديات.

فلهذا كله كتب الباحثون في دراساتهم عن الملل والنحل، ونرجو من كل باحث يطلع على أخبار الملل والنحل المعاصرة أن يمدنا بما لديه تنويراً للأمة ونصحاً لأهل الحل والعقد فيها، وهذا ما حفز الأخ الفاضل أبو عمر محمد هادي بن محمد نزار على الكتابة فيه ودفعه إلينا فوجدناه بحثاً وافياً جديراً بالقراءة وبالإشادة.

إن هذه المرحلة بالذات توجب التكاتف بين حملة القلم والسيف لإنقاذ الأمة وإنا نعتقد أن حامل القلم إن لم يقف مع حامل السيف في هذه المرحلة الحرجة كان ذلك خيانة للأمانة التي حمَّلها الله إياه.

وإذا خذل حامل السيف العلم وأهله كان غاشاً لرعيته خائناً لأمانته، إن التلاحم بين الأمراء والعلماء يجب أن يكون قوياً خاصة في عصرنا هذا حيث طمع فينا الكل واستباح حمانا حتى عبدة البقر، ولا عز إلا باتفاقهما علماء وأمراء

هذا والله الهادي ولا رب سواه ،،،،

كتبه

عبدالله السبت

مُقَدِّمَة

إن أحداثاً جساماً تمر في العالم الإسلامي في صمت من غير دراسة متعمقة ولا تحليل دقيق لأسبابها وما ينتج عنها ، وإن عدم تناول هذه الأحداث بالدراسة الجادة لدليل على أن أمراض المسلمين لا تزال تتمتع بحصانة تمنعهم من مواجهتها، وهذا الموقف غير الناضج يكون سبباً في وقوعنا في أخطاء تؤدي بنا إلى مواقف لم نكن نريدها ألبتة.

فلقد عانى الإسلام منذ بداية انتشاره من صراعات منها ما هو عقائدي عصفت بالمبادئ وأدت إلى ظهور حركات ثورية مزّقت وحدة الأمة وتشعبت المذاهب والتعاليم، تباعاً لتشعب الأطماع والغايات السياسية والدنيوية، ودعاوي الفرق المختلفة .

ولقد كانت كل الحركات الثورية ذات صبغة دينية، وكان لمعظمها خطط للبناء تضعها إلى جانب خطط الهدم، بيد أن منها حركات لم تُعن إلا بهدم المجتمع الإسلامي وتعاليمه الدينية والأخلاقية، واستبدالها بتعاليم لا تمتّ إلى الدين بصلة في الغالب.

وقد كانت لهذه الثورات الأثر العميق في تاريخ الإسلام، ومصير الدول الإسلامية معاً، فقد هزّت أسس المجتمع الإسلامي إلى الأعماق، وصدعت من سلطانه السياسي، وأصابته في روحه، وأدّت بمضي الزمن إلى تفككه واضمحلاله، وانقسامه إلى دويلات ومجتمعات ضعيفة.

كما أن غالبية هذه الحركات الثورية التي قامت في المجتمع الإسلامي – سواء كانت دينية أو سياسية أو اجتماعية ـ لجأت إلى القوة والعنف وقامت بحد السيف، ولم تكن ترى الوصول إلى غاياتها الهدّامة بالتطور والتدرج، ولا تعرف سوى العنف وسيلة لتحقيق مُثلها[1].

لقد كانت حركة الحشاشين إحدى هذه الحركات الثورية الهدامة. فقد لعبت دوراً غريباً وطويلاً، واحتلت صفحة هامة في تاريخنا قبل أن يطويها التاريخ بين جنباته الواسعة، ونُسجت حولها الخرافات والروايات والأساطير، وأعطت اسمها لفن القتل والاغتيال السياسي.

لقد كان الحشاشون دعاة لإحدى هذه المبادئ الثورية، يخلصون لها أشد الإخلاص، ويذهبون في تأييدها إلى أقصى حدود التطرف، ويشهرون الحرب على كل حكومة تخالف مبادئهم في الحكم، وقد رفعوا غلوهم إلى حدود ممقوتة، وارتكبوا باسم مبادئهم تلك شنيع السفك والقتل والتخريب واستباحة الأموال والحرمات ...

لقد كانوا دعاةَ ثوريةٍ تُمعن في الهدم وترمي إلى القضاء على تعاليم الإسلام كلها، من خلال تحطيم السلطة السياسية التي تقوم على هذه التعاليم، وكانوا أنشط الطوائف في بث مبادئ الخروج والهدم.

كانت حركة الحشاشين عملية مرحلية لها أهداف معينة في تلك الفترة، وتُعد خطوة من خطوات الحركة الشيعية التي كانت تبدو بشكل حركات

---

(١) وقد استغل أعداء الإسلام هذا الاستعداد لدى الشباب المتأثر بهذه الأفكار فسلطوهم على إفساد البلاد وقتل العباد، وبذلك شوهوا جمال الإسلام.

تنظيمية، تتحرك وفق مخطط علمي مدروس، يقوم على خداع الجماهير، واستغلال عاطفتهم نحو آل البيت، وتعتمد الحركة التنظيم السري العسكري بجانب ذلك لتحقيق ذلك المخطط.

وفازت ثورة الحشاشين بغاياتها أيّما فوز، فمزّقت وحدة الإسلام منذ البداية، وشطرت جبهته الموحدة إلى دول عدّة، وشوهت تعاليمه في كثير من العصور والأقاليم، ووضعت تعاليمها كبديل لتعاليم الإسلام وأقامت مجتمعات جديدة تتستر مع ذلك بمبادئ الإسلام، وتشق طريقها إلى السلطان باسمه وهي لا تكاد تحتفظ بشيء من أصوله وتعاليمه.

وإن ما نشهده اليوم في بلاد المسلمين من انتشار أفكار معادية للإسلام دفع إليها الحقد العميق، يحملنا على الرغبة في التعرف إلى ما سبق أن حدث في تاريخنا من أمثال هذه الحركات الهدامة الخطيرة، وإننا إذا أمعنّا النظر في الحوادث المعاصرة على ضوء الماضي نستطيع أن نقرر أن هناك ارتباطاً ملاحظاً وتشابهاً واضحاً بين ما حدث بالأمس وبين ما هو واقع اليوم.

فالأهداف والأغراض هي ذاتها لم تتغير، وإنما الذي تغير هي الشعارات والمبررات، وهي ـ أي الحركات ـ وإن اختلفت في برامجها فإنها تتفق جميعاً في غايات التقويض والهدم والحرص على تنفيذ هذه الغاية، والدقة في تنظيم القوى التي تعمل لتحقيقها وإغراق المجتمع الحاضر بسيل تعاليمها.

ونحب أن ننوه هنا إلى أن سنة اللّه في التغيير تبدأ بتغيير ما بنفس الإنسان، ونظرة الإنسان إلى كيفية التغيير ووسائله ولكنّ الخطأ قد يقع في الوسائل أكثر مما في الأهداف.

إن الفرد المسلم يعمل ويشعر بأن عليه واجباً لابد أن يقوم به وفاءً لعقيدته، ولكنّه يحس أنه ممنوع في الوقت نفسه، فهو في صراع دائم وتمزق بين دافع العقيدة ومانع الواقع، مدفوع وممنوع، يشعر أنه مكلف بما لا يستطيع، فكان نتيجة ذلك أن انفصلت إرادته عن عمله وواقعه[1].

فلابد والحال هذه من إعادة التوازن لئلا يتمزق جهد المسلم بين هذا الدفع وذاك المنع، ولكي يكتشف المسلم كيف يستخدم طاقاته في تنفيذ إرادته حتى لا يبقى في تمزق نفسي، ولا يكون كرجل فيه شركاء متشاكسون.

إن هذا التمزق أو الصراع الداخلي ناشئ من نظرته إلى الأشياء ومن تفسيره لها، وليس ناشئاً من أن المشكلة لا حل لها.

وهذه النظرة هي ظنه بأن المبدأ لا يمكن نشره إلا بالقوة سواء كان ذلك مطلقاً أم بالأولوية، أي سواء أكان الظن بأن نشر المبدأ لا يمكن أن يكون إلا بالقوة، أو أن نشره بالقوة أضمن للنجاح.

إن التعلق بالقوة والظن بأن طريق الإصلاح لا يمر إلا من سلطة الحكم، لا أن سلطة الحكم تأتي نتيجة من نتائج الإصلاح هو الذي جعل موقف المسلمين بهذا الشكل، كما أن استمرار هذا الموقف يؤدي إلى اهتزاز صورة المسلم الداعية في أذهان الآخرين وينسحب المسلم فيظهر وكأنه لا يحمل رسالة ولا يدعو إلى هداية فيبدو في صورة متطفل حاول أن يأخذ ما ليس له بصورة غير شرعية فأبعد عن ذلك وهو متهم فهو يعيش في الحالة القلقة.

---

(١) والمعنى فإن الواجب لابد أن يقوم به المسلم، لكن هناك من المعوقات أو العوامل التي تفرض نفسها عليه في الواقع تمنعه من القيام به أو تحول بين إتمامه على الوجه الأكمل وخاصة إذا كانت تلك المعوقات سلطة قهرية لا يملك حيلة أمامها ومن هنا يحدث التنافر بين الأمرين.

الأحداث التاريخية والسياسية

التي واكبت ظهور الحشاشين

بدأ ظهور حركة الحشاشين في زمن كان فيه الصراع السياسي والعقائدي في أرجاء الأقاليم الإسلامية على أشده، في حين لم تعد السلطة العباسية إلا سلطة شكلية، حيث غدا نفوذها وفاعليتها خيالاً من الماضي وسراباً في المستقبل، وضاعت هيبتها نتيجة الصراعات المحتدمة بين طوائف الأمة.

أما بلاد فارس وما وراء النهر، وما يليهما إلى الشرق وإلى الجنوب، فكانت خاضعة للأتراك السلاجقة .

أما مصر وشمال أفريقيا فكانتا تحت رحمة الشيعة الفاطميين، الذين أحكموا قبضتهم على مجريات الأمور، وأصبحت الخلافة العباسية في الشرق تحسب لهم ألف حساب ..

أما الأندلس فكان مسرحاً لدويلات صغيرة، قامت على أنقاض الخلافة الأموية، تسمّى زعماؤها بملوك الطوائف.

وفي المناطق الأخرى كأعالي الطرق وشمال الشام، كانت الإمارات المستقلة الخاضعة للخارجين على الخلافة، المناوشين لها.

وقد كان الصراع السياسي، والعراك العسكري، والتناحر العقائدي، خاصة بين السنة والشيعة هو الطابع والروح التي سادت ذلك العصر كله .

وحتى يتسنى لنا تقديم صورة واضحة عن حركة الحشاشين وعن الدور الخطير الذي لعبته في ضوء تلك الظروف التي كانت تمر بها الخلافة الإسلامية ويمر بها العالم الإسلامي من ورائها، كان يجدر بنا أن نلقي نظرة مباشرة على البيئة السياسية والاجتماعية والتغيرات السريعة التي حدثت في أكثر من اتجاه وعلى أكثر من مستوى.

لقد أفلحت الخلافة العباسية في توسيع رقعة الامبراطورية، فخضعت لها الدول شرقاً وغرباً، ودانت لها شعوبها، وامتد ملكهم الفسيح من مراكش إلى السند، فازدادت الخلافة توسعاً، وأصبحت امبراطورية لا تغيب عنها الشمس.

لكنَّ الضعف والانحلال بدأ يدبان في جسد الخلافة العباسية، وكانت أول علامات هذا الضعف انفصال الولايات المختلفة عن السلطة المركزية في بغداد، فعمّ الضعف وشرع سلطان الخلافة بالتفكك، وأخذت هذه الدويلات الصغيرة كل منها تنافس الأخرى وتغزوها، فاستقل الأمويون بالأندلس، والإخشيديون في مصر، في حين سيطر الفاطميون على شمال إفريقيا، وملك الحمدانيون حلب والثغور، وأصبحت العراق بيد الديلم، واستولى القرامطة على اليمامة والبحرين وبادية البصرة .. إلخ.

وعلى العموم فقد كان الواقع الإسلامي آنذاك مظهراً من أعظم مظاهر الاضطرابات تناقضت فيه حياة المسلمين العامة أشد التناقض، وسادت فيه الفوضى حتى عمّت جميع طبقات الأمة، واشتدت الضائقة الاقتصادية، وساء

نظام الحكم، وكثرت الفتن المذهبية وأزهقت آلاف النفوس البريئة على مذبح النعرات الدينية والتعصب المقيت.

وقد كان لتضافر هذه الأسباب وغيرها الأثر الفعال في تقويض النفوذ العباسي والحد من سلطانه، فلم يبق له ظل من الحقيقة سوى الشكل، وتجزأت الخلافة ـ كما أشرنا ـ إلى دويلات عديدة نتناول بعضها بإيجاز لما لعبته من دور لا يستهان به على المستوى السياسي والاجتماعي، كما ساهمت في رسم الخارطة السياسية للعالم الإسلامي آنذاك.

الدولة الفاطمية:

ظهر الإسماعيليون بمصر وشمال إفريقيا باسم الفاطميين بعد انحسار باقي فصائل الشيعة التي ناصرتهم ردحاً من الزمن.

ودامت الخلافة الفاطمية نيفاً ومائتي سنة، اتسعت رقعتها وامتد نفوذها حتى شمل بغداد نفسها عاصمة الخلافة العباسية التي تمثل مركز الإسلام السني آنذاك.

وبقيت كلمة الفاطميين تطبع الإسماعيليين إلى أن حدث الشقاق بين أبناء الطائفة الواحدة، فانقسموا إلى قسمين عُرفوا بالمستعلية والنزارية.

وسنعود إلى ذلك بالتفصيل لاحقاً.

الدولة السلجوقية:

لقد كان لمؤسس حركة الحشاشين الحسن الصباح صلة وشيجة وعلاقة متينة بآل سلجوق ولذلك كان لا بد من الحديث ولو بإيجاز عن هذه الحقبة

المهمة من التاريخ التي حكم فيها السلاجقة وامتد نفوذهم ووصلوا إلى أكثر مما كانوا يطمحون إليه.

كان السلاجقة بدواً لم يعرفوا حياة المدن، ولم تفسدهم الخلافات المذهبية، اعتنقوا الإسلام بحماس بالغ، ملك منهم قرارة النفوس والأرواح، فسعوا جهدهم لجمع المسلمين على كلمة واحدة ... وفعلاً استطاعوا في فترة وجيزة أن يعيدوا إلى الخلافة العباسية المحتضرة القوة والحياة.

ولم يتوقف زحفهم عند هذا الحد، بل واصلوا التقدم العسكري حتى شارفت عساكرهم على حدود خراسان، ولم تمض إلا فترة قليلة حتى بسطوا نفوذهم على أقاليم كثيرة، ثم كانت الخطوة الموالية بعد هذه الانتصارات المتتالية أن أرسلوا إلى الخليفة القائم بأمر اللّه رسالة ضمنوها شكواهم من البيت الغزنوي، وأنهم يعتنقون الإسلام ومؤكدين ولاءهم للخليفة، ساعين للوصول إلى رضاه عليهم واعترافه بهم.

وكان الخليفة يرجو أن ينقذه هؤلاء من سيطرة بني بويه، فأرسل إلى قائدهم طغرل يدعوه لمعونته، ولبّى القائد السلجوقي دعوته فأقبل سنة ٤٤٧ هـ في جيش عرمرم وصل مشارف بغداد، ودخلها طغرل في موكب رسمي مهيب، وهناك خلع عليه الخليفة مختلف الخلع والتشريفات وأجلسه على العرش إلى جواره، واعتبره فاتحاً ومنقذاً، ونودي به ملكاً على الشرق والغرب، وكان لقبه الرسمي السلطان.

ومن ذلك الحين دخلت الخلافة العباسية تحت رعاية جديدة، لم يعد الخليفة معها يملك إلا الزعامة الدينية.

وحدث أن غاب طغرل[1] في حملة إلى الشمال، فانتهز الفرصة أحد الموالين للفاطميين وأرغم الخليفة العباسي القائم بأمر اللّه على أن يمضي وثيقة تنازل عن حقوقه وحقوق كل العباسيين لمصلحة الخليفة الفاطمي المستنصر، وأرسلت إلى هذا الأخير شارات الخلافة بما فيها بردة الرسول ﷺ وغير ذلك من الآثار المقدسة وأشياء نادرة من قصر الخليفة العباسي لتكون تذكاراً لهذا الانتصار.

ولكن سرعان ما عاد طغرل إلى عاصمة الخلافة، وطهّرها من الخائن البساسيري[2] وأتباعه وألحق بهم شر هزيمة، وأعاد الخليفة القائم، وانتهت بذلك سلطة البويهيين، أعداء الخلافة إلى الأبد.

وبعد وفاة السلطان طغرل تولى بعده الملك ابن أخيه (ألب أرسلان[3]) الذي كان واليًا على خراسان، وكان ألب كما تقول عنه الروايات يقضي جزءًا كبيراً من وقته في دراسة التاريخ، كما كان مولعاً بالاستماع إلى أخبار السابقين التي تكشف عن أنظمة حكمهم وإدارتهم.

---

(١) هو محمد بن ميكائيل ركن الدين أبو طالب السلطان الكبير هو أصل السلجوقية، لقبه طغرل بمعنى طائر معروف عند الترك وبك بمعنى أمير. توفي سنة ٤٥٥ (سير أعلام النبلاء ١٠٧/١٨-١١١)

(٢) هو أبو الحارث الملقب بالمظفر، ملك الأمراء آرسلان التركي البساسيري نسبة إلى تاجر باعه من أهل فسا، ترقت به الأحوال إلى أن نابذ الخليفة القائم بأمر اللّه وخرج عليه بالتآمر مع المستنصر حاكم مصر الفاطمي أقام الدعوة للمستنصر بالعراق سنة وقتل الوزير ابن المسلمة وفعل القبائح حتى أقبل طغرلبك ونصر الخليفة ونزح البساسيري وعسكره وقتل (انظر سير أعلام النبلاء ١٣٢/١٨ - ١٣٣، والمنتظم ٢١٢/٨ والكامل لابن الأثير ٦٤٨/٩ - ٦٥٠.

(٣) يذكر ابن الأثير أن ولادته كانت بين سنتي ٤٢٠ - ٤٢٤ هـ ، وأنه تولى الحكم اثنتي عشرة سنة بعد موت عمه في سنة ٤٥٥هـ.

وبالرغم من أن المدة التي تولى فيها هذا الملك الحكم قصيرة الأمد، إلا أنه استطاع أن يخضع عدداً كبيراً من الأقاليم لسيطرته، ويبسط عليها نفوذه، كما تمكن من دحر الروم إلى بلادهم، كما استطاع أن يخمد بعض ثورات الخارجين عن الخلافة في أماكن متفرقة، وأن يسترد حلب ومكة والمدينة من الفاطميين.

ومات هذا الملك القوي مقتولاً، بعد أن عهد بوصاياه إلى وزيره، ومستودع سره، أبو علي الحسن بن إسحاق الملقب بـ (نظام الملك)، ودُفن في مدينة مرو.

نظام الملك:

لابد لنا ونحن نستعرض الواقع السياسي للخلافة الإسلامية قبل ظهور حركة الحشاشين من الإتيان على ذكر رجل، كان اليد المدبرة الهادية، ينظم شئون البلاد ويشرف على أحوالها الإدارية والسياسية والمالية والتجارية وغير ذلك، لمدة ثلاثين عاماً.

فكان بذلك أقدر رجال الإدارة وأقوى رجال السياسة، كما كان كثير الاهتمام بالعلم والثقافة وحريصاً على تكريم العلماء والعناية بهم، وقد استطاع بالفعل أن يستقطب عدداً لا بأس به إلى بلاطه، وكان أبرز هؤلاء أو أشهرهم الفلكي المعروف عمر الخيام، وهناك قصة تشير إلى أن نظام الملك وعمر الخيام والحسن الصباح كانوا أصدقاء طفولة، وقد تعاهدوا وهم يطلبون العلم على أنه إذا وصل أحدهم إلى مركز مهم، أن يساعد الآخرين ويأخذ بأيديهم، غير أن التحقيق التاريخي للقصة يكشف الضعف الفاضح الذي صبغ القصة وغطى الحقيقة، وهذا ما سنبحثه لاحقاً. وهناك جانب مهم في شخصية نظام الملك

طبع نشاطه في بلاط الحكم وأدت به إلى أن دفع حياته ثمناً لذلك[1] ، فقد كان سني المذهب شديد النقمة على الفرق المبتدعة والمذاهب الهدامة، غير متسامح في أمور الدين، ولذا نجده يأسف لأن الدولة تستخدم في أعمالها النصارى واليهود والشيعة، وخاصة الإسماعيلية المتمثلة في حركة الحشاشين التي يتزعمها الحسن الصباح، والذي كان يرى فيها نظام الملك أنها تهدد وحدة الدولة، وأن زعماءها من نسل المزدكية، ومن هنا فقد حارب الحركة حرباً لم تهدأ في يوم من الأيام حتى انتهت باغتياله على يد أحد أتباع الحركة.

وقبل هذا كان نظام الملك قد عُزل من طرف السلطان ملكشاه نتيجة لمؤامرات داخل أجهزة السلطة بقصد تنحيته وإبعاده بالإيقاع بينه وبين السلطان، وقد تم ذلك بالفعل وخلفه (أبو الغنائم تاج الملك) حليف زوجة السلطان (تركان خاتون) وهما أعدى أعداء نظام الملك. ولم يعش نظام الملك بعد عزله طويلاً.

والحقيقة أنه بمجيء السلاجقة وسيطرتهم على الأمور بُعثت في الإدارة الحكومية حيوية جديدة وكفاية لم تكن لها من قبل، كما بُعثت في المجتمع الإسلامي قوة جديدة من الإيمان الصادق السليم.

ولكن هذه المملكة الواسعة التي حفظت للخلافة الإسلامية ما يمكن أن نسميه بالوحدة الداخلية، سرعان ما تلاشى ملكها وانكمش نفوذها وتحطمت على صخرة نزعات السلاطين نتيجة للمنافسة بينهم والتحاسد بين قوادهم الذين

---

(١) سنشير إلى ظروف وملابسات اغتياله عند الحديث عن تفاصيل الصراع الذي دار بينه وبين حركة الحشاشين على مدار سنين طويلة.

كانوا يجرون وراء مصالحهم الشخصية[1].

ظهور التتار:

في هذه الظروف التي كانت تمر بها الخلافة الإسلامية، وفي هذا الجو المشحون بالخلافات والتوترات ظهرت قوة رهيبة، تركت كل مكان عامر صحراء بلقعاً، وخرائب متراكمة، ونشرت الخراب في كل أرض تطالها يدها، واستأصلت تحركاتهم كل مراكز الثقافة في الشرق الإسلامي.

وأسلم قائدهم جنكيزخان للسيف الكثير من السكان المسلمين، وساق أمامه جموعاً من الأسرى، وكان يفعل ذلك بكل مدينة دخلها، حتى أنه وصف نفسه في إحدى خطبه بعد الاستيلاء على بخارى بأنه عذاب اللّه أرسله إلى الناس عقاباً لهم على خطاياهم، وعندما زار الرحّالة ابن بطوطة هذه المدن التي مرّ بها التتار وصفها بأن أكثرها لا يزال خرائب ينعق فيها البوم.

إن همجية التتار فاقت أي تصور، وكأنهم لم يكونوا ينتمون إلى الجنس الإنساني إلا ببنيتهم الشكلية، أما جوهرهم فكان جوهر الوحوش الغبية الغادرة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن مدينة مرو التي كانت مكتبتها مفخرة الإسلام، ومدينة الري الجميلة ومساجدها البالغ عددها الثلاثة آلاف، وما كان

---

(١) كانت الإمبراطورية السلجوقية مؤسسة على النظام القبلي لشعوبها البدوية، فكان لا يستطيع أن يجمع بين هؤلاء إلا رجل يتمتع بشخصية قوية مسيطرة، وكان نظام الإقطاعيات الحربية الذي أسسه نظام الملك، والذي جعل هذه الإقطاعيات وراثية للمرة الأولى، من العوامل التي أدت إلى تأسيس حكومات شبه مستقلة.

فيها من مصانع الفخار الذائعة الصيت، حولها التتار الهمج إلى أكوام من الحجارة، وتلال من الجثث بعدما استمرت فيها المذابح أياماً ولياليَ.

لقد كانت هذه الوحشية والهمجية جزءًا من علوم الحرب عند التتار، وكانوا يقصدون بها شلّ قوى أعدائهم بما يبثونه من الرعب والفزع في نفوسهم، وقد كان الإرهاب أول وسائلهم في الوصول إلى أهدافهم، ولم تستطع أية قوة صدّ زحفهم المتواصل، فسادت حالة من الذعر والفوضى لم يشهدها العالم الإسلامي من قبل.

ويصل التتار إلى مشارف بغداد فيحاصرونها، وينذرون خليفتها، ويتوعدون أهلها، ولم تمض إلا ليالٍ حتى استسلمت المدينة بمن فيها، ويدخلها التتار، وفي مقدمتهم هولاكو، بعد خيانة الوزير الشيعي ابن العلقمي[1].

وانقضّ جنود هولاكو على الأهالي، وأحدثوا في المدينة السلب والنهب والقتل، حتى فتكوا بما يقارب المليون شخص، ودُمرت دور العلم وهلكت آلاف الكتب النفيسة بين لهب النيران، بعد ما أمضى أهلها في جمعها جهوداً كبيرة وسنين تبلغ القرون ولم تتحطم أسطورة الجيش الذي لا يُغلب إلا في عين جالوت على يد الملك المظفر (قطز) وقائد جيوشه (بيبرس)، وتبدد بذلك

---

(١) هو محمد بن محمد بن علي بن أبي طالب، ابن العلقمي البغدادي الرافضي وزير المستعصم كانت دولته أربع عشرة سنة فأفشى الرفض وتآمر مع هولاكو ضد الخلافة (سير أعلام النبلاء ٢٣/٣٦١-٣٦٢) وهذه نتيجة طبيعية لاستخدام هذا الصنف من الروافض في الوزارة والمناصب واستظهارهم على أهل السنة وجعلهم بطانة وخاصة مما لا يؤمن معهم شراً ولا يسلم أحد من خيانتهم وخداعهم لما يحملوه من حقد وبغضاء على أهل السنة لا تزيله إلا نار جهنم.

كابوس فظيع عاشت فيه البشرية سنين طوال، ووصل خبر انهزام التتار إلى كل أصقاع الدنيا، فذهب الروع وساد الأمن، وعاد التتار إلى رشدهم فأسلم قائدهم (غازان) وتحمس التتار للإسلام وعملوا على إعادة بناء حضارة الإسلام التي دمرها جدهم الأكبر هولاكو.

ولا شك أن القرن السابع الهجري وخاصة نصفه الأول يُعدُّ من أسوأ الفترات التي مرّ بها الإسلام، ولم يكن الاختلاف السياسي والتناحر على السلطة كل ما نُكب به ذلك العصر، بل إن الضائقة الاقتصادية والتعسف الإداري كانا أشد اضطراباً وأسوأ حالة، فقد جاوز الغلاء حدود التصور وبلغ الفقر منتهاه، وفُرضت على الناس الضرائب الثقيلة بلا رحمة ولا هوادة، وعمّ الظلم وانتشرت الفوضى، وثار عامة الناس على مثل هذه الأوضاع، فأحرقوا ودمّروا ووصل بهم الأمر إلى أن هدموا المنابر ومنعوا صلاة الجمعة تنديداً بسوء الحالة والانحطاط الاجتماعي الذي وصلوا إليه، وإظهاراً للسخط وعدم الرضا.

ولم تكن النكبة الدينية والتطاحن المذهبي أقل فتكاً بالناس، فقد بلغت الأوج وكثرت الفتن والقلاقل بين أهل النحلة الواحدة.

ولا غرو فإن فساد البيئة، وسوء حالة المجتمع، واضطراب العقائد، عوامل قوية على إيجاد الجمعيات والجماعات السرية التي تهدف إما إلى إنقاذ المجتمع من براثن الفساد والفوضى وإما التي تسعى إلى تحريض الناس على الإغراق في الفتن، وتعمل على تقويض أسس الوحدة والأخوة الإسلامية.

الأصول التاريخية لحركة الحشاشين

اختلف الباحثون قديماً وحديثاً في تحديد أسباب التشيع[1] ، وزمان نشوئه، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى، حيث ردّه بعضهم إلى مصادر أجنبية، في حين ذهب آخرون إلى أن ظهور التشيع يعود إلى بدء الدعوة الإسلامية.

كان التشيع في بادئ الأمر لا يعني أكثر من موالاة علي ﷺ ومناصرته، إلا أنه مع مرور الزمن أصبح الاعتقاد "بالنص والوصية" على إمامة علي بعد الرسول ﷺ يشكل الأساس لهذه الموالاة، وبدأت الشيعة في عهد الخلافة الأموية يتجهون في حركتهم اتجاهاً دينياً، وارتكزوا في معارضتهم للخلافة الأموية وغيرها على موضوع الخلافة.

لقد كانت بذرة التشيع كامنة في نفوس الذين يرون أفضلية علي للخلافة، ثم تنامت هذه البذرة في غياب اجتهاد ديني واضح المعالم لأصول الحكم، وإثر وقوع الفتن والحروب بعد مقتل الخليفة عثمان ﷺ والإمام علي الذي كان مقتله نذير الانحلال في الصفوف[2] ، الذي أيقظ في نفوس من يتعاطفون مع آل البيت شجوناً وأحزاناً تبلورت بصورة مذهب متميز.

ولم يتمكن هؤلاء الموالون لآل البيت من المحافظة على وحدتهم، ثم تشعبت من بعد ذلك مبادئ الشيعة، واختلفت طوائفهم فيمن هو أحق بالأمر

---

(١) الواقع أن تقلب التشيع بين أطوار مختلفة هو الذي جعل الباحثين يختلفون في نشأته.

(٢) لقد كانت هذه الفتن من أعظم العوامل التي صدعت من هيبة الخلافة.

من آل البيت وبايعت كل طائفة لصاحبها سراً، ولبثوا يرقبون الفرص للخروج وتأييد دعوتهم بالسيف.

ولقد أسفر نضال الشيعة الخفي لقلب نظام الحكم عن انفجار ثوري هائل هزّ تعاليم الإسلام إلى الأعماق.

وفي هذه المرحلة المبكرة من تاريخ الشيعة تعرضت نظرياتها ومنظماتها لتغييرات كثيرة، فقد ظهر عدد كثير من الذين يدعون الانتماء بدرجة أو أخرى لأهل البيت، ثم كانوا يختفون عن الأعين بعد أن يضيفوا تفصيلات جديدة إلى الأوصاف الأسطورية للمخلّص المنتظر!! وأمور أخرى تمثل حجر الزاوية في عقائد القوم. وكانت برامجهم تتراوح بين المعارضة وبين البدع الدينية المتطرفة التي هي أبعد ما تكون عن الإسلام والتي لاقت رواجاً بين الفرس.

ومن أهم السمات التي أدخلوها: تقديس الأئمة واعتبارهم معصومين، وأن التشيع عقيدة دينية خالصة، وكانت نظرياتهم في ذلك تعكس أفكاراً صوفية واستشراقية مستمدة من مذاهب ونحل مختلفة إلحادية ويهودية ونصرانية ومجوسية ... إلخ.

ومن ذلك الحين ألفى الطامعون من الزعماء في ثورة الشيعة سلاحاً يشهرونه وقت الحاجة، وفي نظرياتهم وتعاليمهم وسيلة لاستهواء الناقمين والبسطاء.

لقد كانت الحركة الشيعية حتى منتصف القرن الثالث تميل إلى الاصطباغ بالصبغة الدينية ولا تقصد بالهدم من المبادئ إلا ما ترى أنه يخالف مبادئها ويتعارض مع غاياتها السياسية، غير أنها تحولت بعد ذلك إلى أداة هائلة لهدم

المعتقدات الدينية والنظم السياسية، بل تحول بعضها في الوقت نفسه إلى أداة خطرة تعمل لسحق جميع المبادئ الاجتماعية والأخلاقية.

[عبد الله بن ميمون القداح]

كان أول من أشهر معول الهدم على هذا النحو الشامل، رجل اسمه عبدالله بن ميمون القدّاح، وهو ابن فقيه ملحد من جنوب فارس هو ميمون بن ديصان، وكان ابن ديصان إمام جماعة من الملاحدة يزيِّفون الأحاديث وينشرون في العامة مبادئ الإنكار والهدم والإباحة، ويظهرون في نفس الوقت تشيعاً لآل البيت حجباً لحقيقة مقاصدهم، وتفرق دعاتهم في كل الأنحاء، يدعون كل طائفة بما يناسب ميولها، ويظهرون للعامة والبسطاء من الناس في ثوب الورع والزهد.

وقد تربى هذا الملحد في جو هذه المبادئ الحرة الخالية من كل قيد، حتى من قيود الدين، وفي جو التعاليم الفلسفية والمادية، وتفقه في تاريخ الأديان، وكان شديد الإلحاد والإنكار، ثم ادعى اعتناق مبادئ الشيعة الإسماعيلية وزعم أنه وقف على الأسرار الروحية والعلوم الخفية التي تقول الإسماعيلية إن إمامهم إسماعيل علّمها لابنه محمد المكتوم.

فذاع صيته وبلغت دعوته أماكن شتى، فالتف حوله الإسماعيلية، ولم يلبث بعد ذلك أن قبض على ناصية الحركة الشيعية.

ولم يكن ولاؤه لآل البيت ولا دعوته إلى إمامة إسماعيل إلا قناعاً يستتر وراءه، وقد كانت غايته الحقيقة بث التعاليم المادية، فنشط إلى إدماجها في مذهب خاص ونظَّم طائفة الباطنية إلى جمعية سرية هائلة ذات مراتب تسع.

وقد كان برنامجه في ذلك «أنه يدمج المغلوبين والغالبين في هيئة واحدة، وأن يجمع في حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين[1] وبين الغلاة من جميع الطوائف، وأن يجعل المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة، وأن يعمل الظافرون على قلب الدول التي شادوها ..».

ولم يبحث عبدالله بن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخُلَّص، ولكن بين الثنوية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية، ولم يكن يعتمد في نشاطه إلا على الطائفة الأخيرة، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره وما يخفي من عقيدته، وهي أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالاً وسخرية، وأن باقي البشر ليسوا أهلاً لفهم هذه التعاليم[2] ، وأما أمام الناس فكانوا يتحجبون بقناع الزهد والفضيلة، وقد عبّر أحدهم عن ذلك بقوله: «ادعُ الناس بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه، وأوهم كل واحد منهم بأنك على مثل فكره ومذهبه، فمن آنست منه رشداً، فاكشف له الغطاء، وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به، فعلى الفلاسفة معولنا..».

وأسفرت هذه الوسائل عن نتيجة مدهشة هي أن جمهوراً عظيماً من رجال يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معاً لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم[3] .

---

(١) وهم الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لسيادة الشعوب.

(٢) وهي نفس المفاهيم التي رفعها اليهود في كل زمان ومكان.

(٣) هذا البرنامج الذي ابتدعه ابن ميمون كان مستقى لكثير من الجمعيات الهدامة الحديثة في صوغ مبادئها وتنظيم صفوفها، وأن فكرته الجوهرية وهي حشد جمهور كبير من الأنصار ودفعهم إلى العمل لغاية يجهلونها، كانت نواة برامج هذه الجمعيات.

يقول ابن الجوزي ـ رحمه اللّه تعالى ـ : «الباطنية قوم تستروا بالإسلام ومالوا إلى الرفض وعقائدهم وأعمالهم تباين الإسلام بالمرة، فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث، ولكنهم لا يُظهرون هذا في أول أمرهم بل يزعمون أن اللّه حق وأن محمداً رسول اللّه والدين صحيح، لكنهم يقولون لذلك سر غير ظاهر».

ولأن الباطنية الإسماعيلية ظلوا يعملون في الخفاء فترة طويلة فإنهم تمكّنوا من تكوين فرقة بزّت كل منافسيها في تماسكها وتنظيمها وجاذبيتها العقلية والعاطفية وظهر في الفرقة الجديدة عدد من المفكرين تمكّنوا من تطوير نظرية دينية على مستوى فلسفي وأنتجوا فكراً استمدوه من مصادر القدماء وخاصة الفكر الأفلاطوني.

يقول الدكتور يحيى هاشم فرغلي: «إن الإسماعيلية في فترتها الأولى التي لا تتعدى القرن الثاني الهجري لم تكن قد تمزّقت بعد إلى شُعب كثيرة، فكانت من ثمَّ تحتوي على خمائر الانحراف: الغلو في الإمام، والغلو في التفسير الباطني ... وكانت هذه الخمائر كامنة إلى حدّ بعيد لا يفجرها شيء، من مقتضيات الخلاف ولا يعمل على توليدها شيء من مقتضيات الصراع السياسي الذي اضطرت إليه بعد». وفي الصفحات التالية من هذا الكتاب نرى انفجار هذا الغلو الذي بدأت به الإسماعيلية الباطنية.

إن هدم تعاليم الإسلام الدينية والأخلاقية، بل هدم الإيمان الديني عامة، هي الغاية التي عمل لتحقيقها أسلاف الإسماعيلية وعلى رأسهم ابن ميمون، ومن بعد ذلك الحشاشين الامتداد الفكري والعقدي للإسماعيلية الباطنية.

لقد كانت فكرة ابن ميمون لا ترتكز على العنف الظاهر، ولكن على تعاليم سرية تقصد بالتدريج إلى هدم كل المعتقدات الدينية من الأساس، وإلى خلق حالة من الفوضى العقلية لا الفوضى المادية .. غير أن أتباعه الذين تبنوا منهجه بعد ذلك كالقرامطة والحشاشين وغيرهم انحرفوا عن الطريق التي رسمها ابن ميمون.

لقد عجلوا الانفجار قبل أوانه وحوّلوا الطوائف السرية الهائلة قبل أن ينضج تنظيمها، وقبل أن تتمكن تعاليمها من اجتياح مجتمع عظيم إلى جماعة صغيرة من الخوارج ممن دفعتهم خيبة الأمل أو استهواهم أمل النهوض والكسب إلى اعتناق المبادئ الجديدة، وجعلوا منها حركة محلية قبل أن تصبح حركة شاملة، وأسبغوا عليها من ضروب السفك والعنف الشيء الكثير، وقنعوا بالملك السياسي والثروة العاجلة.

لقد كان لهذا الحديث عن الأصول التاريخية للإسماعيلية ومنه لحركة الحشاشين أسبابه نوجزها فيما يلي:

إن الطائفة الإسماعيلية أصبحت أعظم طائفة ثورية وسرية عرفها الإسلام، لبثت زهاء قرن ونصف ترعب الدول والشعوب الإسلامية من فارس إلى الشام، واستطاعت أن تحشد جموع البسطاء والدهماء باسم الدين لتحقيق أغراض السياسة واعتمدت في حربها مع خصومها على التنظيمات السرية والتوسعات التحتية أكثر مما اعتمدت على المواجهة العلنية.

إن الإسماعيلية استخرجت مبادئها من تعاليم الملحدين من أمثال ميمون بن ديصان وولده عبدالله ، ثم من تعاليم القرامطة، ودار الحكمة الفاطمية، فهي بذلك طور من أطوار الدعوة الثورية الهدّامة التي نظمها ابن ميمون وتتمة لها.

لقد أخذت الإسماعيلية في الظهور أكثر عندما اضمحل أمر الدولة الفاطمية في مصر وتضاءل نفوذ دار الحكمة والتعاليم الشيعية.

وقد ظهر دعاتها في أول الأمر في بلاد فارس[1]. وكان أبرزهم داعٍ يُسمى أحمد بن عطاش[2] وكان أبوه باطنياً حتى النخاع، وكان الإسماعيلية قبل ذلك بدؤوا في الانتشار وفي قتل الأبرياء وترويعهم، واتخذوا من إحدى القلاع قاعدة لهجماتهم وغاراتهم.

غير أن الذي نظّم الحركة، ووضع برنامجها الفذ وجعل منها جمعية سرية خطيرة ذات فروع وشُعب منبثة في فارس والشام وبلاد أخرى، هو الحسن بن علي المعروف بابن الصباح، وتُعرف حركته بالحشاشين[3].

لقد كانت الفرق الشيعية كثيرة الأسماء، متعددة الاتجاهات، متباينة العقائد، اختلفت مذاهبها، وتباعدت مشاربها، وقد جنح أكثرها إلى الغلو والضلال، وأدخلوا في الإسلام وثنية جديدة، وأقحموا عليه كثيراً من عقائد الوثنيين والمجوس.

والإسماعيلية واحدة من الفرق الشيعية التي جنحت إلى هذا الغلو والضلال وإنما سُميت بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، والفرق بينها وبين

---

(١) لقد كانت بلاد فارس منذ البداية معقل الشيعة وملاذ التعاليم الشيعية، ومهد الحركات السرية والإلحادية المتعاقبة التي نُظمت لتقويض وهدم مبادئ الإسلام الحنيف.

(٢) طاغية الإسماعيلية الرئيس أحمد بن عبدالملك بن عطاش العجمي، كان أبوه من كبار دعاة الباطنية، كان جاهلاً، لكنه شجاع مطاع، أُخِذَ وسُلِخ آخر سنة ٥٠٠ هـ سير أعلام النبلاء ٢٦٧/١٩ والمنتظم ١٠١/١٧، ١٠٢.

(٣) سيأتي الكلام عن الحسن الصباح وحركته بالتفصيل لاحقاً.

الإمامية الإثنا عشرية من حيث ترتيب الأئمة، أن الإمامية لم تعترف بإمامة إسماعيل لأسباب، وانتقلوا بالإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم ثم إلى ابنه علي الرضا إلى آخر الأئمة الإثنى عشرية.

وفي بعض الروايات أن جعفر الصادق قد نحى ولده إسماعيل من الإمامة لأنه وجده ثملاً، ولأنه لم يلتزم حدود الدين فاقترف الكبيرة وشرب الخمر، غير أن أنصار إسماعيل أنكروا هذا التصرف من جعفر الصادق، واعتبروا إسماعيل معصوماً، وإن كان قد شرب الخمر فإنما شربها لأمر في علم اللّه تعالى، وتمسّكوا به إماماً ورفضوا إمامة أخيه موسى.

وهناك رواية تقول إن إسماعيل توفي في حياة أبيه، فانتقلت الإمامة تبعاً لذلك إلى ابنه محمد، لأن الإمامة لا تكون إلا في الأعقاب وغير جائز أن تنتقل من أخ لأخيه إلا في حالة واحدة، هي انتقالها من الإمام الحسن إلى الإمام الحسين، يتذرعون في ذلك بالآية الكريمة: ﴿**وجعلها كلمة باقية في عقبه**﴾ [الزخرف: ٢٨].

وفسّروا الكلمة بأنها الإمامة، ورفضوا إمامة موسى الكاظم ولم يعترفوا بها، خاصة أن محمد بن إسماعيل كان أكبر سناً من عمّه موسى.

وفي رواية ثالثة تقول إن إسماعيل لم يمت، وإنما غيّبه والده، تقية وخوفاً عليه وأشاع في الناس خبر موته ليحميه من الاضطهاد الذي كان مسلطاً على أئمة الشيعة، ويستدل أصحاب هذه الرواية بأن إسماعيل قد رُئيَ بالبصرة، وأنه قد مرّ على مُقعد فدعا له فبرئ بإذن اللّه تعالى.

تلك هي الروايات التي وردت بصدد الإمام السابع إسماعيل الذي تنسب الإسماعيلية نفسها إليه، والواقع أن الإمام إسماعيل بن جعفر قد مات في حياة أبيه، وأما ما يحتج به الإسماعيلية من إشهاد الصادق على موته، ولم يُعهد أن

سُجِّل على ميت، فالأمر كما يقول الدكتور النشّار: «أن جعفراً فعل هذا خوفاً من ادعاء الغلاة بغيبته ورجعته لا خوفاً عليه من المنصور».

علاقة الحشاشين بالفاطميين:

تحقق أكبر انتصار للإسماعيلية في ركن آخر من أركان العالم الإسلامي، ففي شمال أفريقيا: كان النجاح حليفهم في تأسيس دولة[1] وصلت إلى درجة من القوة دعت الإمام المستور إلى أن يظهر من الاختباء ويعلن نفسه خليفة في شمال أفريقيا ويتخذ لقب المهدي.

وتكونت دولة جديدة وأسرة حاكمة جديدة تُعرف باسم الفاطمية، بدعوى أنها من نسل فاطمة بنت رسول الله ﷺ.

وبينما كانت الدولة العباسية تمر بمرحلة اضطراب وضعف، ويتعاقب في خلافتها عدة من الخلفاء الضعاف، أمثال المقتدر، والقاهر، والراضي وغيرهم، كانت دولة خصيمة فتية هي الدولة الفاطمية تسير مسرعة إلى النماء والتوطد، التي كانت تشد أزرها القبائل البربرية التي أقامت ملك الفاطميين فوق ملك الأغالبة.

---

(١) يرجع بعض الباحثين هذا النجاح إلى الجهود الشخصية التي بذلها كبير الدعاة أبو عبدالله الحسين الشيعي من أهل صنعاء اليمن، وهو الذي أعلن نفسه في نهاية القرن الثالث الهجري مبشراً بظهور المهدي، وتمكن من غرس بذور الثورة بين قبائل البربر في شمال أفريقيا، وكان شمال أفريقيا في تلك الحقبة تحت حكم الأغالبة، لكنّ المؤامرات والكيد المتتابعين من طرف أبي عبدالله الشيعي وأتباعه، عجّلت بسقوط دولة الأغالبة التي ظلت تحكم زهاء قرن من الزمن، وقد كان الأغالبة آخر من يمثل الإسلام السني في المنطقة.

ورغم أن الفاطميين استطاعوا أن يقهروا كل قبائل المغرب، وأن ينفذوا بفتوحاتهم في المغرب الأقصى حتى المحيط، فإنهم لم يعتبروا انهم وصلوا بإقامة ملكهم في إفريقيا إلى ذروة الأماني والغايات.

كانت الدولة الفاطمية تشعر في هذه المناطق النائية شيئاً ما أنها تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية والمذهبية الكبرى، فلا بد إذن من العمل على مناجزة الدولة العباسية خصيمتها السياسية والمذهبية والعمل على تقويض دعائمها وانتزاع زعامة المسلمين منها.

وكانت مصر في نظرها هي ميدان المعركة الحاسمة بينها وبين الدولة العباسية كما كانت في نفس الوقت هي أصلح مركز في نظر الفاطميين لتحقيق ملكهم السياسي وإقامة إمامتهم الدينية.

وخاض الفاطميون هذا الصراع الحاسم منذ الساعة الأولى، فزحفوا على مصر غير مرة و لكنهم لم يتمكنوا من فتحها، إذ كانت مصر تصمد كل مرة بفضل رباطة جأش جنودها، وحنكة قوادها، وكانت دولة بني الإخشيد أبرز من مثّل هذا الصمود في وجه الزحف الفاطمي النازح من المغرب.

وشُغلت الدولة الفاطمية بشؤونها الخاصة لبعض الوقت، فلم تعاود هجومها لفتح مصر، لكنها بقيت تراقب سير الحوادث وسلسلة التغيرات بمنتهى العناية مستغلة الظروف الداخلية لمصر، من تمرد للجند الساخط لانتقاص أعطيته، ومن زعماء ناقمين على بني الإخشيد، وقد كان فريق من هؤلاء هم الذين دعوا الفاطميين إلى غزو مصر.

وما أن مات كافور الإخشيدي حتى سرت عوامل الانحلال والوهن سراعاً إلى قوى مصر المادية والمعنوية.

وكانت هذه العوامل تفعل فعلها في إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس، وزهدت مصر كلها في النضال والمقاومة.

وفي سنة (٣٥٨ هـ ـ ٩٦٩م) استولى على مصر جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين[١] ، وأسس مدينة القاهرة، ثم قدم المعز إلى مصر بعد ذلك بأعوام ونقل قاعدة ملكه إليها، وظلت منزل أبنائه من بعده.

ولما هدأت ثورة الفتح وثبتت دعائم ملكهم، استأنف الفاطميون بث دعوتهم المذهبية، وكان أنشطهم في ذلك حفيد المعز الحاكم بأمر الله الفاطمي، الذي استأنف الدعوة السرية الفاطمية ونشط في إذاعتها بطريقة فعّالة منظمة لم يفكر أحد فيها قبله، ذلك أنه أنشأ في القاهرة معهداً خاصاً لبث تعاليم الدعوة الشيعية وتخريج الدعاة لها، وكان هذا المعهد الذي سُمي «دار الحكمة»[٢] مدرسة مفتوحة لكل طالب، والتعليم فيها على نفقة الدولة، وكذا تمويل جميع المشاريع التي تكفل الحماية للدعوة المذهبية والاستمرارية لها.

لم تكن مصر للفاطميين غُنماً سياسياً فقط، ولكنها غدت أيضاً معقلاً للدعوة الشيعية، التي لبث بنو العباس يطاردونها زهاء قرنين، والتي بدأ ظفرها السياسي بالسيطرة على اليمن ثم المغرب.

---

(١) هو جوهر بن عبدالله أبو الحسن الرومي المعزي توفي سنة ٣٨١هـ واستولى على مصر ٣٥٨هـ.

(٢) وقد أسفرت تعاليم «دار الحكمة» عن ظهور طائفة سرية أخرى، هي طائفة الدروز أتباع إسماعيل الدرزي، وهم طائفة صغيرة لم تلعب دوراً كبيراً في الثورة على الإسلام كباقي الشُعب الإسماعيلية، وهم دهرية يقولون بالحلول، وأن الله "حكمة عامة" تمثّل في آلهة عدة.

كما أن الدولة الفاطمية كانت منذ قيامها بمصر تحتفظ بنفس الصبغة المذهبية التي اتسمت بها منذ قيامها بالمغرب، وكانت هذه الصبغة المذهبية الخاصة عنصراً من أهم عناصر الخصومة السياسية التي نشبت بين الدولتين العباسية والفاطمية، غير أن هناك مفارقة تلفت النظر وتدعو للتساؤل:

لماذا فشلت الدعوة الإسماعيلية في تدعيم عقيدتها في تلك البلاد رغم نجاحها السياسي الكبير الذي استطاعت أن تحققه في تلك الفترة، لدرجة أن كل أثر فكري من آثارها زال معها عند الزوال السياسي للدولة؟.

لقد ركّز الدعاة الإسماعيليون في نشاطهم الديني والفكري على الجانب السياسي التنظيمي باستثمار سخط الجماهير على الولاة والاعتماد على التحالفات القبلية.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار الغياب الفعلي للسلطة العباسية عن هذه المناطق ندرك أن نجاح الدعاة الإسماعيليين كان نجاحاً سياسياً بالدرجة الأولى، وبالتالي فإن الأيديولوجية أو العقيدة الإسماعيلية بدت غائبة، وفي لحظات حضورها، كان حضورها حضوراً مغترباً، ولعل السبب في ذلك وجود العلم الشرعي السني بكثافة لدى العوام من الناس.

وبالرغم من انتشار مدارس الدعوة والحكمة التي أنشأها الفاطميون بتونس ومصر لتكون مراكز إشعاع فكري وتكوين أيديولوجي، فإن العقيدة الإسماعيلية لم تتجاوز حلقات كبار الدعاة الذين كانت مناقشاتهم في العقيدة والمذهب على المستوى الفلسفي تكاد لا تتعدى جدران هذه المدارس.

وإن دل هذا على شيء فإنما يدل وببساطة على أن الدعـوة الإسماعيلية في هذه المناطق لم تستطع أن تحول انتصارها السياسي إلى انتصـار عقـائدي، وهـذا هو شأن الباطل دائماً إذ إنه يتلاشى بسرعة عند ظهور الحق دون مقاومة تذكر.

نسب الفاطميين:

ما إن تأسست الدولة الفاطمية، حتـى بـرزت مشـكلة النسـب الفـاطمي، كأكبر مشكلة تواجه هذه الدولـة الـتي لا يـدل سـلوكها ـ فضـلاً عـن الموقـف التاريخي ـ على أنها صادقة النسب إلى بيت النبوة.

إن أهمية هذه المسألة تبدو واضحة متى ذكرنـا مـا تقـرره نظريـة الإمامـة الشيعية من أن الإمامة أو رياسة الأمة الإسـلامية، هـي حـق مقـدس لآل البيـت وعقبهم، يختصون بها وتنحصر فيهم إلى يوم القيامة.

وقد لبثت هذه المسـألة مـدى عصـور موضـع الخـلاف والجـدل في العـالم الإسـلامي .. وكثيرٌ هـم الذيـن ينكـرون نسـبة الفـاطميين إلى آل البيـت، ويرجعونها إلى عبدالله بن ميمـون بـن ديصـان القـداح، الـذي كـان يدعـو إلى مذهب فلسفي إلحادي لإنكار الأديان والنبـوة، صاغـه في تسـع مراتـب سـرية، ينتهـي الداخـل فيهـا إلى إنكـار جميـع العقـائد والشـرائع، ومـن دعوتـه صيغـت دعوات سرية هدامة أخرى.

يقول عبدالقاهر البغدادي (ت٤٢٩ هـ) عنـد ذكـره للدعـوة الباطنيـة؛ أن ميمون بن ديصان القداح باعتباره من مؤسسي هذه الدعوة، وبأنه كان مجوسـياً من سبي الأهواز، وكان مولى لجعفر الصادق، وأنه رحل إلى ناحية المغـرب (أي

في اتجاه الشام) ، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب، وزعم أنه من نسله، ثم ادّعى أنه ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

وهناك روايات صريحة في أصل الفاطميين المجوسي أو اليهودي، فمثلا يقول القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ) : «إن القداح جد عبيد الله كان مجوسياً، ودخل عبيد الله المغرب، وادّعى أنه علوي، و لم يعرفه أحد من علماء النسب، وكان باطنياً خبيثاً، حريصاً على إزالة الإسلام .. وكان القداح كاذباً محترقاً، وهو أصل دعاة القرامطة ..».

وأما نسبة المهدي إلى اليهودية فيقول لنا القاضي عبد الجبار البصري: «إن اسم جد الخلفاء المصريين سعيد، ويُلقب بالمهدي وكان أبوه يهودياً حداداً بسُلميّة[1] ، ثم زعم سعيد هذا ، أنه ابن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون القداح، ويزعم أهل الدعوة أن سعيداً هذا إنما هو من امرأة الحسين المذكور، وأن الحسين رباه، وعلّمه أسرار الدعوة، فلما دخل المغرب، وأخذ سجلماسة تسمى بعبيدا لله، وسمى ابنه الحسن ، وكناه أبا القاسم».

ويبدي ابن حزم ـ رحمه اللّه ـ ريبة في نسب الفاطميين إلى آل البيت، ويذكر لنا أن المهدي ادّعى انه من ولد جعفر بن محمد بن إسماعيل، وادّعى مرة أخرى أنه من ولد الحسين بن محمد بن إسماعيل، ثم يقول: «كل هذه دعوى مفتضحة، لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر لم يكن له ولد اسمه الحسين، وهذا كذب فاحش، ولأن مثل هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب، ولا يجهل أهله إلا جاهل».

---

(١) بلدة تقع في البادية السورية شرق مدينة حماه.

ويبدي العلاّمة ابن خِلّكان مثل هذا الريب إذ يقول في ترجمته لعبيد اللّه المهدي: «إن أهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواه في النسب».

وقد أصدر بلاط بغداد محاضر رسمية كثيرة موقعاً عليها من طرف أكابر الفقهاء والقضاة، وبعض زعماء الشيعة، يتضمن الطعن في نسب الفاطميين، وأنهم ليسوا من آل البيت، وأنهم كفار زنادقة، وفساق ملاحدة، أباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسبّوا الأنبياء، وادعوا الربوبية، وأنهم يرجعون إلى أصل يهودي أو مجوسي.

وهذه الوثائق بالرغم مما يشوبها من كدر الخصومة السياسية، من قبل الخلافة العباسية التي كانت تشعر بخطر الخلافة الشيعية الجديدة على سلطانها الروحي، فإنها مع ذلك تحمل من التوقيعات أسماء لها مكانتها الرفيعة من العلم والدين، مثل الباقلاني، والإسفراييني والقدوري والأبيوردي وغيرهم، ومن ثمّ فإنها تجعلنا نشعر أنها لم تكن فقط مزاعم بلاط موتور، إنما هي فوق ذلك وثائق لها قيمتها التاريخية فيما ذهبت إليه.

وإلى جانب ذلك أيضاً فإن معظم الروايات المصرية المتأخرة[1] وفي مقدمتها رواية النويري وابن حجر تميل إلى الشك في نسب الفاطميين، والمصريون بقربهم من العصر الفاطمي أقدر من غيرهم على تحري مصادر العصر الفاطمي وتراثه، وهم أصحاب الرواية الراجحة والقول المفضل في تلك المسألة الجدلية.

أما على المستوى الشعبي فلم يستطع الفاطميون بغير الدرهم والسيف

---

(١) يُلاحظ أن التواريخ المصرية في العهد الفاطمي تلزم الصمت إزاء هذه المسألة.

إقناع أحد من المغاربة أو المصريين بصحة نسبهم، فلم يعدُ الأمر أكثر من عقدين من الزمان من نزوحهم من المغرب، حتى كانوا يُسَبّون في أسواق المغرب، وكان قتلهم ومقاومة بدعهم قربة إلى اللّه.

وأما في مصر فكما يذكر ابن خلكان من أن إنكار المصريين للنسب الفاطمي كان إنكاراً عاماً، ويضرب ابن خلكان لذلك عدة أمثلة، منها ما ورد من أن العزيز باللّه (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) صعد المنبر يوم الجمعة في أوائل أيام خلافته فرأى ورقة فيها هذه الأبيات[١]

إنا سمعنا نسباً منكراً يُتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً فاذكر أباً بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع

وهكذا في كل المستويات كان إنكار النسب الفاطمي، أمراً شائعاً، وكان محل سخرية من الكثيرين.

ومن ثم فإنا على ضوء هذه الروايات التاريخية، لا نجد في تدليل المؤيدين[٢] للنسب الفاطمي ما يلقي ضوءاً كافياً أو مقنعاً في هذه المسألة، وكيف نعدل عن تلك الروايات التاريخية المعقولة والراجحة إلى أقوال طائفة من

---

(١) الملفت للنظر أن الخلفاء الفاطميين لم يذكروا لنا نسبتهم مفصلة في أية مناسبة من المناسبات الرسمية، بل كانوا يؤثرون الانتساب مباشرة إلى الإمام علي بن أبي طالب.

(٢) من أبرز المؤيدين للنسب الفاطمي والمدافعين عنه المقريزي وشيخه ابن خلدون، إلا أن الشوكاني يحكي عن ابن خلدون أنه كان يصحح نسبة الفاطميين إلى آل البيت ليطعن في آل البيت، =

الدعاة الإسماعيلية المتأخرين من رواة القرن التاسع والعاشر الهجريين، وقد كتب معظمهم في الهند واليمن بعيداً عن موطن المصادر والوثائق، واتسمت رواياتهم بطابع الإغراق والأسطورة، فضلاً عن النزعة المذهبية الخاصة؟.

ولا نود أن نذهب في تقدير نسب الفاطميين إلى حد الإغراق فإن النسب مسألة تشريف لا غير، وليس له كبير دخل في نشأة الدول.

ونحن إذ نرفض نسبة الفاطميين إلى آل البيت، فإن ذلك لا يمنعنا من أن نهتم بهم كصفحة من التاريخ، لابد أن تُدرس وأن تأخذ حقها من العناية وأن توضع في مكانها الصحيح، وتُعطى حجمها الحقيقي، بل ويكشف دورها في تحطيم الخلافة في فترة تاريخية حرجة، وللأسف الشديد لم يكشف إلى اليوم الدور الذي قامت به هذه الدولة والأعمال التي مارستها ضد أهل السنة في المغرب والمشرق.

انقسام الإسماعيلية:

العقيدة الإسماعيلة توجب التسلسل في الإمامة مع وجوب النص على الإمام، وقد ظل الأمر كذلك لفترة إلى أن بدأت الأهواء السياسية والمطامع الذاتية تدب وسط الدولة الفاطمية، وتعمل عملها في أصحاب النفوذ وصنّاع القرار، و لم يعد هؤلاء يأبهون لهذا النص.

فقد حدث أن نص الخليفة الفاطمي المعز لدين اللّه على أن يليه ابنه عبداللّه ولكنّ المنية عاجلت هذا الأخير في حياة أبيه، فعاد ونص على أن يليه

=وبسبب فعله هذا أنكر عليه العراقي والهيثمي وكلاهما من أكابر علماء مصر (انظر ترجمة ابن خلدون في البدر الطالع للشوكاني) الناشر.

ابنه عبدالعزيز، وكان ذلك انحطاطاً يناقض بصورة بارزة العقائد والآمال التي تتحلّى بها العقيدة الإسماعيلية.

وحدث الأمر نفسه مع الإمام المستنصر الذي نصّ على تولي الإمامة بعده ابنه نزار، غير أن وزيره وصاحب النفوذ القوي في بلاط الدولة آنذاك الأفضل ابن بدر الجمالي نحّى نزاراً وأعلن إمامة المستعلي الإبن الأصغر للمستنصر، وهو في نفس الوقت ابن أخت الوزير، ضارباً عرض الحائط بمشروعية النص.

وباختيار المستعلي كخليفة قسّم الأفضل بن بدر الجمالي الفرقة الإسماعيلية من الرأس إلى القدم واستبعد بالتالي جميع أتباعها في بلاد الإسلام الشرقية.

ولم يقف الوزير عند هذا الحد؛ بل عمل على القبض على نزار والفتك به، غير أن هذا الأخير غادر القاهرة إلى الأسكندرية بدعوى من حاكمها ناصر الدولة وقاضيها جلال الدين بن عمار، فبايعه أهلها، كما أتته البيعة وكُتب الولاء من سائر بلاد فارس وما جاورها.

وأثار كل ذلك حفيظة الوزير الأفضل بن بدر، وخشي من تنامي قوة نزار فيصبح خطراً على الخلافة المستعلية، فسار إليه في رأس جيش وحاصر مدينة الأسكندرية لكنه لم يفلح في مسعاه هذا فعاد يجر أذيال الهزيمة، لكنه عاود الكرّة ثانية فأفلح في فتح المدينة وألقى القبض على حاكمها وقاضيها وعلى خصمه نزار فجرّه في قيوده وسجنه إلى أن مات.

غير أن المصادر الإسماعيلية النزارية لا تؤيد هذا القول، إذ يقول أكثرها بأن نزاراً قد تمكن من مغادرة الأسكندرية سرّاً أثناء الحصار برفقة الفدائيين

الذين أوفدهم الحسن الصباح[1] ، واتجه إلى بلاد فارس حيث استقر به المقام في جبال الطالقان وأسس الدولة النزارية الإسماعيلية التي جمعت بين نظام الدولة الفاطمية في زعامة الإمام وبين الدولة القرمطية في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

ومنذ سقوط الدولة الفاطمية، لم يعد هناك إسماعيليون في مصر، ولكنّ الفرقة استمرت في النشاط في بلاد أخرى بفرعيها الرئيسيين اللذين انقسمت إليها بعد وفاة المستنصر، أما أتباع المستعلي فهو المعروفون الآن بطائفة البهرة في الهند أو الطيبية[2] في اليمن، ويُطلق على عقيدتهم أحياناً "الدعوة القديمة" حيث إنها تسير على التقاليد النظرية الرئيسية للفترة الفاطمية.

وبينما كان المستعليون يجنحون إلى الركود في المراكز البعيدة من العالم الإسلامي، كان منافسوهم النزاريون - أتباع نزار - يدخلون في مرحلة من التطور النشط سواء في العقيدة أو العمل السياسي، ولعبوا لفترة طويلة قادمة دوراً هاماً ومثيراً في الشؤون الإسماعيلية.

---

(١) وهذا ماتؤكده مصادر الإسماعيلية النزارية، من أن الحسن الصباح رفض الاعتراف بالمستعلي، وخطب باسم نزار، وأرسل على إثر ذلك فدائيين إلى مصر لإحضار نزار أو أحد أبنائه إلى قلعة آلموت.

وكان الحسن قد ذهب حاجاً إلى إمامه المستنصر - وكان الأئمة يُحجّ إليهم - وشهد النزاع بين نزار والأفضل بن بدر الجمالي، فانتصر لنزار وعاد إلى فارس، وأخذ يدعو إلى المذهب الجديد وجعل من نفسه نائباً للإمام المستور، وانتقم بعد لنزار بقتل الإمام الآمر بن المستعلي.

(٢) نمت بين هؤلاء عقيدة بأن ثمّت ابن ضائع للأمير يُدعى "الطيب" هو الإمام المخفي والمنتظر ولن يكون هناك أئمة بعده.

حركة الحشاشين أو الدعوة الجديدة:

نجح التيار الإسماعيلي في إقامة دولة كبرى في المغرب، ولكن هذا النجاح لم يكن في واقع الأمر إلا من الناحية السياسية ـ كما أسلفنا ـ أما من الناحية العقائدية فقد فشل في نشر عقائده وتصوراته بين الناس فشلاً ذريعاً، لدرجة أن كل أثر عقائدي للإسماعيلية في المغرب قد اندرس وزال بزوال سيطرتهم السياسية على هذه الرقعة من بلاد الإسلام، على خلاف ذلك تماماً نجد أن التيار الإسماعيلي قد حقق في المشرق نجاحاً عقائدياً حيث أخفق سياسياً، لقد اندمج رجال التيار في كثير من الأحيان من الأنظمة القائمة وهادنوها خشية الملاحقة والمواجهة، وركزوا جل جهودهم في العمل الفكري، حيث نجحوا في جذب عدد من العلماء والمفكرين، وصار لهم نفوذ قوي في عدد من المراكز العلمية وانتهى بهم الأمر بعد ذلك إلى أن سيطروا على الساحة الفكرية ردحاً طويلاً من الزمن.

إن متطلبات الهيمنة الثقافية والحفاظ عليها قد جعلت دعاة الإسماعيلية يركزون على العمل الفكري بالدرجة الأولى وبالتالي نشر الفلسفة التي تؤسس أيديولوجيتهم السياسية والدينية، مما كان نتيجته قيام مدرسة فلسفية هرمسية[1] تخدم الحركة فكرياً.

لقد اضطر الدعاة الإسماعيليون إلى التركيز على العمل الفكري بدل

---

(١) نسبة إلى هرمس كاهن مصر الأول وحاكمها، وهي فلسفة ترجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد. وتعكس في مجموعها جواً من التلفيق والتوفيق بين المذاهب الفلسفية والدينية، اليونانية والشرقية المختلفة.

المغامرة بتنظيمات سياسية ستتعرض للمتابعة والملاحقة لا محالة، فاتجهوا إلى الأوساط العلمية و لم يترددوا في الانخراط في حاشية الحكام والسلاطين[1] ، وبفضل هذه الاستراتيجية الملتوية والقفز على الحبلين كونوا كياناً خاصاً بهم، وفلسفة خاصة أيضاً تضم أمشاجاً من الفيثاغورثية الجديدة والأفلاطونية المحدثة بالإضافة إلى عناصر من الفكر الإيراني الزرادشتي القديم.

وقد كان الترويج لهذا الفكر على يد ثلاثة من كبار الفلاسفة الإسماعيليين[2] ، عاشوا أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين.

كان أولهم أبو عبداللّه بن أحمد النسفي، تلميذ أحد كبار الفلاسفة الإسماعيليين في خراسان هو الأمير الحسين بن علي المِرْوَرُوزي.

تولى النسفي هذا أمور الدعوة إلى المذهب بعد وفاة شيخه الأمير، واستطاع أن يستميل أحد الأمراء السامانيين الذي اعترف بإمامة الفاطميين، وأصبح النسفي يحرك خيوط اللعبة ومن وراء ذلك دواليب الحكم في هذه المنطقة، لكن نشاطه لم يدم إلا فترة قصيرة، حيث قُبض عليه وصدر الحكم بقتله هو وكبار رجال الدعوة ومعتنقيها، فكانت محنة كبيرة نزلت بالحركة الإسماعيلية وأدّت إلى وقف نشاطها إلى أن أحياها الحسن الصباح من جديد.

أما على الصعيد الفكري فقد استمر نشاط الحركة، وإن كان قليلاً، وذلك من خلال مؤلفات النسفي ولا سيما كتابه «المحصول» الذي كان أول

---

(١) وهي سنة متبعة في عصرنا أيضاً حيث تراهم من الحاشية لكل سلطان وإن كان لهم معادياً، بل لا يكاد يخلو قصر من واحد منهم!!

(٢) بالإضافة إلى تأثير رسائل إخوان الصفا التي كانت المرجع الفلسفي الأول للحركة الإسماعيلية. (انظر حقيقة إخوان الصفا للملاح طباعة دار الفتح).

كتاب في التنظير العقائدي والبناء الفلسفي للمذهب الإسماعيلي.

جاء بعد النسفي تلميذه الفيلسوف أبو يعقوب إسحاق بن أحمد السجستاني أو السجزي، والذي قُتل هو الآخر بتركستان سنة ٣٣١ هـ بسبب معتقداته المتطرفة وآرائه الجريئة، الأمر الذي يعطينا صورة واضحة عن التغيرات التي حدثت للحركة الإسماعيلية في هذه الفترة.

يبقى الفيلسوف الإسماعيلي الثالث أبو حاتم الرازي[1] الذي كان من الأوائل الذين وضعوا الأسس النظرية للعقيدة الإسماعيلية، كما استطاع استمالة بعض الشخصيات الكبيرة إلى المذهب.

ومن مؤلفاته كتاب «أعلام النبوة» الذي عرض فيه لعقائد الإسماعيلية في الألوهية والرسل والنفس والزمان والمكان وغير ذلك من المسائل التي كانت موضع اهتمام المفكرين والباحثين في الفكر العقدي الديني.

والملاحظ في هذه الفترة أن نفوذ الحركة الإسماعيلية فكرياً أخذ يزداد ويتسع، لدرجة أن الحركة خرجت من السرية في العمل والتنظيم إلى العلانية فيهما، ولا أدل على ذلك من دخولها في حوارات ونقاشات دارت فيما بين فلاسفة الحركة أنفسهم من جهة، وبينهم وبين غيرهم من أصحاب المذاهب المختلفة من جهة أخرى.

لقد استهدفت الحركة الإسماعيلية من وراء السيطرة الفكرية الوصول إلى السيطرة السياسية، لكن النجاح لم يكن حليفها على هذا الصعيد وعانت فشلاً ذريعاً في ذلك، وتعرضت من جراء محاولتها تلك إلى اضطهاد واسع النطاق بين

---

(١) وهو غير أبي حاتم الرازي المحدث الحافظ المعروف صاحب التصانيف في علوم الحديث.

السجن والنفي والقتل[1].

وفي ضوء هذه الانتكاسات المتكررة، وبعد أن استنفذت الدعوة الإسماعيلية جميع الوسائل من أجل تحقيق السيطرة السياسية، أصبح من الضروري البحث عن أسلوب عمل جديد.

لقد فشلت سياسة التفتح والدعوة الجهرية للعمل من أجل الهيمنة الفكرية، فلم يبق إلا العمل السري المنظم، وهذا ما فعله الحسن الصباح مؤسس «الدعوة الإسماعيلية الجديدة» أو «حركة الحشاشين» الذي قدم استراتيجية ثورية جديدة وفعالة، خصوصاً بعد أن أخذت الإمبراطورية الفاطمية تلفظ أنفاسها الأخيرة[2].

---

(١) ونلاحظ الشي نفسه يحدث، والتاريخ الحديث يجلي أن بعض الحركات كان تركيزها على الدعوة في هذا الاتجاه على خط الدولة أكثر من سيرها وتركيزها في الدعوة على خط المجتمع.

(٢) إن الضعف السياسي الذي مُني به الفاطميون بعد عصر المستنصر، كان من العوامل التي دفعت الإسماعيلية في بلاد فارس وما حولها إلى الانطلاق غير المحدود في نزعة التطرف والمغالاة فيها.

الحسن بن الصباح الحميري

حياته:

اسمه الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن الحسين بن محمد بن الصباح الحميري، وُلد سنة ٤٤٥هـ في بلدة الري [١]، وترجع نسبته إلى قبيلة حمير، قدم أبوه من اليمن إلى الكوفة، ومن الكوفة إلى قم ومنها إلى الري مسقط رأس الحسن.

كان أبوه من أقطاب الدعوة الشيعية، وقد وجّه جُلّ اهتمامه لتربية الحسن وتثقيفه الثقافة الشيعية.

نشأ الحسن غزير الثقافة، كثير النقاش والمناظرة مع أهل المذاهب المختلفة، وكانت فارس في ذلك الوقت مقراً عظيماً للدعوة الإسماعيلية، وميداناً يضيق بنشاط الدعاة الإسماعيليين الذين انتشروا في أنحاء تلك البلاد يبشرون بمذهبهم ويجادلون خصومهم تارة بالحجة وأخرى بغيرها كالعنف وما إلى ذلك.

وبفضل هذا التوجيه والمتابعة المستمرة تبحّر الحسن في جميع العلوم المعروفة في ذلك العصر، وخاصة العلوم الفلسفية، وعلم الكلام، والمنطق ..إلخ[٢]

---

(١) اختلف المؤرخون في تحديد العام الذي وُلد فيه الحسن الصباح، وقد اعتمدنا هذا التاريخ (٤٤٥هـ) كأرجح التواريخ، حسبما تؤكده كثير من الدراسات لا سيما الإسماعيلية منها.

(٢) قال عنه ابن الأثير (١١٨/١٠): «إنه من كبار الزنادقة، وهو الحسن بن الصباح الإسماعيلي الملقب بالعابد صاحب الدعوة النزارية، ومن دهاة العالم، كان رجلاً شهماً عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر، وكان الحسن من جملة تلامذة ابن عطّاش الطبيب الذي ملك قلعة أصبهان، دخل على المستنصر في مصر فأكرمه وأعطاه مالاً، كان قوي المشاركة في الفلسفة، كثير المكر والحيل بعيد الغور».

وذكر بعض المؤرخين أن الحسن الصباح تثقف وتأدب على الموفق لدين اللّه النيسابوري، وأنه كان زميل دراسة للشاعر عمر الخيام والوزير الشهير نظام الملك، وأن هذه الزمالة بينهم بلغت مبلغاً عظيماً من الود والترابط، لدرجة أنهم تعاهدوا على اقتسام السعادة التي يحصلون عليها في حياتهم العملية، ودارت الأيام وأصبح نظام الملك وزيراً في دولة السلاجقة، وبحكم هذا العهد الذي كان بينهم، تقدم منه زميلاه طالبيْن منه أن يبرّ بما تعاهدوا عليه، فأما عمر الخيام ففاز منه براتب سنوي ضخم مدى حياته، وأما الحسن فأصر على الحصول على منصب كبير في بلاط الدولة، وما أن دخل الحسن في خدمة السلطان حتى أصبح منافساً للوزير نظام الملك، ولم ينتظر هذا الأخير حتى يسحب البساط من تحت قدميه، بل تآمر على الحسن واستطاع أن يحجّمه أمام السلطان ويلحق به الخزي، فاضطر الحسن إلى الفرار بنفسه والنفاد بجلده، ومن يومها دخل الاثنان في صراع لم ينته.

وعند إخضاع القصة للتحليل التاريخي نجد دلائل كثيرة على بطلانها، ونجد أنفسنا إزاء معلومات خيالية خاطئة وبعيدة عن المنطق والواقع التاريخي.

فمن الممتنع أن يكون الحسن الصباح ونظام الملك اجتمعا على مقعد دراسي واحد، لأن التفاوت ظاهر بينهما في العمر، حيث إن ولادة نظام الملك كانت في سنة ٤٠٨هـ بينما كانت ولادة الحسن سنة ٤٤٥هـ، ومعنى هذا أن نظام الملك يكبر الحسن بسبع وثلاثين عاماً، فهذا الفارق الواضح والهائل بينهما في السن يجعل من غير الممكن أن يكون أحدهما زميل دراسة للآخر.

ولقد تعرض المؤرخ «جرانفيل براون» لهذه القصة فقال: «وأروع هذه القصص وأكثرها ذيوعاً هي القصة التي تربط بين نظام الملك والرجل الرهيب

(الحسن الصباح)، مؤسس (الدعوة الجديدة) الذي أجمعت الأدلة على أنه كان على صلة بمقتله فيما بعد، وهذه القصة يعرفها كل المعجبين بـ (عمر الخيام) ورباعياته، وهي تشتمل على كثير من المصاعب المتصلة بالتواريخ المتناقضة التي لا يمكن التوفيق بينها، لأن أهم المصادر التي ذكرتها هي (الوصايا) التي ينسبونها إلى (نظام الملك) وقد ثبت قطعاً أنها منتحلة عليه، ومن أجل ذلك فإن كبار النقاد لم يترددوا في رفض هذه الرواية التي تفترض أن رجلين من أشهر الرجال هما (الحسن الصباح وعمر الخيام) كانا من زملاء (نظام الملك) في الدراسة أيام الشباب، والمعروف عن (نظام الملك) أنه ولد سنة ٤٠٨هـ، وعلى ذلك فليس من اليسير أن نتوقع أن هذين الشخصين بالذات يعيشان إلى أن يبلغا المائة من العمر، حتى لو فرضنا احتمال ذلك لكانا أصغر سناً بكثير من (نظام الملك) الذي يبدو أنه فرغ من دراسته وتحصيله والتحق بالخدمة العامة في سن مبكرة..».

ومهما يكن من أمر فقد كان لجهود كثير من الدعاة الإسماعيلية ولتعاليمهم ونظرياتهم ومؤلفاتهم الأثر العميق في نفس الحسن الصباح.

وكان المذهب الإسماعيلي قد أخذ في الانتشار خاصة لما ظهر أمر المهدي الفاطمي في المغرب، ومما زاد وضاعف في نشاط الدعاة كأبي حاتم الرازي والنسفي وأبي يعقوب السجزي، هؤلاء الثلاثة الذين كانت لهم اليد الطولى في بسط المذهب الإسماعيلي ووضع القواعد والأصول المتعلقة بالمذهب، خاصة ببلاد فارس وما وراء النهر .

ويذكر صاحب جامع التواريخ: أن الحسن لما بلغ السابعة من عمره شغف شغفاً شديداً بالدراسة والتحصيل، حتى إذا بلغ السابعة عشرة من عمره

استوعب جميع ما درسه وقرأه في استغراق ونهم، وقيل إنه كان إلى ذلك الوقت كأبيه من أتباع مذهب(الإثنى عشرية) ولكنه اصطدم بدعاة الإسماعيلية فحمي وطيس المناظرة بينهم واستمرت المناقشات زمناً طويلاً، ويقرر الحسن ذلك فيقول: «منذ طفولتي، بل منذ السابعة من عمري، كان جل اهتمامي تلقي العلوم والمعارف والتزود بكل ما أستطيعه منها في سبيل توسيع مداركي، وكنت كآبائي قد نشأت على المذهب الإثنى عشري في التشيع، ولم أكن أرى في غيره طريقاً للخلاص من آفات العالم، ولكن حدث أن تعرفت في شبابي إلى أحد دعاة الإسماعيلية الفاطميين، فكنت أجادله جدالاً عنيفاً، وأخذ كل واحد منا يشيد بما هو عليه من عقائد مذهبية وآراء دينية، إلا أن حججه الدامغة تركت عندي أثراً قوياً جداً[1]، ثم افترقت عن الداعي قبل أن أعتنق المذهب، وبعد قليل أصابني مرض ألزمني الفراش، فخشيت أن تختطفني يد المنون قبل أن أتطهر باعتناق المذهب الإسماعيلي، إذ اعتزمت على اعتناقه بتأثير مناقشاتي مع الداعي[2]، ولما عوفيت وتعرفت إلى (أبي نجم السراج)، رغبت إليه في أن يزيدني حديثاً عن مذهبه، وأخذت أفكر تفكيراً عميقاً في تعاليم هذا المذهب، ثم قُدّر لي أن أتعرف بالداعي (المؤمن)، وكان موفداً إلى مدينة الرّي من قبل عبدالملك بن عطاش داعي الدعاة في العراقين (العربي والعجمي) فتوسلت إليه

---

(١) لقد راعت الحسن مقدرة الدعاة الجدلية، فوقع تحت تأثير ذلك، فصادفت العقيدة الإسماعيلية هوى في نفس الحسن فصمم على اعتناقها.

(٢) كان للقاء الحسن مع هذا الداعية الإسماعيلي الكبير أبلغ الأثر في تطوره الروحي، حيث جعله على مفترق طرق محوري في رحلة حياته، لقد وجهه هذا الداعية الإسماعيلي وجهة نظرية وعملية لم تكن تخطر بباله في يوم من الأيام.

أن يقبل مني البيعة للخليفة الفاطمي بمصر، وأن يأخذ عليّ العهود والمواثيق، فتردد الداعي ثم أجابني إلى طلبي وبذلك دخلت الدعوة الإسماعيلية وصرت واحداً من أتباع الإمام الفاطمي بمصر، ولما وفد عبدالملك بن عطاش داعي الدعاة إلى الري مَثُلت بين يديه، ولما وقف على آرائي، واختبر استعدادي عهد إلي ببث الدعوة، وبذلك أصبحت داعياً إسماعيلياً ثم وجهني بقوله: عليك بالوفود على القاهرة لتنعم بخدمة مولانا الإمام المستنصر».

وبالفعل فقد عزم الحسن على الرحيل إلى مصر لرؤية الخليفة الفاطمي، وكان في سنة ٤٦٩هـ.

يقول الحسن في سيرة حياته التي كتبها بخط يده: « .... وفي النهاية وصلت إلى مصر في سنة ٤٧١هـ، فأقمت بها ما يقرب من سنة ونصف، ولم أصل طوال مدة إقامتي إلى المستنصر، ولكن المستنصر [١] كان واقفاً على أمري وامتدحني غير مرة، وكان أمير الجيوش[٢]، أمير جنده، هو المتسلط والحاكم المطلق، وهو في نفس الوقت صهر المستعلي الابن الأصغر الذي كان المستنصر قد نص نصاً ثانياً بأن يكون ولياً للعهد، وكنت أنا طبقاً لقاعدة أصول مذهبي أقوم بالدعوة لنزار، لذلك ساءت علاقة أمير الجيوش بي، فعقد خاصره استعداداً للنيل مني، وكانت نتيجة ذلك أنهم أجبروني على التوجه إلى المغرب فوق ظهر

---

(١) يعتقد الكثيرون من أصحاب هذا المذهب أن الحسن لما مثل بين يدي المستنصر زوّده بتعاليم روحية وعقلية جعلته يعتقد بأنه إنما خُلق ليؤدي مهمة نشر الدعوة الإسماعيلية، ولن يموت حتى يبلغ بمهمته درجة الكمال.

(٢) يقصد الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش ووزير المستنصر وصاحب النفوذ القوي في بلاط الدولة.

إحدى السفن مع جماعة من الفرنج، وكان البحر هائجاً فألقى بالسفينة إلى الشام».

وفي طريق عودته من الشام إلى مسقط رأسه الري، لم يكن الحسن يترك أمر الدعوة في أي إقليم يمر به، فكوّن مجموعة من الدعاة في أماكن مختلفة تدعو إلى مذهبه ونحلته.

غير أن أنباءه كانت تسبقه إلى حيث مراكز القرار، إذ كان الوزير نظام الملك ومعاونوه يعدون العدة للقبض على الحسن، فحال ذلك دون دخوله إلى الري[1].

وتحت هذه الظروف، ظروف المتابعة والملاحقة، سلك الحسن مسلكاً آخر، حيث أرسل مجموعة من الدعاة إلى قلعة "ألموت"، وكان هو قد التحق بمكان يقال له "أندجرود" لا يبعد كثيراً عن القلعة.

وعن طريق تظاهره بالزهد الشديد وقع كثير من الناس في حبائله وقبلوا دعوته، فحملوه إلى قلعة ألموت[2]، وكان ذلك في سنة ٤٨٣هـ، وبقي متخفياً

---

(١) ويبدو أن التعليل الذي يقول بأن الصدام بين نظام الملك والحسن الصباح، كان سببه أن هذا الأخير أصبح مقرباً من السلطان، حتى إنه صار يقدمه في الاستشارة في أمور الحكم وشؤون الرعية، وبأن ذلك أغار صدر نظام الملك، فدبر مكيدة للتخلص منه، يبدو أن ذلك غير صحيح، إذ معظم المؤرخين لا يؤيدون هذا التعليل، ومنهم ابن الأثير الذي يرى أن سبب ذلك هو نشاط الحسن الدعوي الواسع، وإيواؤه لمجموعة من الدعاة الفاطميين المصريين.

(٢) إن التسرب إلى داخل الكيانات القائمة والعمل السري للسيطرة عليها أسلوب خياني مشهور يسلكه كثير من الجماعات القائمة في وقتنا الحاضر.

بها فترة من الزمن، إلى أن اطّلع حاكم القلعة على واقع الحال، وعلم أنه عاجز عن التصرف؛ لأن الحسن وأتباعه كانوا قد توسّعوا تحتياً وتشكّلوا تنظيمياً، فما كان من حاكم القلعة إلا أن غادرها وسلمها لهم بحوالة قدرها ٣٠٠٠ دينار كثمن للقلعة.

كان ذلك بالنسبة للحسن أول انتصار يحققه، فقد كان يبحث عن المكان الذي يأوي إليه وجماعته ليكون مركزاً للدعوة، ومكاناً يلتقي فيه أبناء الحركة.

وكان عمل الحسن بعد استقراره في "ألموت" قاصراً على إظهار الدعوة وإضلال قصار النظر، فوجه الدعاة إلى سائر الأطراف والأكناف، وبدأ الناس يسمعون عن شيء يُسمى "الدعوة الجديدة"، وكانت هذه الدعوة هي بدعة الحسن الصباح التي أطلقها في الآفاق، فتفشت حكاية بدعته بعد ذلك، وامتدت أضرار طائفته إلى شريحة واسعة من الأمة.

المبادئ العامة لحركة الحشاشين

وأساليبها في الدعوة:

فرضت المعطيات السياسية والاجتماعية والثقافية في المنطقة على حركة الحشاشين الانصراف عن العمل المباشر وسياسة التفتح إلى التوسع التحتي والتشكل التنظيمي السري، وقد كان الدعاة الإسماعيليون ينظرون إلى فرقتهم باعتبارها حفيظة على أسرار وشعائر مقدسة لا يمكن المؤمن بالعقيدة أن يطلع عليها إلا بعد برنامج طويل من الإعداد والإرشاد، وكان التعبير الشائع الذي يُطلق على تنظيم الفرقة هو "الدعوة" والقائمون بها هم الدعاة الذين يماثلون القسس المعينين.

وقد كان ذلك نتيجة المعاناة السياسية والمحن الكبيرة التي نزلت بالحركة، حتى على عهد البويهيين الشيعة الذين سمحوا للحركة بالعمل ضمن إطار معين، لم يُتح لها في النهاية أن تحقق من ورائه أدنى انتصار.

وفي ضوء هذا الوضع الصعب، كان من الطبيعي أن تتغير سياسة الحركة، وأن يتغير تبعاً لذلك أسلوب الدعوة والعمل، وهو ما لجأت إليه الحركة في شكلها الجديد مع الحسن الصباح الذي انكب على تنظيم الحركة تنظيماً هرمياً سرياً محكماً، على أساس الولاء الشخصي ومبدأ "التعليم" الذي يربط الأتباع بالإمام ربطاً قوياً، معتمداً على السيطرة النفسية (السيكولوجية) وغزو الأذهان

بطرق منظمة بالغة الإحكام وتتمثل أهم معالم التنظيم السري وطرق الدعوة إليه في الجوانب التالية:

مراتب الدعاة:

كان دعاة الإسماعيلية يعتمدون في نشر عقائدهم وأفكارهم على تنظيم مدهش للدعوة يضم دعاة مهرة على مراتب متفاوتة، ولم تكن عقائدهم تُلقّن للمستجيب دفعة واحدة، إنما كان يتلقاها على درجات، كل واحدة مترتبة على السابقة.

كانت مراتب الدعوة قبل الحسن الصباح سبع درجات ثم زيدت إلى عشر، وكان يُطلق عليها " مراتب الحدود المؤثرة في الأنفس " ثلاث منها كلية، وسبع منها تابعة.

فالثلاث الكلية هي:ـ

الناطق: وله رتبة التنزيل، ومهمته إفاضة البركة بتأسيس قوانين العبادة العملية الظاهرة بالتنزيل والشريعة.

الأساس: وله رتبة التأويل، ويقول بقبول البركة بكليتها والقيام بها بجميع التنزيل وتأسيس قوانين العبادة العلمية الباطنية بالتأويل.

الإمام: وله رتبة الأمر وسياسة الأمة كافة على سنن الدين، وليس من مهامه أن يقوم بالدعوة بنفسه، بل يتولى توجيه سائر الدعاة ويرشدهم إلى نشر الدعوة وتلاوة مجالس الحكمة.

أما السبع مراتب التابعة فهي:

الباب: وله رتبة فصل الخطاب في أمور الدنيا والدين، وهو أول من يتلقى ويأخذ العلوم الإلهية والحقائق السرمدية عن الإمام، ثم هو بدوره يفيض بها على من هم دونه في المرتبة.

الحجة: وله رتبة إظهار تأويل الكتاب وارتضاء الآراء والمعتقدات والحكم فيما كان حقاً أو باطلاً، والحجة يكون ذا مهارات ومواهب حربية وسياسية.

والحجج قسمان: حجج النهار، وهم الذين يدعون في زمن الظهور وفي مناطق النفوذ الشيعي، وقسم لليل وهم الذين يدعون في زمن الستر.

داعي البلاغ: وله رتبة الاحتجاج وتعريف البلاغ.

الداعي المطلق: وله رتبة تعريف الحدود العلوية، وتعليم مراسم العبادة الباطنية.

الداعي المحدود: وله رتبة تعريف الحدود السفلية، وتعليم مراسم العبادة الظاهرة.

المأذون المطلق: وله رتبة أخذ العهد والميثاق.

المأذون المحدود: ويُدعى المكاسر، وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة، والهداية إلى الحق.

هذه هي مراتب الدعوة في الحركة الإسماعيلية التقليدية، لكن بعد أن تم للحسن الصباح تأسيس الدولة الإسماعيلية النزارية في آلموت أجرى بعض التغييرات في العقائد والنظام الاجتماعي والسياسي تتناسب مع تطور الأحوال الاجتماعية والسياسية، فجعل نظام الدعوة متطوراً أيضاً فقسمه إلى قسمين:

القسم الأول وخصصه للدعاية الدينية ويشتمل على:

شيخ الجبل: وهو نائب الإمام ورئيس الدعوة الجديدة، وكان الحسن الصباح يُلقّب نفسه ويلقبه أتباعه بهذا اللقب.

كبار الدعاة: وهم ثلاثة فقط، وجميعهم نواب لشيخ الجبل في مناطق ثلاث متفرقة، يضطلعون بالمهام العظمى والأمور الصعبة الخاصة بالحركة ومصالحها.

الدعاة: عددهم غير محدود، ينشطون تحت إشراف كبار الدعاة، ويدعون الناس إلى العقيدة الإسماعيلية النزارية وفق مخطط الحسن الصباح.

أما **القسم الثاني** فيشتمل على:

الرفيق: وهو الذي يكون قد سلك بعض المدارج في أصول المذهب، وأشبه بقائد الفرقة العسكرية اليوم، وكان يشرف على تدريب فدائيي الحركة وتوجيههم.

اللاصق: وهو الذي يكون قد أخذ البيعة للإمام ولم يتدرج في أصول المذهب وليس له الحق في نشر الدعوة.

الفدائي: وهو الأداة المنفذة والموكلة بالثأر والانتقام والعنف والاغتيال، ويتم اختيار الفدائي على أساس إخلاصه للحركة ومبادئها، واستعداده المطلق للتضحية في سبيل ذلك.

المستجيب: وهو المؤمن حديثاً بأفكار ومعتقدات الحركة، أي الذي يكون في طور التدريب والتعليم.

ثم يأتي **العوام** وهؤلاء لا يتلقون شيئاً من التعاليم وإنما يُستعملون كآلات صماء فقط، يُخدعون عبر مراحل متعاقبة من الحط بعقلياتهم وفي آخر تلك المراحل يُكشف لهم عن الكفر الكامل والمريع.

ويُشَبِّه (فون هامر) مراتب الدعاة والرفاق والفدائيين في الحركة بثلاث مراتب في البناء الحر (الماسونية) هي كبار البنائين، ورفاق النهضة، والصبية المبتدئون.

المرحلية في الدعوة:

كانت الدعوة تجري على نسق الجمعيات السرية، لها نظامها الخاص وشعائرها ولها درجات من الوظائف والمعرفة متدرجة في المعرفة والخطورة، كان الدعاة يعرضون هذه الدرجات والمراتب بالتدرج، طبقاً لاستعداد المدعوين وأهليتهم لتلقيها.

ولذا فإن هناك وسائل وأساليب معينة يلتزم بها الداعي في دعوته، فأولاً يتحتم عليه كما يقول القاضي النعمان: «اختيار أمر من يدعوه، ويتعرف أحوالهم رجلاً رجلاً، وتمييز كل امرئ منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه ويحمله عليه من أمر اللّه وأمر أوليائه ومقدار ما يحمله من ذلك وقدر قوته وطاقته، ومتى يوصل ذلك إليه، وكف يغزوه به، وامتحان الرجال وتعرف الأحوال، ومقدار القوى، ومبلغ الطاقات»[1].

ويؤكد القاضي النعمان في مكان آخر من كتابه على أهمية المرحلية والتدرج في الدعوة بقوله: «ولتثبيت أمر أولياء اللّه حدود وشرائط وآداب ودرجات يرتقي فيها الداخل في ذلك، فإذا لم يقف على ذلك أولاً فأول ويرتقيه درجة درجة، ووصل إليه منه الشيء قبل وصول ما يجب أن يصل إليه قبله هلك، كما أن الطفل لو حُمل عليه الطعام في حين ولادته لهلك.

ولذلك كان علم أولياء اللّه غير مطلق إلا لمن أطلقوه له، لأنه لو كان مطلقاً لأهلك بعض الناس به بعضاً ... فلهذا ولامتحان العباد أسرَّ أولياء اللّه

---

(١) الهمة في آداب اتباع الأئمة، ص ١٣٨.

ذلك وأخفوه، ولو نشروه وأظهروه على حقيقة الواجب فيه لما تخلف أحد عنه»[1].

ونكتفي هنا بأن نقدم خلاصة وافية لمضمون الدعوة في مراحلها التسع وذلك على النحو الآتي:-

المرحلة الأولى:

يحاول الداعي في هذه المرحلة أن يشكك المدعو[2] في معتقداته، فيسأله في بعض المسائل الدينية والشرعية، وبعض المسائل الطبيعية والمشكلات الغامضة، موهماً إياه أن الدين أمر مكتوم، وأن أكثر الناس به جاهلون، فهو صعب مستصعب وعلم خفي غامض، وأن أصل الشر والخلاف في الأمة انصراف الناس عن الأئمة الصادقين الذين نُصبوا لهم، وأقيموا لحفظ شرائعهم يؤدونها على حقيقتها، ويحفظون معانيها، ويعرفون بواطنها، وأن الناس لما عدلوا عن الأئمة ونظروا في الأمور بعقولهم، وقلدوا سفلتهم، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعاً للملوك وطلباً للدنيا، التي هي مُلك الآثمين وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة، الذين يحبون العاجلة، ويجتهدون في طلب الرياسة على الضعفاء، ومكايدة رسول الله وأمته، وتغيير كتاب الله عز وجل، وتبديل سنة نبيه، ومخالفة دعوته، وإفساد شريعته، ومعاندة الخلفاء الأئمة من بعده.

وأن دين محمد لم يجئ بما يحقق الأماني والشهوات الزائلة، ولا بما تعرفه الدهماء والكافة، وإنما هو علم خفي، وهو سر الله المكتوم الذي يرتفع عن

---

(١) الهمة في آداب اتباع الأئمة، ص٥٣.

(٢) ويعبر خصوم الإسماعيلية عن المدعو بالغر أو المخدوع.

الابتذال، ولا يطيق حمله وينهض بأعبائه إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن اصطفاه اللّه، فإن آنس الداعي من المدعو ارتياحاً وقبولاً، بدأ يسأله عن بعض المسائل الغامضة بغية إثارة حب استطلاعه.

ما عذاب جهنم؟ وكيف يصح تبديل جلد مذنب بجلد لم يذنب حتى يُعذّب؟ وما سبعة أبواب النار وما ثمانية أبواب الجنة؟ ولم جُعلت السموات سبعاً والأرضون سبعاً والمثاني من القرآن سبع آيات؟ ولماذا خلق اللّه العالم في ستة أيام؟ وهل عجز عن خلقه في ساعة واحدة؟ وما معنى قول الفلاسفة: الإنسان عالم صغير، والعالم (الطبيعة) إنسان كبير؟ وما معنى الحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن مثل: ألم، ألمص، كهيعص ..إلخ.

وينتهي الداعي بعد هذه السلسلة الطويلة من الأسئلة الغامضة إلى القول بأن اللّه الذي خلق الإنسان حكيم غير مجازف، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة، وله فيها أسرار خفية، حتى جمع ما جمع، وفرق ما فرق، فكيف يسع المرء الإعراض عن هذه الأمور؟! ألا يدل ذلك على أن اللّه أراد أن يرشدهم إلى بواطن الأمور الخفية وأسرار فيها مكتومة ... لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة، ودحضت كل شبهة، وظهرت لكم المعارف السنية .... فإذا علم الداعي أن نفس المستجيب قد تعلقت بما سأله عنه وطلب منه الجواب عنه أمهله مدة ليستيقن أن المحاولة قد أثرت في نفسه، ثم يأخذ عليه العهد بألا يفشي لهم سراً ولا يظاهر عليهم أحداً ولا يطلب لهم غيلة ولا يكتمهم نصحاً ولا يوالي لهم عدواً [1].

---

(١) نجد صورة كاملة للعهد الذي يأخذه الداعي على المستجيب في كل من نهاية الأرب للنويري (٢٣/٥٨)، وكنز الغرر وجامع الدرر (٦/٦٧)، والخطط للمقريزي (٢/٢٣٥)، وفضائح الباطنية للغزالي (١٨-١٩).

ثم يطالبه بعد ذلك بمبلغ من المال كرسم لقبول عضويته في الدعـوة، فـإذا امتنع المدعو عن القيام بذلك وقف به الداعي عند هذا الحد، وإذا أجـاب انتقـل به إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية:

يتعلم المستجيب فيها أن فرائض الإسلام لا تـؤدي إلى مرضـاة اللّـه إلا إذا كانت عن طريق أئمة نصبهم للناس وأقامهم لحفظ شريعته.

المرحلة الثالثة:

وفيها يتقرر عند المستجيب أن الأئمة سـبعة، قـد رتبهـم اللّـه كمـا رتـب السموات والأرضين، والكواكب وغيرها من جلائل الموجودات وجعلها سـبعاً، ويلقن المستجيب بعد ذلك معنى العدد سبعة في عالم المـادة والمعنـى، فـإذا تقـرر عند المستجيب أن الأئمة سبعة انحل عن معتقد الإمامية الإثنا عشرية، واعتقد أن أئمتهم الستة بعد جعفر الصادق، قد فقدوا العلوم الروحية في حين أن محمد بـن إسماعيل عنده علم المسـتورات وبواطـن المعلومـات وعلـم التـأويل وتفسـير علـم الظاهر، وأن دعاته هم الوارثون لعلمه دون سائر طوائف الشيعة.

المرحلة الرابعة:

وهي بدء التحول إلى المراتـب العليـا، وفيهـا يلقـن الداعـي المسـتجيب أن الأنبياء المعتبرين، الناسخين للشرائع ، النـاطقين بـالأمور، كالأئمـة سـبعة فقـط، وكل منهم لابد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته، ويكون لـه

ظهيراً في حياته ثم يخلفه بعد وفاته، ويتخذ له كنبيّه ظهيراً يخلفه، ويسير كل مستخلف على هذا المنوال، إلى أن يأتي منهم على تلك الشريعة سبعة، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون، لأنهم ثبتوا على شريعة واحدة واقتفوا أثراً واحداً ويقال لأولهم (السوس)، فإذا انقضى هؤلاء السبعة، فلا بد من أن يبدأ دور ثان من الأئمة، يفتتحه نبي ناطق ينسخ شريعة من مضى، ويخلفه على النحو المتقدم سبعة من الصُمت، وهكذا حتى النبي السابع من "النطقاء" فينسخ جميع الشرائع المتقدمة، ثم يقرر الداعي عند المستجيب أن السابع من النطقاء (الأنبياء) هو صاحب الزمان وهو محمد بن إسماعيل.

يقول النويري: «فهذه درجة قررها الداعي عند المدعو بنبوة نبي بعد محمد ﷺ وسهل بها طريق النقل عن شريعته .. فدخل المدعو بذلك في جملة الكفار المرتدين»[1].

وبظهور محمد بن إسماعيل الناطق الأخير والقائم أي صاحب الأمر تنتهي علوم الأولين وتبدأ العقيدة الباطنية وعلم التأويل.

المرحلة الخامسة:

يُلقن فيها المستجيب المزيد من التعليمات فيما يتعلق بعلم الأعداد والتأويل على نحو يجعله يرفض الكثير من الأحاديث النبوية، فيفقد الكلام نهائياً بمنطوق كلام اللّه، إلى أن يصل في النهاية إلى رفض كافة تعاليم الإسلام[2].

---

(١) نهاية الأرب (٢٣/٥٩).

(٢) أي ليكون تعويله في حججه وبراهينه على كلام لا تربطه ألبتة أي صلة بكلام اللّه أو سنة رسوله ﷺ.

كذلك يلقن الداعي المدعو أنه لا بد مع كل إمام قائم حجج متفرقون في الأرض، وعددهم اثنا عشر رجلاً في كل زمان.

ويستدل الداعي على ذلك بأمور منها أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً، ولابد في خلق كل شيء من حكمة، وإلا فليتأمل خلق النجوم التي بها قوام العالم سبعة، وجعل السموات سبعاً، والأرضين مثلهن، ونقباء بني إسرائيل اثنى عشر، ونقباء رسول الله ﷺ من الأنصار اثنى عشر نقيباً .. إلى آخر الحجج التي تمتلئ بها كتب الإسماعيلية.

المرحلة السادسة:

يتعلم المستجيب في هذه المرحلة التأويل والمعنى المجازي لشرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصوم .. إلخ، وأنها في الواقع ترجع إلى معانٍ وحكمٍ أخرى غير الظاهرة، وأنها وُضعت على سبيل الرموز لمصلحة العامة، فيضعف اعتقاد المستجيب في شرائع الدين وأركانه.

ثم ينتقل الداعي بالمستجيب إلى ميدان الفلسفة ونظريات الفلاسفة ويحضّه على النظر في كلامهم، والاقتداء بالأدلة العقلية والفلسفية والتعويل عليها، دون غيرها من الأخبار والأشياء المنقولة.

وفي هذه المرحلة تبدأ المهمة الحقيقية للدعاة، وهي العمل على هدم العقيدة الدينية.

المرحلة السابعة:

لم يصل إلى هذه المرتبة إلا كبار الدعاة، وفيها يُلقن المستجيب أن صاحب الشريعة لا يتسغني بنفسه، ولابد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما

الأصل والآخر يَصْدُر عنه، ويستدل الداعي على ذلك بأن مدبر العالم في أصل الترتيب وقوام النظام صدر عنه أول موجود بغير واسطة ولا سبب نشأ عنه، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون**﴾ [يس: ٨٣]. إشارة إلى أن الأول في الرتبة والآخر هو القدر الذي قال فيه تعالى بـ ﴿**إنا كل شيء خلقناه بقدر**﴾ [القمر: ٤٩].

ويستدل أيضاً بأقوال وقرائن أخرى من كلام الفلاسفة والمتصوفة وغيرهم.

المرحلة الثامنة:

وفيها تتبلور العقيدة التي لُقنت للمستجيب في المرحلة السابقة، وفيها يعرف أن مدبر الوجود، والصادر عنه، إنما هو تقدم السابق على اللاحق، وتقدم العلة على المعلول، فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثاني.

والسابق لا اسم له ولا صفة، ولا ينبغي لأحد أن يعبر عنه، أو يحدده، فلا يقال موجود، ولا معدوم، ولا عالم، ولا جاهل ... وهكذا سائر الصفات، فإن الإثبات يقتضي شركة بينه وبين المحدثات، والنفي يقتضي التعطيل، وهو ليس بقديم ولا محدث، بل القديم أمره وكلمته، والمحدث خلقه وفطرته ....

كما أن الأنبياء الناطقين لا يأتون بمعجزات أو دلالات خارقة، إنما يأتون بأمور تُنَظَّم بها السياسة ووجوه الحكم وتُرتب بها الفلسفة، تنبئ عن حقيقة ما يشتمل عليه العالم بأسره من الجواهر والأعراض، وأنها تكون إشارة ورموزاً يعقلها العالمون، وتارة تكون بإفصاح يعرفه كل الناس، ثم يشرح الداعي للمستجيب أمر القيامة وحصول الجزاء من الثواب والعقاب على أمور ليست مما يعتقده الموحدون في شيء.

المرحلة التاسعة:

وهي المرحلة الأخيرة في التعليمات المذهبية لدى الإسماعيلية، حيث لا وجود لعقائد قطعية أو فرائض لازمة، أو بمعنى آخر لا وجود لعلم اليقين.

وتمثل هذه المرحلة أعلى مرتبة من مراتب العلم والمعرفة، وفيها يدخل المستجيب إلى دائرة الأسرار النهائية، ويحال المستجيب حينئذ على طلب الأمور وتحقيقها وحدودها والاستدلال عليها من طرق الفلسفة وإدراكها من كتبهم، ويصبح حراً في اختيار طريقه.

يقول النويري: «فربما صار البالغ في النظر في هذا إلى اعتقاد مذهب ماني وابن ديصان، وربما إلى مذهب المجوس، وربما دان بما يُحكى عن أرسطو طاليس، وربما صار إلى أمور تُحكى عن أفلاطون، وربما اختار من تلك معاني مركبة من هذه الأمور كما يجري كثير من هؤلاء المتحيرين»[1].

وفي هذه المرحلة أيضاً يوقف المستجيب على السر النهائي المتمثل في أن الوحي إنما هو صفاء النفس، فيجدُّ النبي في فهم ما يوحى إليه، وينظم به شريعة حسبما يرى من المصلحة في سياسة الكافة، ولا يجب العمل بهذه الشريعة إلا بحسب الحاجة في رعاية مصالح الدهماء وليس على العارف المستنير أن يعمل بها[2].

---

(١) نهاية الأرب (٢٣/٦٥)

(٢) ومثل هذا ما يصل إليه كل متبحر من علماء الشيعة في هذه الأعصار وقبلها حيث إنهم يصلون إلى مرتبة التحليل للحرام أو التحريم للحلال بناء على ما يبدو لهم من مصلحة سياسية أو دينية وأبلغ مثال على ذلك حادثة أزمة (التنباك) في إيران أيام حكم آل كاجار نهاية القرن الماضي.

ومن الملاحظ في ذلك كله إنما هو تغييب للعقل البشري الذي جعله اللّه نعمة للإنسان وكرمه به فيميز بين المنطقيات والبديهيات والنفعيات والمضرات فيستنير ويختار طريقه فإذا به يتأثر بتلك المراحل بمرور الوقت وبطرح الأفكار المتراكمة على فترات متتالية وتكون النتيجة انتكاسة للعقل في الدركات السفلى فإذا به يستحسن القبيح ويستقبح الحسن.

النشاط العسكري لحركة الحشاشين

ظل الحسن الصباح يمارس نشاطه في الدعوة إلى الإسماعيلية بشكل سري وأسلوب حذر إلى أبعد الحدود، في بلاد فارس وما جاورها، واستطاع أن يحقق نجاحاً لا يستهان به في هذا الصدد، ينتقل من مكان إلى آخر، ويكتسب كل يوم أنصاراً جدداً.

كان الحسن الصباح وأتباعه على استعداد لعمل أي شيء في سبيل حماية نشاطهم الدعوي وتأمين أنفسهم.

كانوا يعتقدون أن كل الوسائل مشروعة لبلوغ المآرب الدنيوية التي يعنون بها دون سواها، وكان هذا أساس نظريتهم السرية التي لا يتلقاها إلا أفراد معدودون منهم، يخفونها بمنتهى الحذر تحت حجاب الإيمان العميق والدرع الفياض، تأكيداً لاستعباد الأذهان المؤمنة الساذجة، وتوجيهها طوع أهوائهم واستخدامها في تحقيق الغاية الأخيرة والجوهرية وهي تحقيق الرياسة لبضعة أفراد تضطرم جوانحهم بشهوة السلطان والملك[1].

---

(١) لقد كان كل همهم في البداية أن يستحوذوا على ثقة الشعب، وتأييد الناس، لأن الدهماء أبداً تعطف على المعارضة، وتُعجب بالجرأة، وتحب الناقدين، وهكذا نرى اليوم كثيراً من رواد الحركات يقفون هذا الموقف، حتى يكسبوا التأييد، فإذا استلموا الحكم طغوا كل الطغيان، وبغوا أيما بغي، واستبدوا استبداداً عظيماً، وداسوا كل الشعارات التي سبق أن رفعوها، وكانوا أسوأ من الحكام السابقين.

ولم يتورعوا في هذا الصدد أن يسفكوا دم رجل كان مؤذناً في أصفهان، عرضوا عليه دعوتهم فلم يستجب لهم، فخشوا أن يبلغ عنهم ويُفتضح أمرهم، فلقي حتفه على أيديهم، وبلغ خبر اغتياله السلطات السلجوقية فبدأت بتحقيقات واسعة النطاق، وكان شيئاً منطقياً أن تتبين خطرهم وأنهم ليسوا مجرد جماعة عقائدية فقط، وإنما لهم توجهات توسعية ذات خطر على استقرار وأمن الدولة والأمة.

وبناء على ذلك بدأت السلطات في ملاحقتهم ومتابعتهم بقصد شل نشاط الحركة في مهده وقبل أن يستفحل شرره، الأمر الذي دفع بالحسن الصباح إلى التفكير في الحصول على مكان يحتمي فيه وأتباعه من تعقب السلطة، ويتيح لهم الفرصة في نشر الدعوة.

لم يكن الحسن يريد أن يحصل على مخبأ سري في مدينة مما يجعله تحت خطر الاكتشاف والاقتحام المستمر، وإنما كان يبحث عن معقل منيع يستطيع بفضل حصانته أن يوجه حربه ضد أعدائه ومتعقبيه.

اتجهت أعين الحسن إلى شمال المنطقة حيث الجبال الوعرة المسالك، والهضاب الضخمة التي لا يمكن أن تصلها جيوش السلطة.

وكان اختيار الحسن لهذه المناطق الجبلية الصعبة راجع لسببين على الأقل:

أن سكان هذه المناطق أغلبهم شيعة، ولذا نجد أن دعاة الإسماعيلية قد ركزوا جهودهم في الدعوة على المناطق المصطبغة بالصبغة الشيعية.

ولذا فإن سكان هذه المناطق أكثر استعداداً من غيرهم لاحتضان الدعوة الجديدة والذود عنها، وفضلاً عن ذلك فإن سكان هذه المناطق لديهم نفرة من

السلطات السنية التي كانت في صدام مستمر معهم[1].

وكذلك طبيعة المنطقة من الناحية الجغرافية[2]، والتي تختلف عن سائر المناطق في بلاد فارس، فهي وعرة المسالك، إلى جانب ارتفاعها الشديد، ومن الصعب أن تطالها يد السلطة بسهولة.

إلى جانب ذلك يوجد بها الكثير من القلاع والحصون التي يصعب مهاجمتها أو اقتحامها، والتي سيتخذها الحسن بعد ذلك مركزاً، ويعمل منها على توسيع رقعة الدولة الإسماعيلية الجديدة.

وقد تمثل النشاط العسكري لحركة الحشاشين في عهد الحسن الصباح في الجوانب التالية:

القلاع والحصون:

ما كاد الحسن يستقر في بلاد فارس حتى أخذ يعمل جاداً في تنظيم الدعوة وبناء هياكلها بناءً دقيقاً، وكان أول شيء استعمله الحسن هو عنصر الدعوة، فبث رجاله المدربين في هذه المناطق لكسب التأييد الشعبي والتوسع بين الجماهير، لأن الدعوة في نظر الحسن ـ على الأقل في هذه الفترة ـ كانت بحاجة

---

(١) يقال إنه عندما كان الحجاج بن يوسف يستعد لمهاجمة الديلم أعد خارطة للبلاد مبيناً عليها الجبال والوديان والممرات وأراها لوفد من الديلم طالباً منهم الاستسلام قبل أن يغزو بلادهم ويدمرها، فنظروا إلى الخارطة وقالوا له: «لقد أخبروك الخبر الصحيح عن بلادنا، وهذه صورتها، ولكنهم لم يضعوا عليها المحاربين الذين يدافعون عن هذه الممرات والجبال، وسوف تعلم عنهم إذا حاولت».

(٢) كانت المناطق الجبلية ذات ميزة واضحة بالنسبة لاستراتيجية الحشاشين في التوسع.

إلى انتشار و لم تكن بحاجة إلى انتصار، لذا نجد الحسن حريصاً على إيجاد تنظيم يجمع الناس حول دعوته الجديدة، ووجه جل اهتمامه لاحتلال القلاع والحصون المحيطة به[1].

كانت القلاع تمثل بالنسبة إلى الحسن الصباح الملجأ المنيع الذي يقيه ويحميه من أعدائه وبنفس الوقت يكون مركزاً لنشر دعوته ولتدريب دعاته، خصوصاً وأنها كما قلنا تتسم بالارتفاع الشاهق وبوعورة المسالك المؤدية إليها، وتختلف بالكلية في تركيبها الجغرافي عن بقية البلاد، الأمر الذي يُمكِّن المسيطر عليها من بسط سلطانه وسيادته على المنطقة كلها.

وبعد مدة طويلة من الدعوة الواسعة القوية، والجهود الجبارة، والنضال المستمر توصل الحسن إلى قلعة "آلموت"[2] الشهيرة بعد أن نجح دعاته في تحويل جنود القلعة إلى المذهب الإسماعيلي.

يقول الحسن في إحدى شذرات حياته: « ... وقد أرسلت من قزوين مرة أخرى الدعاة إلى قلعة آلموت، واستطاع الدعاة ضم بعض رجال القلعة إلى العقيدة الإسماعيلية ...».

---

(١) هكذا يرى أصحاب الجماعات الحزبية وهذه سنتهم حيث يقيمون دعوتهم على مراحل تبدأ بالتعريف بالدعوة واستقطاب المخدوعين بها ثم يتلو ذلك مرحلة التكوين والتأسيس إلى أن تصبح لهم شوكة وقوة فينتقلون إلى المرحلة الأخيرة وهي مرحلة التمكين حيث يقومون بشتى الوسائل لإكراه الحكام على اتباعهم أو خلعهم أو إنفاذ مذهبهم ودعوتهم وما أشبه اليوم بالأمس.

(٢) جعلها الحسن عاصمة للدولة الجديدة ، ومركزاً لقيادة جيوشه، ومدرسة لتعليم الدعاة، ويروي المؤرخون أن الذي بنى هذه القلعة ملك من ملوك الديلم، إذ كان مغرماً بالصيد، فأرسل ذات يوم عُقاباً، وتبعه فرآه قد سقط على موضع هذه القلعة، فوجده موضعاً استراتيجياً حصيناً، فأمر ببناء قلعة عليه، سمّاها " أله موت" ومعناه باللغة الديلمية " تعليم العقاب ".

وكان استيلاؤه على هذه القلعة فاتحة بالنسبة للإسماعيلية في استيلائهم على قلاع وحصون أخرى، إذ ما لبث الحسن في القلعة الجديدة طويلاً حتى جمع حوله الإسماعيلية، ففاقت بكثرتهم خراسان، مما حدا بالحسن إلى تنظيم صفوفهم للإغارة على القلاع والحصون المجاورة.

يقول المؤرخ عطا ملك الجويني: «لقد بذل الحسن كل جهد ممكن للإستيلاء على الأماكن الملحقة بـ"آلموت" أو المجاورة لها، وكان يفعل ذلك عن طريق كسب السكان بأخاديعه الدعائية، إذا استطاع، فإذا لم تنطل عليهم حِيَلُه أخذها بالمذابح والسلب والنهب وسفك الدماء والحرب، وبهذا استولى على ما استطاع الاستيلاء عليه من القلاع، وأينما وجد صخرة مناسبة كان يبني فوقها قلعة له.».

وعمل الحسن من القلعة على توسيع رقعة دولته الجديدة، وأنشأ دولة إسماعيلية خالصة[1] بحيث يكون جميع من فيها من الحكام والرعايا من الإسماعيليين المخلصين الذين يدينون بالطاعة المطلقة للإمام الذي يتزعم هذه الدولة.

وبالرغم من الملاحقات المستمرة من قبل السلطة السلجوقية، فإن ذلك لم يثن عزم الحسن على الاستمرار في نشاطه الدعوي والعسكري، وقد ساعده

---

(١) يقال إن الحسن منذ أن أصبح سيداً لقلعة " آلموت " لم يغادرها مرة واحدة منذ دخوله حتى وفاته بعد ذلك بخمسة وثلاثين عاماً، كما لم يغادر البيت الذي يقيم فيه داخل القلعة سوى مرتين اثنتين. يقول المؤرخ رشيد الدين: «أما بقية الوقت حتى وفاته فقد أمضاه في قراءة الكتب، وكتابة كلمات الدعوة، وإدارة شؤون المملكة، وكان يحيا حياة متقشفة معتدلة ..»

على ذلك انضمام جماعة من رجال الدولة وولاتها إليه، منهم الذين ساعدوا الحسن على بسط نفوذه في تلك الأماكن، وفي دفع الخطر السلجوقي الذي كان يهدد الحركة بالقضاء عليها.

لقد كان الاستيلاء على قلعة " آلموت " أول عمل تاريخي بارز في حياة هذه الحركة الباطنية.

أسطورة الفردوس:

يزعم بعض المؤرخين أن قلعة " آلموت " عاصمة الدولة الإسماعيلية الجديدة، ومعقل الحشاشين الرئيسي في المنطقة، كانت تحيط بها الحدائق الغنّاء التي تحوي كل الملاذ والشهوات وغيرها من الأشياء الفاتنة التي تسحر الألباب، وأن الحسن الصباح جعل من المكان فردوساً خلاباً بغرض التأثير في رجاله وأتباعه والتحكم فيهم.

لقد ادعى ذلك الرحالة الشهير " ماركو بولو " الذي مرّ عبر إيران سنة ١٢٧٣م، وتبعه في ذلك الكثير من المؤرخين دون تحقق أو تثبت.

يقول "ماركو بولو " في وصفه قلعة "آلموت" وأسلوب الحياة فيها بما يلي: «كان شيخهم يُسمى علاء الدين وقد أمر بإقامة سور على أخدود بين جبلين ثم غرسه بالأشجار وحوّله إلى حديقة غنّاء، هي أجمل ما رأته الأعين ووقعت عليه الأبصار، وهي مليئة بمختلف الفواكه وأطيب الثمار، وأقام فيها القصور والجواسق مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، وقد طلاها بالذهب ونقشها بأجمل النقوش، وجعل بها قنوات تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء !!، ووضع فيها جملة من أجمل نساء العالمين وأرقّ الفتيات وجعلهن يعزفن على مختلف الآلات،

ويغنين أعذب الأصوات، ويرقصن أروع الرقصات!! وقد شاء شيخ الجبل بذلك أن يجعل الناس يعتقدون أن حديقته هذه ما هي إلا الجنة بعينها، فأنشأها على النمط الذي صوّره لهم الدين الإسلامي، وجعلها روضة غنّاء، تجوس خلالها أنهار تفيض بالخمر واللبن والعسل والماء، وملأها بالجميلات الفاتنات من النساء اللائي لا همّ لهن إلا الترفيه عمن بها من نزلاء، ومن أجل ذلك فإن الأعراب الذين يقطنون هذه الأرجاء ، يعتقدون أنها حقاً الجنة التي وُعد بها الأتقياء .. ولم يكن يسمح لأحد من الناس أن يدخل هذه الحديقة إلا من شاء أن يجعلهم من حشاشيه، وكان على بابها حصن منيع يستطيع أن يرد هجمات الناس أجمعين. ولم يكن لها مدخل سواه، وكان يحتفظ في قصره بعدد من الغلمان تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين، ممن يلمس فيهم حب الجندية والقتال، وكان دأبه أن يقص عليهم أقاصيص عن الجنة كالتي كان يقصها محمد على أتباعه فيصدقونه فيما يقول، كما صدق العرب نبيهم ثم يأذن لهم بعد ذلك في دخول الحديقة أربعة أربعة أو ستة ستة أو عشرة عشرة، ولكنه يسقيهم قبل ذلك مزيجاً من شراب خاص ينامون على أثره، فإذا انطبقت جفونهم وغلبهم الكرى أمر أتباعه أن يحملوهم ويضعوهم في داخل الجنة، فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم داخل هذه الروضة الغنّاء .. ومتى أفاقوا من غفوتهم ووجدوا أنفسهم في هذا المكان الرائع ظنوا أنهم في جنة الخلد، ثم تقبل النساء والفتيات بعد ذلك على هؤلاء الفتيان فيلاعبنهم، ويشفين رغباتهم، ويظفر الرجال منهن بما يرغبون، فلا يشاؤون بعد ذلك أن يتركوا هذا المكان المشحون بالفتن واللذائذ.

وكان هذا الأمير الذي نسميه بـ "الشيخ" يقوم بتنظيم قصره بشكل رائع جميل، وقد تمكن من أن يجعل رجال الجبال السذج الذين يحيطون به يعتقدون اعتقاداً جازماً بأنه نبي عظيم، فإذا شاء أن يبعث واحداً من هؤلاء (الحشاشين) في أية رسالة، فإنه يسقيه من هذا المزيج الذي تحدثنا عنه، فإذا غلبه الكرى حملوه إلى القصر، حتى إذا أفاق لم يجد نفسه في تلك الجنة التي شفي فيها غلته وأشبع فيها نهمته، بل يجد نفسه داخل القلعة ثم يدخلونه بعد ذلك على "شيخ الجبل" فينحني أمامه في احترام بالغ كأنه في حضرة رسول كريم ونبي عظيم، فيسأله الأمير من أين أتى ...؟ ويجيب الفتى بأنه أقبل من الجنة، وإنها لشبيهة بما أنزل على محمد ﷺ، ويستمع الآخرون الذين لم يؤذن لهم في دخول هذه الحديقة إلى هذا الحديث، فيتحرقون إلى الدخول فيها والتمتع بما بها ... فإذا شاء الشيخ أن يقتل أي أمير من الأمراء فما عليه إلا أن يقول لواحد من هؤلاء الشبان: اذهب واقتل فلاناً، ومتى عدت فسيأخذك جماعة من ملائكتي إلى الجنة، أما إذا مت فسأبعث إليك بهم ليحملوك إليها، وكانوا يصدقونه فيما يقول، ومن أجل ذلك فقد كانوا يلقون بأنفسهم في أشد المخاطر وأكثرها تهلكة لكي ينفذوا جميع أوامره ولكي يعودوا بعد ذلك إلى الجنة التي تتحرق إليها أنفسهم، واستطاع الشيخ بذلك أن يجعل رجاله يقتلون أي شخص يريد التخلص منه، واستطاع أيضاً بواسطة الرعب الذي يغرسه في نفوس الأمراء أن يجعلهم جميعاً يدفعون له الجزية عن طيب خاطر حتى يكون معهم في سلام ووئام»[1].

---

(١) أورد هذا النص المستشرق براون في كتابه تاريخ الأدب في إيران ص (٢٥٣ ـ ٢٥٥).

إن وصف الرحالة "ماركو بولو" للحياة في هذه القلعة عجيب وغريب، وأبسط تحليل لوصفه هذا في ضوء الطبيعة الطبوغرافية للقلعة يوقفنا منذ الوهلة الأولى على أن وصفه لا يعدو أن يكون حديث خرافة، إذ لا يُعقل أن قلعة تقع على صخرة مرتفعة عن سطح البحر بـ ١٠٢٠٠ قدم ويتسم مناخها ببرودة شديدة ويتساقط عليه الجليد أكثر من ستة أشهر في السنة، أن يكون هذا وصفها.

لقد ذكر بعض المؤرخين أن السكان في هذه المنطقة كانوا يعزلون الحيوانات في مناطق جنوبية خوفاً عليها من البرد الشديد الذي يمكن أن يقضي عليها.

ولقد تساءل المستشرق إيفانوف عن جنة الأرض أو الفردوس المزعوم التي أتى على ذكرها الكثير من المؤرخين بقوله: «إن جنة وارفة الظلال في أرض يجتاحها الشتاء بجليده وزمهريره سبعة أشهر في العام لا يمكن معها معيشة حي غير الإنسان، لذا كانوا يبعدون الحيوانات الأهلية إلى القرى المجاورة طوال فصل الشتاء الشديد البرودة».

ومن المعروف تاريخياً أن هولاكو قد بدأ في حربه ضد الإسماعيلية من خراسان في خريف عام ١٢٥٦م وكان الطريق الذي سلكه لغزو القلاع طريق صخري صعب بحيث أنها منعت الفرسان والحيوانات المحملة بالعتاد من الحركة، فاضطر المغولي إلى الاقتراب من الهضاب الجرداء القاحلة، والتفوا حول آلموت في حصار استمر بعض الوقت، وما لبثوا أن ارتدوا عنها للحالة التي وصلت إليها مواشيهم نظراً لندرة الأعشاب وقلتها في تلك المنطقة.

أحدث خبر استيلاء الحسن الصباح على قلعة " آلموت " الاستراتيجية هزة في وسط البلاط السلجوقي، وعلى رأسه السلطان "ملكشاه" ووزيره نظام الملك، فأدركوا مدى الخطورة التي يشكلها الحسن على النظام ويجعل منه ذراعاً قوياً في قلب الدولة السلجوقية.

وقرر السطان على إثر ذلك أن يحتوي الموقف قبل أن يستفحل أمره ويتفاقم خطره، و كانت أولى خطواته في هذا المجال أن بعث برسالة إلى الحسن الصباح يأمره فيها بالتخلي عن القلعة والعودة إلى الجادة وإلا فهي الحرب بلا هوادة.

وفيما يلي ***نص رسالة السلطان إلى الحسن الصباح***:

«أنت ياحسن بن الصباح قد أظهرت ديناً جديداً، تخدع به الناس، وتغريهم على الخروج على والي الزمان، وجمعت نفراً من جهال الجبال تكلمهم على مقتضى طبعهم، فيذهبون ويغتالون الأبرياء، وتطعن في الخلفاء العباسيين الذين هم خلفاء الإسلام، وقوام الملك والملة وبهم يوثق نظام الدين والدولة، فهلا خرجت عن هذه الضلالة وتركت هذه الغواية وانضويت تحت راية الإسلام. إن جيوشي متوقفة على مجيئك، أو مجيء جوابك، وعليك أن ترحم نفسك ونفوس أتباعك، ولا تلقي نفسك ونفوسهم إلى التهلكة، ولا يغرنك منعة قلاعك، وعليك أن تعلم أنه لو كانت قلعتك "آلموت" برجاً من أبراج السماء لهدمنا أركانها بعون اللّه سبحانه وتعالى».

قرأ الحسن الرسالة ورد عليها رداً مستفيضاً وبدبلوماسية عالية، وحاول في رده هذا نفي جميع التهم التي نُسبت إليه، بل كشف عن مواقفه السياسية وعقيدته الدينية محاولاً بذلك إقناع السلطان بصحة ما هو عليه.

وفيما يلي **نص رسال الحسنه إلى السلطان**:

«عندما وصل الصدر الكبير ضياء الدين خاقان إلى زاويتنا، وبلّغ مقالة السلطان إليّ، وضعتها على الرأس والعين، ورفعت رأسي زهواً من الفخر والشرف، لقد فسح لي المجال لإظهار اعتقادي وإني لأرجو من السلطان أن يصغي إلى كلامي، ولا يشاور في أمري الذين يعلم أنهم من أعدائي، سيما نظام الملك، وعليه أن يتحقق ما أنا عليه من الصدق الذي ليس عليه مزيد وإن رجعت أنا عن ذلك كنت كمن رجع عن الإسلام وعصى اللّه ورسوله، وإن خشيت من شيء فهو خشيتي من أن يكون السلطان قد سمع كلام الأعداء، وكيف لي بمقاومة خصم عنيد يستطيع أن يضع الحق مكان الباطل والباطل مكان الحق؟!.

ولا بد لي الآن من وصف حالي:

كان أبي رجلاً مسلماً على مذهب الشيعة الإثنى عشرية، ولما بلغت أربع سنين أرسلني إلى المدرسة لتحصيل العلوم والمعارف، وحين مضى أربع عشرة سنة من عمري حذقت في علمي القرآن والحديث، ثم لاح لي مرض الدين، فوجدت في كتب الشافعي روايات عديدة في فضائل آل النبي صلوات اللّه عليه وعليهم، فوجهت خاطري نحوهم، وعنيت في طلب إمام الوقت حتى جرتني تكاليف حكام الزمن إلى أمور الدنيا التي يعظمونها الناس، ومن أجل هذا نسيت جِدِّيَ الأول وشوقي الأمثل وجعلت جُلَّ همي في أمر الدنيا وخدمة الناس، وألقيت وراء ظهري أمر الخالق.

ولما كانت هـذه الحالـة لا ترضـي اللّـه سلّط عليّ الأعـداء، فـأخرجوني مضطراً من ذلك الأمر، فكنت أفر من مدينة إلى مدينة، ومـن مهمـة إلى مهمـة، حتى تعبت كثيراً كما لا يخفى على السلطان ونظام الملك.

ولما نجّاني اللّه من هذه الورطة سالماً، وعلمت أن التوجه إلى الخلق والتنكب عن الحق لا يثمر غير هذا، قمت في أمر الدين وطلب الآخرة، وسافرت من الري إلى بغداد، حيث أقمت مدة فيها درست خلالها أحوالها، وتفحصت عن حال الخلفاء وأئمة الإسلام، فوجدت الخلفاء العباسيين عارين من كل مروءة وخالين من مرتبة الفتوة، وعلمت أن الإسلام والدين لو كانا مبنيين على إمامتهم وخلافتهم إذن فالزندقة والكفر أولى.

ثم ذهبت من بغداد إلى مصر، وفيها خليفة الحق الإمام المستنصر، فدرست حاله، وقابلت بين خلافته وخلافة العباسيين، وإمامته وإمامتهم، فوجدته أحق بالخلافة منهم، فأقررت به وبرئت بكل الوجوه منهم ومن خلافتهم.

ولما علم الخلفاء العباسيون بما أنا عليه، أرسلوا نفراً ليأخذوني في الطريق، ثم نجّاني اللّه منهم، ووصلت سالماً إلى مصر.

ثم أرسلوا مقدار حمل ثلاثة بغال ذهباً إلى أمير الجيوش بمصر، ووعدوه بأموال كثيرة أخرى إذا تمكن من الحسن أو من رأسه.

ولما كانت عناية خليفة الحق والإمام المستقر المستنصر باللّه شاملة بي، نجوت من هذه المكيدة أيضاً !!

ولما ألّب العباسيون أمير الجيوش عليّ رشحوني للذهاب إلى الروم ودعوة كفار الإفرنج، وبلغ هذا الخبر إلى سمع الإمام، فجعلني في كنفه ووكّل إليّ أمر دعوة الناس إلى الصراط المستقيم، وإعلامهم بإمامة خلفاء مصر وحقيقتهم .. فما هو رأي السلطان بالآية: ﴿**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ [النساء: ٥٩].

وهل يحمل على سماع كلامي وقام على دفع شرهم عن المسلمين كما قام السلطان محمود غازي سبكتكين على دفع شرهم وآذاهم؟.

وأما ما قلتم من أنني أظهر ديناً جديداً ... فنعوذ بالله من أن أظهر ديناً جديداً، أنا أدين بدين أصحاب رسول الله، ذلك هو الدين القيم إلى يوم القيامة، ديني دين الإسلام والمسلمين، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأن أولاد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أحق بخلافة أبيهم من أولاد العباس.

إنك بعد أن أرسلت جيوشك من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن محاذاة قطب الشمال إلى الهند وسلمت لك كل هذه الممالك، فهل تُجوِّز بعدها أن تخرج من يد أبنائك لغيرهم؟

إذا كنت تقبل بهذا فخلافتهم أيضاً جائزة ... على أن أبناء العباس عاثوا في الأرض فساداً، ولئن كان بعض الناس يعتقدون فيهم ويعتمدون عليهم لجهلهم بفسادهم، فكيف يعتمد عليهم من يعلم بفسادهم؟!.

وإنني لا أدري كيف يجيب السلطان الله يوم القيامة؟ وكيف تكون نجاته من النار إذا لم يدفع شرهم وينجي المسلمين منهم؟.

إني لا أنكر الخلفاء الأربعة ومحبتهم في قلبي، وإنني لم أظهر ديناً، ولا ابتدعت مذهباً، مذهبي مذهب الصحابة في زمن الرسول صلّى اللّه عليه وآله وهذا صراطي المستقيم إلى يوم القيامة.

وأما ما قلتم من أنني أطعن في بني العباس ... فأقول: كيف لا يُطعن ولا يُشنّع بقوم كانت بدايتهم ونهايتهم على التزوير والتلبيس والفسق والفجور والفساد؟

وها أنا أشير إلى نبذة من أحوالهم وأفعالهم لتكون لي على السلطان حجة:

أولاً: أبو مسلم الذي جدّ واجتهد، واختار التعب، حتى قصَّر أيدي ظالمي بني مروان عن إراقة دماء المسلمين، وأخذ أموالهم، وأزال الظلم، وزيَّن الدنيا بالعدل، غدروا به، وأراقوا دمه.

ثم قتلوا آلافاً من أولاد الرسول في أطراف العالم، حتى انزوى جمع غفير منهم في زوايا الخفاء، وخلعوا شعار السيادة لينجوا بأنفسهم من جور الظالمين.

وما زال أولئك الخلفاء يشتغلون بشرب الخمر، وارتكاب الزنا، وقد بلغ الفساد في زمانهم لدرجة أن هارون ـ الذي كان أعلمهم وأفضلهم ـ كان يُحضر إحدى شقيقاته في مجلس شرابه ومدامه[1]. ومن أعماله التي لا يقرها

---

(١) هذا كذب وتزوير وإهدار لحق من قال عنه الذهبي في سير أعلام النبلاء : «كان من أنبل الخلفاء، وأحشم الملوك، ذا حج وجهاد وغزو وشجاعة ورأي» ثم قال: «كان يصلي في خلافته في كل يوم مئة ركعة إلى أن مات، ويتصدق بألف وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين ويبغض الجدال والكلام» قال عنه ابن السماك الواعظ لما رأى تواضعه وإجلاله للعلم: «تواضعك في شرفك أشرف من شرفك» ثم وعظ هارون فأبكاه ووعظه الفضيل مرة حتى شهق في بكائه. كان يجل ابن المبارك فلما مات عنه حزن عليه وجلس للعزاء فعزاه الأكابر، كان يعظم حديث=

وجدان ولا ضمير: أنه أمر بجلد أبي حنيفة الكوفي مائة سوط، مع أنه كان ركناً من أركان الإسلام، وأيضاً صلب منصور الحلاج الذي كان قدوة الأنام!!!.

هؤلاء هم الخلفاء العباسيون الذين تسميهم " أركان الإسلام وقوام الملك والملة " وتقول: "إن بهم يوثّق نظام الدين والدولة" فإن طعنتُ بهم أنا أو غيري بعد هذا، فهل أكون على حق أم على باطل؟

وأما ما قلتم من " أنني أخدع الجهال، وأدفعهم لضرب الناس وقتلهم".

فأقول: إن انحراف موظفي السلطان، ووكلاء نظام الملك وأرباب المعاملات في حدود خراسان عن جادة الصواب، وتجاوزهم على عورات الناس وحرم العباد، وقتلهم النساء أمام أزواجهن وارتكاب الفحشاء معهن، فضلاً عن عدم الاهتمام بالمعاملات الديوانية، وكلما استغاث الناس بأركان الدولة لا يلتفت أحد إليهم، بل ينزل البلاء والجور على المستغيث.

هذا نظام الملك الذي هو اليوم وزير ورئيس للملك، اتهم أبا نصر الكندري بالتصرف في مال السلطان وملكه ثم قتله، مع أن أبا نصر كان في

=النبي ﷺ حتى أن أبا معاوية الضرير حدثه بحديث : «**احتج آدم وموسى**» فقال رجل شريف: فأين لقيه؟ فغضب الرشيد وقال: النطع والسيف ـ يريد قتله ـ زنديق يطعن في الحديث فما زال أبو معاوية يسكنه ويقول: بادرة منه يا أمير المؤمنين. حتى سكن. وكان من إجلاله لأهل العلم أن صب الماء على أبي معاوية الضرير بعد الأكل، فقال الرشيد: تدري من يصب عليك؟ قال: لا. قال: أنا، إجلالاً للعلم. وأجله العلماء: قال الفضيل لما رآه بمكة: ما في الأرض أعزُّ عليّ منه، لو مات لرأيت أموراً عظاماً. ثم حدث فعلاً بعد موته فتن كثيرة منها محنة خلق القرآن المعروفة على يد ولده المأمون والمعتصم من بعده. قال الذهبي: محاسنه كثيرة. ثم قال: حج غير مرة وله فتوحات ومواقف مشهودة، ومنها فتح مدينة هرقلة مات غازياً بخراسان وقبره بمدينة طوس، عاش خمساً وأربعين سنة توفي في سنة ١٩٣ هـ رحمه الله سير أعلام النبلاء (٩/٢٨٦-٢٩٥).

حياته وأثناء وزارته يأخذ من الناس عشرة دراهم فيرسلها إلى خزانة الملك، واليوم يأخذ نظام الملك خمسين درهما بالجور والظلم، ولا يرسل إلى خزانة الملك حتى نصف درهم، بل يدفع قليلاً منها للصوص والقتلة، ويصرف الباقي على بناته وأبنائه وأصهاره، وإن ما أنفقه من أموال الناس على أبنيته ودوره أظهر من الشمس في رابعة النهار، أين أبو نصر من الابن والبنت؟ إنه لم يصرف أموال الناس في أبنيته ودوره.

وليس للمظلومين في هذا الزمان ملجأ يفزعون إليه، فإن قام أحد للاضطرار، وأثار النار على العار، وهانت عليه المنية تخلصاً من الذل والدنية، ودفع واحداً أو اثنين من هؤلاء الظلمة فما ظلم، وإن قتلهم لمعذور[1].

ما للحسن الصباح وهذه الأمور؟ وهل يحتاج إلى أن يخدع الناس بعد هذا؟ وأي أمر يقع في الدنيا بلا تقدير سماوي؟

وأما ما هددتهم بحشد جيشكم لتدمير مستقري، فمعاذ اللّه أن أفعل شيئاً يكون فيه خلافاً لرأي السلطان، لقد اخترت زاويتي وجعلتها مأوى لي، لأن أعدائي يحتالون في طلبي، ويسعون لسفك دمي، فإذا فرغ السلطان من أمر الأعداء أنا أقبل إليه، وأتشرف بحضرته، وانخرط في سلك سائر عباده، وحينئذ أشير إليه ما استطعت لإصلاح أمر دنياه وتدارك أمر آخرته، ولئن صدر عني عمل بخلاف هذا، أو خالفت أمر السلطان، فأنا جدير بالسب واللعن من

---

(١) الإعذار لا يكون هكذا وإنما الإعذار هو ما حدده الشرع كعذر وليس ما يستسيغه العقل أو يستحسنه أصحاب الهوى، فرفع الحرج والإثم وما يترتب عليه إنما يختص به الشارع الحكيم فقط وهذا ليس بعذر يسيغ القتل والخروج على الحكام والأحاديث متضافرة في الحث على طاعتهم في طاعة اللّه ما لم يظهر منهم كفراً بواحاً عليه من اللّه برهان.

القريب والبعيد، وبأن يقال فيّ: إنه خالف القول المأثور[1] : ﴿**أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم**﴾ [النساء: ٥٩]، وأن تقول في حقي ما شئت إذا أنا أغمضت عيني عن خصمي نظام الملك الذي ظلمني ويظلمني.

وأما قولكم: " لو أن مستقري برجاً من بروج السماء لهدمته".

فأقول: إن لمقامي في هذا المستقر ثقة بقول ولي الدهر من أن هذه القلعة ستبقى ثابتة في أيدينا مدة طويلة حتى يحل قضاء اللّه بها.

وإنني الآن أعمل بالفرائض والسنن، وأرجو من اللّه ورسوله أن يهدي السلطان وأركان دولته إلى الصراط المستقيم، ويرزقهم دين الحق، ليزهق فساد العباسيين وفسقهم من بين الخلق.

ولو أن السلطان يبغي سعادة الدين والدنيا لعمل كما عمل سلطان الإسلام محمود غازي رحمه اللّه، حيث جاء بسيد علاء الملك خداوندزاده من ترمذ وجعله خليفة للناس، وبذلك تخلص من شرهم.

فعلى السلطان واجب دفع شرهم وإنقاذ عباد اللّه تبارك وتعالى منهم، وسيأتي زمان يظهر فيه سلطان عادل يخلص المسلمين من الظلم والضيم.

والسلام على من اتبع الهدى ....

خادم أعتاب آل محمد وعلي

الحسن الصباح

---

(١) هذا ليس بالمأثور وإنما هي آية إلا إذا اعتقد الحسن باعتقاد الروافض أن القرآن الذي بين أيدينا ليس بالقرآن الذي أنزل على النبي ﷺ انظر نقد كتاب فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب. طبعة دار السلف. لتقف على اعتقادهم في هذا الشأن.

بهذا الرد استطاع الحسن أن يمتص غضب السلطان، ويهدئ من روعه بعض الوقت، بعد أن أعلن الطاعة والولاء له، وبأنه لن يخرج من هذه الطاعة.

وبالرغم من تهديدات السلطة المتواصلة، فإن الحسن لم يتوقف عن نشاطه، بل ضاعف العمل في المناطق المجاورة له بقصد السيطرة على أكبر عدد ممكن من القلاع والحصون.

وكانت عيون الحسن تتجه هذه المرة إلى إقليم "رودبار" الذي تمكن في بضعة ليالي وأيام من بسط نفوذه عليه، وكسب ولاء سكانه لصالح الدعوة الإسماعيلية الجديدة، ولم تتوقف محاولات الحسن عند هذا الحد، بل كان يتطلع إلى بعض المناطق البعيدة مثل "قهستان" في جنوب شرق فارس، والتي كانت عبارة عن مجموعة من الواحات تحيط بها صحاري مالحة.

لم يدخر الحسن أي جهد في سبيل الاستيلاء على هذه المنطقة، فأرسل أكفأ دعاته وعلى رأسهم "حسين القائني" الذي كان من أهل قهستان.

قام دعاة الحسن بدور كبير وسط أهالي قهستان، وتمكنوا ببراعة من استثمار سخط الأهالي على الحاكم السلجوقي الذي كان يسيء معاملتهم ويحكمهم بالحديد والنار[1].

تحول العامة والخاصة من أهل قهستان إلى ثائرين، وانضموا إلى الدعوة الجديدة وعظمت بالتالي شوكة الإسماعيلية في المنطقة واستولوا عليها بأكملها.

---

(١) لينتبه من بيده الأمر إلى أن هذا هو أسلوب الباطنية قديماً وحديثاً وهو استغلال ظلم بعض الولاة ومعاناة الشعب وذلك عبر دعاة أخفياء يظهر عليهم الزهد والورع.. ودائماً تستخدم الشعوب لإحداث التغيير !!.

امتدت جهود الحسن بعد ذلك إلى جنوب غرب إيران، حيث استولى على قلاع بها لا تقل أهميتها الاستراتيجية عن غيرها من القلاع.

وفي أعقاب هذه الانتصارات المتتالية والتزايد المستمر لنشاط الحركة، كانت المواجهة هي النتيجة الحتمية والطبيعية لهذا النمو، هذه المواجهة التي ستخرج منها حركة الحشاشين أقوى مما كانت عليه في السابق، كما سنرى فيما يأتي من بحوث.

لم يكن أحد يتصور أن تكون حركة الحشاشين بهذه القوة العظيمة، فما أن خرجت من المواجهة حتى استولت على قلعة "جيردكوه GIRDKOH" المهمة، والتي كانت أهميتها ناشئة عن سيطرتها على طريق خراسان، وكذلك لحماية طريق الهضاب الواصلة بين داخل إيران وبحر قزوين.

يقول إيفانوف: « ... ومن الواضح أن البناء صُمِّم لحماية السكان، ولا يبدو أن مزيداً من المواطنين سكنوا هناك، وبدون النار لا يمكن احتلال تلك القلاع، مع العلم أن مخازنها كانت كافية للتموين بالماء والطعام لفترة طويلة .. ومن هنا تتضح أهمية هذه القلاع الواقعة على نقطة التقاء شرق إيران وغربه واهتمام الإسماعيلية بها ... وإذا رجعنا لوصف قلعة "جيردكوه" نجد أن لها عنقاً تصل الهضبة بعدة قمم أخرى، وتحت هذه العنق توجد مساحة خالية من الحجارة الترابية، ويجد المرء هناك بعض الحجارة الصناعية المنحوتة، ومن الواضح أن سكان القلاع رموها فوق رؤوس المحاصرين أثناء الحصار ... وبتأمل شكل التحصينات ومقارنتها بغيرها يجزم بأن أيد إسماعيلية قد بنتها.

وقد تم الاستيلاء على هذه القلعة بواسطة ضابط سلجوقي اسمه "مظفر" كان قد اعتنق الإسماعيلية سراً على يد الداعي عبد الملك بن عطاش الذي سبق

الحديث عنه[1].

وكان مظفر قد طلب إلى أحد الأمراء السلاجقة أن يتوسط له عند السلطان بأن يجعله قائداً للقلعة، ونجحت وساطة الأمير ونال مظفر ما أراد.

وفور انتهائه من ذلك صرح بانتمائه للإسماعيلية وبموالاته لحركة الحشاشين.

ولا شك أن الاستيلاء على قلعة "جيردكوه" واكتساب هذا الضابط في صفوف الحركة كان يعني زيادة ذات شأن في قوة الحركة، حيث أصبح أعضاؤها أكثر جسارة وثقة بالذات وتمكنوا من التغلغل في بقاع كثيرة.

موقع آخر كانت الحركة تخطط للسيطرة عليه هو قلعة "شاه ديز" القريبة من أصفهان، وكان قد تولى العمل للسيطرة عليها الداعي عبدالملك بن عطاش، الذي استطاع بفضل دهائه ومكره أن يكتسب ثقة قائد القلعة، وأن يكون الذراع القوية فيها، وقد نجح في استثمار ذلك لصالحه حيث تولى قيادة القلعة بعد موت قائدها.

وتعتبر السيطرة على هذه القلعة من طرف الحشاشين عملاً جسوراً بكل المقاييس السياسية والعسكرية نظراً لقرب القلعة من مدينة أصفهان عاصمة الدولة السلجوقية آنذاك.

وكان الاستيلاء على هذه القلعة المدخل إلى أصفهان نفسها، حيث أحيا بها الحشاشون نشاطهم القديم وجددوا بها دعوتهم بعد أن اندرست ردحاً من

---

(١) وهذا يفسر لنا سر تغلغل الباطنية في صفوف الجيش والجند، وذلك للوصول إلى المآرب، فالله المستعان وهو نفس الأسلوب الذي فعله النصيريون في سوريا حديثاً!!

الزمن، حيث انتهزوا انشغال الأخوين غير الشقيقين السلطان بركيارق والسلطان محمد باقتسام تركة السلطان ملكشاه والمتمثلة في العرش، وانتهزت الحركة فرصة هذا الخلاف وبدأت في التوسع، لكنها اصطدمت هذه المرة بالجماهير حينما أرادت نشر دعوتها وفرض تعاليمها عبر أساليب الرعب والقمع والقتل والتدمير والاستيلاء على الثروات، حتى بلغت حالة الرعب والفزع بين الأهالي أن الرجل كان إذا تأخر عن بيته عن الوقت المعتاد تيقنوا قتله وقعدوا للعزاء فيه ..

ويروي المؤرخون أن الحشاشين أخذوا ذات مرة أحد المؤذنين في المدينة، ولما تأخر في العودة إلى بيته قام أهله بالبكاء عليه، وأخذ العزاء فيه، فصعد الحشاشون به إلى سطح داره وأروه منظر أهله وهو لا يستطيع أن ينطق ببنت شفة خوفاً منهم.

وكانت نتيجة حالة اللا أمن وعدم الاستقرار التي خيمّت على المنطقة أن أعلن أهلها ثورتهم على الحركة، وتجردوا للإنتقام منهم ودكّ معاقلهم وسراديبهم، فقتلوا منهم الكثير ومثلوا بهم أبشع تمثيل.

وكان الفقيه الشافعي أبو القاسم مسعود بن محمد الخجندي هو الذي قام بتنظيم الثورة ضدهم، وجمع الأسلحة، وأمر بحفر أخاديد وأوقد فيها النيران، وكانت الجماهير تأتي بأعضاء الحركة أفواجاً ومنفردين ويضعونهم في جحيم هذه النار المسعرة.

ويبدو أن السبب الرئيسي وراء نشاط الحركة المتزايد وحصولها على قواعد منيعة دون صعوبات تُذكر، هو الخلافات الكبيرة والصدامات المتواصلة

بين الأخوين بركيارق ومحمد، لاسيما وأن فدائيي حركة الحشاشين كانوا يقومون باغتيال عناصر بارزة في الجبهة المعارضة لبركيارق، بل توجد بعض القرائن الدالة على وجود اتصالات ومراسلات سرية بين بركيارق والحشاشين، حتى اتهمه أعداؤه وخصومه بالميل إليهم والتعاون معهم.

بقي أن نشير في نهاية هذا المبحث إلى الدور الذي لعبته هذه القلاع والحصون في المحافظة على بقاء الحركة طيلة القرن والنصف القرن من الزمن.

الدور الذي لعبته القلاع والحصون

يؤكد إيفانوف الذي زار هذه القلاع وتجوّل بها الأهمية الاستراتيجية لمواقع القلاع وتصميمها في مواجهة الخصوم، مما يدل دلالة قاطعة على عظم المكسب الذي اكتسبته حركة الحشاشين باستيلائها على هذه القلاع.

لقد كانت هذه القلاع تقع في الغالب وسط وديان صالحة للزراعة وبالقرب من موارد ثابتة للمياه، فالملاحظ أن القلاع الرئيسية في أراضي الإسماعيلية كانت تقع بالقرب من نهر "شاهرود" بفروعه، وكانت القلاع تُكوِّن وحدة اقتصادية عسكرية مستقلة بذاتها، يعيش أهلها معتمدين على أنفسهم في زراعة الأرض والدفاع عن القلعة وما حولها في مواجهة أي غزو أو اعتداء، ولقد كان للوفرة والتنوع الذي امتازت به المحاصيل التي يمكن أن تُزرع في هذه المنطقة أكبر الأثر في تحقيق استقلالها وتكاملها الاقتصادي.

ولم تكن هذه القلاع تعيش في معزل عن بعضها البعض أو يحكمها مُقَدَّموها دون رقيب أو معقِّب، وإنما كانت كل واحدة من هذه القلاع تُكوِّن وحدة محلية تابعة للسلطة المركزية في قلعة "آلموت".

وعلى هذا النحو تمكنت دولة الإسماعيلية في إيران من أن تحقق التآلف بين الفرق المتفرعة عن المذهب فتجنبت بذلك التشتت الذي مُنيت به الدعوة الإسماعيلية منذ أقدم أطوارها كما نجحت تلك الدولة في أن تكسب إلى جانبها من الوجهة السياسية والمذهبية على حد سواء المعتنقين للمذهب الإسماعيلي في المنطقة.

خلاصة القول أن الحسن الصباح كان يبذل قصارى جهده في استخلاص كل النواحي المتاخمة لقلعته والمواضع القريبة منها، وكان يستولي على المناطق والأمكنة بواسطة التلبيس بالدعوة واكتساب أهلها في صفوفه، وأما المناطق التي لم يغتر أهلها بتغريره فكان يستولي عليها بالقتل والهتك والنهب والسفك والحرب وكان يستولي على كل ما يستطيع من القلاع، وحيثما يجد منطقة صخرية تصلح للبناء أقام عليها قلعة.

وبذلك تكون كل الشروط اللازمة قد توافرت لنجاح وانتشار هذه الدعوة: البلاد المنيعة والسكان القلقين الساخطين والتراث المحلي القوي الموالي للشيعة والإسماعيلية.

الفدائيون:

نظام أوجده الحسن الصباح، وكان مصدراً لكثير من الرعب والهلع، في الأوساط الرسمية والشعبية.

كان للفدائية إقدام وجرأة على التضحية الجسدية فاقت كل تصور، بتصميم وعزم وثبات لا مثيل له في تاريخ الجريمة.

نسبوا أنفسهم إلى آل البيت، واتخذوا ذلك ستاراً لما يقومون به من أعمال لا يقرها العرف ولا الدين.

كان الإرهاب صناعتهم، والفساد شريعتهم، قاموا بأعمال فوضوية اهتز لها العالم الإسلامي ما يقرب من قرنين من الزمان نشروا خلالها الرعب والفزع في النفوس، وقتلوا ما لا يُحصى عدداً من خلق اللّه.

ذكروا أن الحسن اتبع طريقة للسيطرة على أتباعه سيطرة عجيبة جعلتهم ينفذون أوامره الجهنمية دون توقف، وقد نجح في جعل الشجاعة النادرة وحب المخاطرة والصبر الرباط الذي يربط الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الفرقة، فقد كان الفدائي يترقب الفرصة المواتية لتنفيذ مهمته شهوراً بل سنين.

يذكر التاريخ أن الفدائيين الذين كُلفوا بقتل (كونراد) مركيز مونتفرات قد تمكنوا من الإقامة في معسكر الصليبيين ستة أشهر كاملة ينتظرون الفرصة السانحة وهم بثياب الرهبان المسيحيين.

لقد كان هدف الحسن أن يعمل من خلال الفدائيين لتكوين مجتمعات إسماعيلية قوية ومنظمة تنظيماً دقيقاً يضمن لها البقاء، ولما تم للحسن السيطرة على قلعة "آلموت" جلب إليها نخبة ممتازة من المستجيبين للدعوة، المعروفين بتضحيتهم، وأخذ يعمل جاداً على تدريبهم على الطاعة العمياء والإيمان المطلق بما يقوله لهم، وعلى حب المخاطرة والتضحية المطلقة واحتقار الحياة البشرية، وأن قوام الإسلام الصحيح هو بذل النفس، وأن الحياة الدنيا إنما هي تجربة خالية من النعيم الحق لا تعدل في متاعبها وآلامها ذرة من رغد الحياة الأخرى ونعيمها

الباذخ، وأن السبيل الحق إلى اكتساب الجنة والتقلب في نعمائها وسعادتها الخالدة هو افتداء النفس بعمل من أعمال الدنيا، وأن سلامتهم متوقفة دائماً على فداء أنفسهم، وأن أقل مخالفة تبدر منهم تكون سبباً في وقوعهم تحت العقوبة والمسؤولية إلى الأبد وأن الذي يقدم الطاعة جزاؤه الجنة. نفخ الحسن فيهم حب الفناء في سبيل الدعوة الجديدة، ولما اشتد ساعدهم استقدم لهم أحسن المدربين على استعمال مختلف أنواع الأسلحة المعروفة في ذلك الوقت، كما جلب عدة أساتذة لتعليمهم عدة لغات أجنبية ولهجات محلية كان يتكلمها سكان البلاد، أضف إلى ذلك أنه كان يدربهم على استعمال الأحرف السرية وكيفية إخفاء أنفسهم ومن يرافقهم في مهماتهم بحيث لا يبوح الفدائي بسره أو سر الجماعة التي ينتمي إليها، فإذا قبض عليه الأعداء كان يعمد إلى قتل نفسه قبل أن يُجبر على التكلم.

لقد كان الحسن صارماً في تنشئة هؤلاء الفدائيين، قاسياً عليهم أشد القسوة، حتى استطاع أن ينجح في إعداد نخبة ممتازة منهم أصبحوا نواة للحامية الإسماعيلية.

كان الحسن الصباح يعلم أن دعوته لا يمكن أن تنجح ضد معاقل الإسلام السني، وأن أنصاره ليس في إمكانهم أن يواجهوا ويهزموا القوة المسلحة للدولة السلجوقية، وأن كثيرين قبله قد نفسوا عن فشلهم في عنف غير منظم، أو تمرد يائس، أو سلبية كئيبة، ولكن الحسن وجد وسيلة جديدة يمكن بها لقوة صغيرة، منظمة ومخلصة أن توجه ضربات فعالة ضد عدو يتمتع بتفوق ساحق، هذه الوسيلة التي اختارها الحسن هي الإرهاب.

كان الاغتيال المنظم أمضى سلاح في يد الحشاشين، وقد كان الرفاق والفدائيون عماد هذا السلاح المروع، لقد أنعشوه كسلاح سياسي ورفعوه إلى مستوى الواجب المقدس، وهذا هو الجانب المثير حقاً في سيرة هذه الجمعية السرية الهائلة.

كما أن صراعات الخصوم جعلت منه سلاحاً فعالاً ومقبولاً في نفس الوقت لتصفية الحسابات السياسية والخلافات الدينية والمذهبية، وظهر المنظرون ليضيفوا على منطق العنف العاري غطاءً أيديولوجياً برّاقاً.

وبهذا الإرهاب الذي تلهبه أهداف واسعة النطاق يضمها برنامج متماسك تُرتكب من أجله الأعمال الإرهابية بسط الحشاشون على المشرق نظام إرهاب حق، وانبث الرفاق والفدائيون شراذم في الأقطار فأظلم بهم وجه الأرض ونجد في تاريخ الإسماعيلية ثبتاً من مشاهير الرجال من جميع الأمم سقطوا ضحايا الإسماعيلية بين غبطة القتلة وأسف العالم.

لقد كان عملهم بمثابة النفوذ المأفون والإساءة في استخدام الدين ببشاعة لخدمة الطموح الرهيب الذي لا يلجمه شيء، وكانوا بحق الإرهابيين الأُوَل الذين استطاعوا تطويع الإرهاب لتحقيق أهدافهم السياسية. يقول شاعر إسماعيلي في امتداح الفدائيين:

«أيها الرفاق .. عندما يأتي وقت النصر ويحالفنا الحظ في الدنيا والآخرة يستطيع محارب واحد يمشي على قدمية أن يبث الرعب في قلب ملك تحت إمرته مائة ألف فارس أو يزيد».

ولتبيان حجم الخطر والرعب الذي شكله الحشاشون بصفة عامة والفدائيون بصفة خاصة فإن التاريخ يذكر أنه لما همّ الملك فيليب السادس ملك فرنسا بالقيام بحملة صليبية لاسترداد الأماكن التي فقدتها النصرانية، بعث إليه القس الألماني " بروكاردوس "الذي قضى فترة من حياته في أرمينيا يحذره من الأخطار التي تنطوي عليها مثل تلك الحملة.

ومن هذه الأخطار كما يذكر ذاك القس: «أذكر الحشاشين الذين ينبغي ان يلعنهم الإنسان ويتفاداهم، إنهم يبيعون أنفسهم ويتعطشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مقابل أجر، ولا يلقون اعتباراً للحياة أو النجاة، وهم يُغيِّرون مظهرهم كالشياطين التي تتحول إلى ملائكة من النور، وذلك أنهم يحاكون الحركات والثياب واللغات والعادات والتصرفات التي تأتيها الأمم والأقوام المختلفة، وهكذا يتخفون في ثياب الشاة لتنفيذ أغراضهم، ويتعرضون للموت بمجرد أن يكتشفهم الناس، وحيث إني في الواقع لم أرهم ولكني أعرف عنهم ذلك بالشهرة والكتابات الصحيحة فحسب، لذلك لا يمكنني أن استطرد أكثر من ذلك أو أعطي مزيداً من المعلومات، ولا أستطيع أن أبين كيف يمكن لأحدٍ أن يعرفهم الإنسان من واقع عاداتهم أو غيرها من العلاقات، لأنهم فيما يتعلق بهذه الأشياء غير معروفين لي وللآخرين كذلك، كما لا أستطيع أن أبين كيف يمكن أن يعرفهم بأسمائهم إذ إنهم بسبب بشاعة مهنتهم، وكراهية الجميع لهم، يحاولون إخفاء أسمائهم بقدر ما يستطيعون ولذا **فلست أعرف سوى وسيلة واحدة لوقاية الملك وحمايته، وهي أنه لا ينبغي السماح بإعطاء وظائف القصر الملكي أو أية خدمة فيه مهما كانت صغيرة أو محتصرة أو متواضعة إلا للمعروفين تماماً، كما لا ينبغي السماح لأحد بدخول القصر إلا لهؤلاء الذين تُعرف بالتحديد دولتهم وحكامهم**

ونسبهم وحالتهم، أي ينبغي باختصار ان يكون الشخص المسموح له بالاقتراب من الملك معروفاً تماماً»[1].

فالحشاشون كما يراهم هذا القس كانوا قتلة مأجورين، سريين من نوع خطر وذوي مهارات خاصة.

وفي تقرير كتبه مبعوث أرسله الإمبراطور " فريدريك بريروسة " إلى مصر وسوريا، كتب هذا المبعوث يقول: «لاحظ أنه يوجد عند تخوم دمشق وأنطاكية وحلب جنس معين من العرب يعيشون في الجبال يسمون أنفسهم بالحشاشين، ويُعرفون في الرومانية بسادة الجبل، هذه السلالة من الرجال يعيش أفرادها بلا قانون ... وهم يعيشون في الجبال في شبه منعة كاملة وراء أسوار قلاعهم الحصينة ... ولهم سيد يُلقي أشد الرعب في قلوب كل الأمراء العرب القريبين والبعيدين على السواء وكذا يخشاه الحكام المسيحيون المجاورون لهم، لأن من عادته ان يقتلهم بطريقة تدعو للدهشة، وهذه الطريقة كالتالي: ... يربي عديداً من أبناء الفلاحين الذين يأخذهم منذ طفولتهم المبكرة، وهناك يجري تعليمهم لغات مختلفة كاللاتينية والإغريقية والرومية والعربية وغيرها، وهؤلاء الشبان الصغار يلقنهم معلموهم من شبابهم المبكر إلى رجولتهم الكاملة أن عليهم أن يطيعوا سيد القلعة في كل ما يقوله أو يأمر به، وأنهم إذا فعلوا ذلك فإنه سوف يهبهم مسرات الفردوس، وهم يلقنون كذلك أن لا أمل لهم في

---

(١) هذه نصيحة مجربة يحتاجها الحكام والرؤوساء الذين جعلوا من الباطنية باختلاف طوائفهم خداماً لهم وندماء لهم وخاصتهم ليضحكوهم وعليهم يضحكون!! فكيف يؤتمن الخؤون!!. وقد قال عمر ابن الخطاب ﷺ: « ما خان أمين قط ولكن اؤتمن غير أمين فخان».

النجاة إذا قاوموا إرادته في أي شيء، ولاحظ أنهم منذ الإتيان بهم أطفالاً لا يرون أحداً سوى معلميهم وأسيادهم ولا يحصلون على أي تعليم آخر، وفي الوقت نفسه وعلى فترات متفاوتة يجري استدعاؤهم إلى حضرة الأمير فيسألهم عما إذا كانوا راغبين في إطاعة أوامره من أجل أن يمنحهم نعمة الفردوس، وعندئذ ينفذون ما تلقنوه بدون اعتراض أو ريبة فيرمون بأنفسهم تحت قدميه ويجيبون بحماسة أنهم سوف يطيعونه في كل ما يأمر به، وحينئذ يقوم الأمير بإعطاء كل منهم خنجراً ذهبياً ويرسلهم لقتل من يشاء من الأمراء».

وكتب المؤرخ الألماني " أرنولد أوف لوبيك " يقول: «سوف أحكي الآن أشياء عن هذا الأمير قد تبدو غريبة ولكن أكد صحتها لي شهود يوثق بهم، لقد استطاع هذا الشيخ بطرقه السحرية أن يغري قومه بأن يعبدوه ولا يقتنعوا بإله سواه، وأغراهم بطريقة غريبة مستخدماً الآمال والوعود بالمسرات والبهجة الخالدة حتى جعلهم يفضلون الموت على الحياة، إن إيماءة منه كافية لأن تجعل الكثيرين منهم يقفزون من فوق الأسوار المرتفعة فتُدق أعناقهم وتتحطم جماجمهم ويموتون ميتة بائسة، وهو يؤكد لهم ان أسعدهم مآلاً الذين يسفكون دماء الآخرين ويلقون حتفهم بالتالي انتقاماً لفعلتهم، ولذا فإنهم ـ عندما يختار بعضهم للموت بهذه الطريقة ـ يعدون أنفسهم لاغتيال من يحددهم ببراعة ثم يسلمون أنفسهم للموت سعداء جزاء لما يفعلون، والشيخ يقدم لهم بنفسه خناجر مخصصة لهذه المهمة ثم يشملهم على نحو يجعلهم ينغمرون في حالة من الوجد والابتهاج الغامر ونسيان أي شيء آخر ويعرض عليهم بسحره أحلاماً خيالية ومسرات وبهجات كبيرة أو بالأحرى مبهرجة زائفة ويعدهم بأن

هذه الأشياء ستكون خالصة لهم جزاء لهم»[1] .

إن مثل هذه الحملة من الإرهاب المنظم يلزمها مطلبان واضحان: التنظيم والأيديولوجية، فينبغي أن تكون هناك منظمة قادرة على أمرين: شن الهجوم وتحمل الضربة المضادة التي لا شك في مجيئها، وينبغي أن تكون هناك عقيدة تلهم وتدعم المهاجمين إلى درجة مواجهة الموت، وهذه العقيدة في مثل ذلك العصر والمكان لا يمكن أن تكون سوى الدين وذلك ينطبق على كل عصر[2] .

وهذا العاملان كانا موجودين، فالعقيدة الإسماعيلية المعدلة مع ذكرياتها عن الألم والاستشهاد وغير ذلك كانت بمثابة القضية التي تدعم معتنقيها بالكرامة والشجاعة وتلهمهم الولاء الذي لا نظير له من قبل في التاريخ الإنساني، وقد كان ولاء الحشاشين الذي خاطروا بالموت بل وأحبوه من أجل سيدهم عنواناً على الإيمان والتضحية بالذات قبل أن يكون عنواناً على القتل.

وكان هناك أيضا التنظيم الهادئ إلى جانب الحمية المتوقدة في عمل الحشاشين، ويبدو هذا واضحاً في عديد من المبادئ، فإن استيلاءهم على القلاع والحصون أمدهم بالقواعد الآمنة كما أن مبدأ السرية الذي اشتق من نظرية

---

(١) وهذا نفس الشيء الذي يحدث في الجماعات التي تتبنى العنف ووضعه في غير موضعه حيث تبارز أهل التوحيد والقبلة وتشهر في وجههم السلاح بالقتل والإبادة وهذا هو السبب الذي يجعل منفذي العمليات الانتحارية الحالية يقدمون على ذلك، فهذا إما للطمع في حياة أفضل أو إلى تنفيس ما في الصدر من الحقد والكراهية أو رغبة في الذكر أو حمية لمبدأ أو قوم وغيرة على عرض وغيره.

(٢) لاشك في أن هذه مقومات نجاح تلك الحملات وأعظمها هو ترسيخ العقيدة التي تعد الباعث والممد للفرد والجماعة، وهذا ديدن الجماعات القائمة والتي تتبع نفس الأساليب.

التقية أفادهم سواء من حيث الأمن أو التضامن، وقد كان عمل الحشاشين تدعمه الاعتبارات الدينية والسياسية.

الاغتيال السياسي:

جاء القتل السياسي مع ظهور السلطة السياسية، وأصبح مع مر الوقت أسرع وأبسط وسيلة لإحداث التغيير السياسي، وعادة ما يكون الدافع لمثل هذه الاغتيالات شخصي أو حزبي أو ما شاكل ذلك.

وفي بعض الأحيان ينظر القاتل والآخرون إلى الاغتيال كواجب تبرره حجج أيديولوجية إذ يبدو أو يصور الضحية كطاغية أو كمغتصبٍ ويبدو ويصور قتله الفضيلة وليس جريمة، ومثل هذا التبرير الأيديولوجي للقتل قد يُعبر عنه بصيغ سياسية أو دينية أو كلاهما معاً.

كان ضحايا الحشاشين في هذا المجال ينتمون إلى مجموعتين رئيسيتين:

الأولى: تضم الأمراء والقواد والوزراء، وقد أحرز الحشاشون على هذا المستوى أول نصر كبير لهم في الفن الذي صار يُنسب إليهم، فن الاغتيال وكانت ضحيتهم المختارة نظام الملك، الوزير السلجوقي الشهير، والعدو الأول لحركة الحشاشين.

وقد دبّر الحسن الصباح لهذه الجريمة بعناية. يقول المؤرخ رشيد الدين: «إن سيدنا نصب الشباك والفخاخ من أجل أن يصيد أول كل شيء هدفاً كبيراً كنظام الملك ويجعله يسقط في شباك الهلاك والموت، وبهذا العمل ذاع صيته وعمّت شهرته وأرسى أسس الفدائية، قال: مَنْ منكم يُخلّص الدولة من شرور

نظام الملك الطوسي؟ فوضع رجل يُسمى أبو طالب أراني يده على صدره علامة الموافقة ... وفي ليلة الجمعة ١٢ رمضان من عام ٤٨٥هـ وفي منطقة ساهنا من إقليم نهاوند تقدم الرجل وهو متخفٍ في ثياب الصوفيين إلى محفة نظام الملك الذي كان محمولاً من الساحة العامة إلى خيام حريمه وطعنه بسكين، وبهذه الطعنة نال الرجل الشهادة، وبذلك كان نظام الملك أول من قتله الفدائيون وقال مولانا ــ عليه ما يستحق ــ إن قتل هذا الشيطان هو بداية البركة».

على أن البعض يلقي بتدبير جريمة قتل نظام الملك على السلطان ملكشاه، حيث يروون في هذا الصدد الرواية التالية: «كان سبب قتله (نظام الملك) أن عثمان بن جمال بن نظام الملك، كان قد ولاّه جده نظام الملك رياسة مرو، وأرسل السلطان إليه أكبر مماليكه وأعظم الأمراء في دولته وكان يقال له قودن، فجرى بينه وبين عثمان منازعة في شيء، فحملت عثمان حداثة سنه وتمكنه وطمعه بجده، على أن قبض عليه، وأخرق به، ثم أطلقه، فقصد السلطان مستغيثاً شاكياً، فأرسل السلطان إلى نظام الملك رسالة مع تاج الدولة ومجد الملك البلاساني وغيرهما من أرباب دولته يقول له: «إن كنت شريكي في الملك، ويدك مع يدي في السلطنة، فلذلك حكم ... وإن كنت نائبي وبحكمي، فيجب أن تلزم حد التبعية والنيابة، وهؤلاء أولادك قد استولى كل واحد منهم على كورة عظيمة، وولي ولاية كبيرة، ولم يقنعهم ذلك حتى تجاوزوا أمر السياسة، وطمعوا إلى أن فعلوا كذا وكذا»، وأطال القول وأرسل الأمير "يلبرد" ـ وكان من خواصه وثقاته ـ وقال له: تعرفني ما يقول، فربما كتم هؤلاء شيئاً.

فحضروا عند نظام الملك وأوردوا عليه الرسالة، فقال لهم: «قولوا للسلطان إن كنت ما علمت أني شريكك في الملك فاعلم، فإنك ما نلت هذا الأمر إلا بتدبيري ورأيي، أما يذكر حين قُتل أبوه فقمت بتدبير أمره، وقمعت الخوارج عليه من أهله وغيرهم - منهم فلان وفلان وذكر جماعة ممن خرج عليه - وهو ذلك الوقت يتمسك بي ويلزمني ولا يخالفني، فلما قدت الأمور إليه وجمعت الكلمة عليه، وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة، وأطاعه القاصي والداني، أقبل يتجنى لي الذنوب، ويسمع فيّ السعايات، قولوا له عني إن ثبات تلك القلنسوة معذوق بهذه الدواة وإن اتفاقهما رباط على رغيبة وسبب كل غنيمة، ومتى أطبقت هذه زالت تلك، فإن عزم على تغيير فليتزود للاحتياط قبل وقوعه، وليأخذ الحذر من الحادث أمام طروقه» ثم قال لهم: «قولوا للسلطان عني مهما أردتم فقد أهمني ما لحقني من توبيخه وفتّ في عضدي». فلما خرج الوفد من عنده اتفق أعضاؤه على كتمان ما جرى عن السلطان رعاية لحق نظام الملك وسابقته، وأن يقولوا له ما مضمونه الطاعة والتبعية، ولكن "يلبرد" كان قد مضى إلى السلطان وأعلمه الأمر، ولما كان الغد فوجئ الوفد بأن الخبر قد بلغ السلطان، وأن هذا الأخير قد أحاط بكل ما دار بينهم وبين نظام الملك.

ووقع التدبير عليه حتى تمّ عليه من القتل ما تم، ومات السلطان بعده بخمسة وثلاثين يوماً وانحلّت الدولة ووقع السيف وكان قول نظام شبه الكرامة له [1].

ورغم هذه الرواية إلا أن الرأي الذي يبقى أقوى وأوكد وعليه عامة

---

(١) الكامل في التاريخ (٨/١٦١ - ١٦٢) بتصرف قليل

المؤرخين هو أن المسؤول مسؤولية مباشرة عن مقتل نظام الملك هو الحسن الصباح وحركته، وهذا الأمر ثابت في مراجع الشيعة أنفسهم، كما أن اسم نظام الملك محفوظ في "قائمة شرف" للاغتيالات بقلعة آلموت، كانت تُسجل بها أسماء الفدائيين وأسماء من قتلوهم.

وكانت تلك بداية سلسلة طويلة من الهجمات المماثلة أدّت في حرب رعب محسوبة إلى إنزال الموت المفاجئ بملوك وأمراء وقادة جيوش وحكام، يقول ابن الأثير: «إن أي قائد أو ضابط لم يكن يجرؤ أن يترك بيته بدون حماية وكانوا يرتدون الدروع تحت ملابسهم .. وطلب كبار الضباط من السلطان بركيارق أن يسمح لهم بالظهور أمامه مسلحين خوفاً من أن يتعرضوا للهجوم فمنحهم الإذن بذلك».

أما المجموعة الثانية من ضحايا الحشاشين: فتضم القضاة والعلماء وغيرهم من الشخصيات الدينية الذين أدانوا نظريات الإسماعيلية وأفتوا بقمع من يقول بها، إذ يقول أحد هؤلاء : «إن قتلهم أحلّ من ماء المطر، ومن واجب السلاطين والملوك أن يهزموهم ويقتلوهم وينظفوا وجه الأرض من دنسهم، ولا يجوز الاتصال بهم أو تكوين صداقات معهم أو أكل لحم ذُبح بواسطتهم، أو الدخول معهم في زواج، إن سفك دم ملحد منهم أكبر جزاءً من قتل سبعين من كفار اليوم».

وهناك فئة ثالثة متوسطة تضم ولاة المدن وقد نالت اهتمامهم بين حين وآخر، وكانت المؤسسة السنية بجوانبها السياسية والعسكرية والإدارية والدينية

هي العدو الرئيسي للإسماعيلية، وكان هدفهم من الاغتيالات إخافة هذه المؤسسة وإضعافها ثم الإطاحة بها في النهاية[1].

وبعض هذه الاغتيالات كان مجرد أعمال انتقام وتحذير مثل قتل علماء السنة في مساجدهم عقاباً لهم على مهاجمة الإسماعيلية بالقول أو الفعل، ولكن كان هناك ضحايا آخرين يتم اختيارهم لأسباب محددة أو عاجلة مثل قادة الجيوش الذين يهاجمون الإسماعيلية.

كما اجتمعت الدوافع التكتيكية والدعائية في اغتيال بعض الشخصيات الكبيرة كالوزير نظام الملك - كما أشرنا سابقاً - واثنين من الخلفاء ومحاولات اغتيال صلاح الدين.

كان الحشاشون بحق اتحاداً من الدجالين والمغفلين استطاعوا تحت قناع من التشدد الديني والأخلاقي الإساءة إلى الدين والخلق، وأن هذه الجماعة من السفاكين الذين سقط تحت نصال خناجرهم أسياد الدول ظلوا أقوياء لأنهم - ولمدة ثلاثة قرون - استطاعوا أن يبثوا الرعب في قلوب الجميع إلى أن سقط وكر الوحوش في يد الخلافة التي كانت منذ البداية هدفاً للتدمير بأيديهم كرمز للسلطة الروحية والزمنية للمسلمين[2].

---

(١) وهذا أشبه بحرب استنزاف لإرهاق الدولة وحلّ أواصرها مع مرور الزمن.

(٢) يمكننا القول بأن ذلك ينطبق أيضاً وعلى درجات على كثير من الجماعات السرية التي تتخذ لها منهجاً حركياً مشابهاً لمنهج الحشاشين الحركي من قريب أو بعيد.

ونأتي الآن إلى أمر حار فيه كثير من المحللين وتضاربت بشأنه تفسيراتهم، وهو الولاء العجيب من الحشاشين لسيدهم "شيخ الجبل"، الذي جذب انتباه الكثيرين وخاصة في أوربا على الأقل في بداية الأمر، حتى صار مضرب الأمثال.

يقول أحد الشعراء مخاطباً حبيبته: "أنت تسيطرين عليّ بسحرك أكثر مما يسيطر الشيخ على حشاشيه الذين يذهبون لقتل أعدائه الفانين". ويقول آخر: "كما يخدم الحشاشون سيدهم بإخلاص لا ينضب، كذلك أحبك بولاء لا يكلّ". وفي خطاب حب آخر يقول كاتب مؤكداً لحبيبته: "أنا حشاشك الذي يتمنى أن يحظى بفردوسك عن طريق تنفيذ أوامرك".

وانطلاقاً من تسليمنا بأن الفكر هو موجّه السلوك، فإننا نقف على تفسير إقدام الفدائي على التضحية بحياته إذا ما وقفنا على مكونات فكره التي استطاع الحسن الصباح أن يشكلها بطريقة تكشف عن عبقرية سياسية ومواهب إدارية واستراتيجية كبيرة.

إن الموقف الذي ينطلق منه الفدائي خاصة وعضو حركة الحشاشين عامة، هو القلق والشعور بالخوف إزاء الواقع الذي يعيش فيه كنفس مقيدة في بدن، وكفردية مؤطرة في مجتمع بحيث لا يلقى إلا ما ينغّصه ويكدره ويجعله يشعر بأنه محاصرٌ ومستعبد، فيبدو العالم كله شرّاً، وتصبح مشكلته الأساسية هي مشكلة الشرّ في العالم: لماذا كان العالم يحتوي على الشرّ؟ ولماذا يطغى فيه الشرّ؟ وما مصدر هذا الشر؟.

ومن هذه الوضعية يبدأ الفدائي يعبر عن رفضه لهذا الوجود كله وبشدة فينطلق أولا: بإبداء التضايق والشكوى من هذه الوضعية ثم بإعلان الكراهية والعداء لها انتهاءً بالتشهير بها والتمرد عليها.

يرفض الفدائي هذه الوضعية كواقع خارجي، كما يرفضها كشعور داخلي ... كشروط حياة، ويرفض نفسه كوجود خاضع لهذه الشروط، ومن هنا إحساسه بالغربة بصورة مضاعفة: يشعر بنفسه غريباً في عالم يراه غريباً عنه تماماً، فيتجّه إلى تمييز نفسه عن هذا العالم، إلى الانفصال والقطيعة عنه، ومن هنا يتعاظم ميل الفدائي وشوقه وتستولي عليه فكرة ضرورة التحرر من قبضة هذا العالم وقيوده والرحيل عنه إلى حيث امتلاك النفس والتحرر الكامل، والالتحاق بعالم آخر، عالم متعال عن المكان والزمان، عالم الحياة الحقيقية، عالم الكمال والطمأنينة والسعادة، العالم الذي كان فيه وأخرج منه والذي سيعود إليه، وهو يستقي معرفته بذلك العالم الآخر لا من خلال تأمل العالم الدنيوي، وكيف يمكن أن يجد فيه الجواب وهو عالم غريب كله شرّ؟ ولا يقوم باستعمال حواسه وعقله، إذ لا يمكن أن يعتمد عليهما لأنهما مرتبطان بهذا العالم؟ فلا يبقى إلا أن يطمع في أن يتلقى المعرفة التي يبغيها من القوى العليا التي هو مشدود إليها ويسعى للالتحاق بها، ولكن هذه القوى العليا لا تعطي علمها الغيبي إلا لإمام الزمان، ومن هنا فإن الفدائي يسلم نفسه تماماً إلى هذا الإمام أو من ينوب عنه، فيقوم الإمام أو نائبه باستغلال هذا الموقف فيدفع بالفدائي ورغبته في الخلود

والرجوع إلى موطنه الأصلي إلى أقصى مدى[1].

إن الإمام يقدم له تاريخ ما قبل تاريخه وما بعده، فيعرف منه أنه كان موجوداً قبل وجوده الراهن في العالم، وأنه جاء إلى هذا العالم من عالم آخر يقع خارج هذا العالم ويسمو على تحديداته الزمانية.

وانطلاقاً من هذا التصور يقتنع الفدائي بأن وجوده في هذا العالم شيء غير طبيعي، وبالتالي فلا بد أن يكون هذا السقوط الذي أصابه، والذي يتمثل في مغادرته عالم الخلود والانغماس في هذا العالم المملوء شرّاً، لابد أن يكون نتيجة لذنب أو خطيئة ولا بد من تدارك الموقف والعمل من أجل الخلاص.

إن الفدائي وهو في هذه الحالة من الشعور، يتصوّر "البعث والنشور" على أنه رجوع إلى حال سابقة سامية، حالٌ من الحرية الفكرية، حال ينزع فيها روحه عن جسده، ليعود إلى الحال التي كان عليها قبل ميلاده، بل قبل تكونه في الصورة الجسمانية، إنها النشأة الأخرى أو الميلاد الجديد.

وبعد أن عرف الفدائي من أين أتى وعرف أن مصيره الحقيقي الذي سيحرره من سُحُب هذا العالم، هو الرجوع إلى من حيث أتى، ففي هذا الرجوع وحده يكمن خلاصه.

وبعد أن عرف الفدائي إلى أين يصير، لا يبقى إلا أن يسلك الطريق،

---

(١) هذه الفلسفة هي نفسها التي تمارس الآن مع الشباب الصغار الذين يُدفعون للقتل والسرقة، ويدفعون هم حياتهم ثمناً، إنها نفس الفكرة القديمة، لذا فإنه يتوجب على عقلاء الإسلام شرح هذه القضية وبسطها لدى الشباب عبر وسائل الإعلام حتى يعرف حدود الطاعة والتضحية.

وسلوك هذا الطريق لا يكون إلا تحت رعاية الإمام وتوجيهه، والخضوع له خضوعاً مطلقاً وفقاً لمبدأ "التعليم" الذي يقوم بدوره على "التسليم التام" لكل ما يصدر عن الإمام أو المعلم الصادق من أوامر، حتى أنه كما يقول نصير الدين الطوسي: "لو أراد له الحياة لما أحب الموت، ولو أراد له الموت لما أحب الحياة، ولو قال له إن النهار المشرق ليل بهيم، أو أن الليل البهيم نهار مشرق لما هجس في قلبه أي اعتراض على هذا القول، ولما حام حول كيف يكون الأمر كذلك ولماذا؟ فينعدم اختيار الإنسان الناقص الجاهل وإرادته باختيار الإنسان الكامل العاقل وإرادته".

ومن هنا فإن الإمام أو المعلم الصادق عندما يأمر الفدائي بأن يغتال إحدى الشخصيات المناوئة للدعوة، فإن الفدائي يسرع بتنفيذ الأوامر الصادرة إليه انطلاقاً من رغبته الجامحة في المساهمة في القضاء على الشرّ المسيطر على هذه الحياة الدنيا، وشوقاً في الصعود إلى عالم الفردوس والخلود الذي آمن من قبل أنه لن يمكنه بلوغه إلا بأن "يخلع عنه قميص جلده" فيتحرر من بدنه ومن كل ما يشده إلى هذا العالم.[1]

---

(١) نحب أن نشير هنا إلى أن قتل الحشاشين للضحية لم يكن عملاً من أعمال الإيمان فحسب وإنما كانت له أيضاً طقوس ذات طبيعة مقدسة، فمما له دلالة خاصة أن الحشاشين في كل الاغتيالات التي مارسوها سواء في فارس أو سوريا كانوا يستخدمون الخنجر دائماً ولم يلجأوا مطلقاً إلى القتل بالسم أو بالسهام بالرغم من أن القتل بمثل هذه الطرق البديلة يكون في بعض الحالات أكثر سهولة وأمناً، وكان الفدائي من الحشاشين يمسك بالخنجر في كل الحالات تقريباً فلا يحاول الهرب بل هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم كانوا يعتبرون البقاء على قيد الحياة بعد إنجاز المهمة أمراً مخجلاً.

الرموز السرية

إن أي عمل سري لا تكتمل سريته إلا باستخدام رموز سرية لا يعرف مدلولها إلا المنخرطون في العمل والمنتمون إلى صفوف تنظيمه، لضمان سهولة الاتصال بين الأفراد دون انتباه من العدو.

ومن هنا لجأ الحشاشون ومنذ وقت مبكر إلى استخدام رموز سرية وقواعد خاصة بمراسلاتهم السرية في حروبهم وتنظيماتهم وجعلوا أمر معرفتها مقتصراً عليهم وحدهم، وكانوا يشيرون بها إلى أسماء خصومهم ويخفون وراءها جمل التهديد العنيف.

وكان لهذه الرموز عدة أساليب، تختلف من عهد لآخر، ومن فترة لأخرى، فمثلاً تختلف الرموز السرية التي كانت تُستخدم في دور الستر الأول وفي العهد الفاطمي عنها في عهد الدولة الإسماعيلية النزارية.

والجدير بالملاحظة ان فك تلك الرموز كان من اختصاص كبار الدعاة ممن تُلقى على عاتقهم المهمات الجسام، ويكونون بعيدين عن مركز الدعوة، فكانت الرسائل تصلهم وبصورة منظمة عن طريق الحمام الزاجل الذي برع الإسماعيلية في استخدامه. وفيما يلي جانب من هذه الرموز السرية التي كان يستخدمها كبار دعاة التنظيم الإسماعيلي.

أمثلة من الرموز السرية التى كانت تستخدمها الحركة

هكذا كان البرنامج العملي ـ وليست النظريات المحضة ـ لحشد جموع الكافة والبسطاء واستعمالها آلات صمّاء في يد الزعماء لتوطيد دعائم الإرهاب الهائل الذي بسط الحسن الصباح وأتباعه ظله على أنحاء فارس والعراق والشام مدى قرن ونصف من الزمن[1] .

وقد أشار (فون هامر) الذي يعتبر الحسن الصباح عبقرية عظمى إلى برنامجه التنفيذي في هذه العبارة القوية بقوله : "إن الآراء ضعيفة قاصرة ما وقفت عند إجهاد الذهن دون تسليح اليد، و لم يظفر التشكيك والتفكير الحر بسحق عرش من العروش وقفا عند الاضطرام في عقول الكسالى والفلاسفة، بيد أن التعصب الديني والتعصب السياسي هما أنفذ الأسلحة في يد الأمم لسحق العروش، إن ذا الأطماع لا يعني بما يعتقد الناس ذرة، ولكنه يعني كل العناية بمعرفة الوسيلة التي يستطيع بها أن يستعملهم في تنفيذ مآربه»[2] .

مجمل القول أن حركة الحشاشين قد استطاعت بهذه المنظمة أن تحقق لنفسها لدى غيرها من الدول التي عاصرتها مهابة سياسية بنفس القدر الذي استطاعت به أن توقع الخلل والاضطراب في نفوس أعدائها.

---

(١) والذي يرى (فون هامر) شبيهاً له في إرهاب الثورة الفرنسية، وقد كان زعماؤها أيضاً زعماء في بعض الجمعيات السرية أو آلات في يدها.

(٢) هذا ما تعتمده المجموعات الثورية وهو أنها تنفخ في منتسبيها التعصب والتزمت الديني والسياسي الأعمى بغرض توجيه ذلك ضد فئة معينة.

معارك الحسن الصباح مع السلاجقة

سرت أنباء استيلاء الحشاشين على القلاع والحصون وانتشار دعوتهم السريع، سريان النار في الهشيم، فوصلت إلى بلاط السلطان ملكشاه السلجوقي، الذي وجد نفسه أمام قوة تتزايد يوماً بعد آخر، وأنه لا أمل في الوصول إلى تسوية سلمية بين الطرفين، خصوصاً بعد رد الحسن على رسالة السلطان التي عرضنا لها من قبل.

فتعين اللجوء إلى استخدام القوة العسكرية للقضاء على نفوذ الدولة الجديدة ، أو على الأقل التخفيف منه والتقليل من أثره.

وجّه السلطان حملتين في بداية سنة ٤٨٥هـ إلى كل من آلموت وقهستان أما الحملة الأولى فكانت بقيادة الأمير أرسلان تاش، وما أن وصلت جحافل جنوده إلى آلموت حتى وجّه إنذاراً شديد اللهجة إلى الحسن الصباح طلب إليه الاستسلام دون قيد ولا شرط وإلا عرّض القرى المجاورة له والتي تمده بالتموين للخراب والدمار، وقلعته للضرب بالمنجنيقات والحصار الدائم.

وكما كان متوقعاً فإن الحسن لا يستسلم بهذه السهولة التي كان يظنها الأمير، بل كان ردّه يحمل طابع التحدي والمواجهة.

يقول الحسن في ردّه: "أيها الغزاة ما لكم والتدخل في شؤوننا الداخلية؟ نحن قوم لا هدف لنا إلا العمل على إصلاح المجتمع[1] ، هذا المجتمع الفاسد ونشر بذور المحبة والإخاء بين المواطنين، ورفع الحيف والظلم عن الطبقات الفقيرة العاملة المنتجة. ارجع بجنودك فلو بقيت إلى الأبد لن تنال منا قيد أنملة، وحسن بن الصباح الذي عجمت[2] عوده لن يخشاك، والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى".

ما كاد الأمير "أرسلان تاش" يتسلم رد الحسن حتى أمر جنوده بشن الهجوم على كافة القرى والمناطق المجاورة التي كانت بمثابة قواعد التدعيم اللوجستيكية للحركة، وزحف باتجاه قلعة آلموت وشدد الحصار عليها بعد قطع جميع الطرق التموينية عنها.

وكان الحسن قد أعدّ العدة، فملأ مخازنه بالسلاح والمواد الغذائية وبكل ما يحتاجه المحارب أثناء عملية الحصار الطويل، واتبع نظام التقنين في توزيع الأغذية حتى يضمن الاستمرار في المواجهة أكبر مدة ممكنة.

وكان الحسن قد أوفد مبعوثاً له لطلب النجدة والمساعدة في فك الحصار من الداعي "ديدار أبو علي" الذي كان له نفوذه وتأثيره في قزوين والري والطالقان وغيرها. فسارع الداعي بإجابة طلب الحسن الصباح وأرسل ما يقرب من ثلاثمائة فدائي حملوا على جيش أرسلان في غسق الظلام فأوقعوا به

---

(١) هذه الدعاية يستعملها دعاة الانحراف دائماً، ودأبوا على ذلك على مرّ العصور لخداع العامة.

(٢) عجم عوده: امتحنه واختبره.

هزيمة منكرة، ارتد على إثرها مهزوماً إلى أصفهان، وظفر الإسماعيلية بغنائم كثيرة، وقيل إن الحصار استمر أربعة أشهر.

أما الحملة الثانية التي كان السلطان وجهها إلى قهستان بقيادة "قزل مارق" فإنها قامت بحصار منطقة النفوذ الإسماعيلي، واستمر الحصار مدة دون أي تسليم يُذكر من حسن القائي ورجاله، وفك الجيش الحصار وقرر العودة فور إعلان وفاة السلطان ملكشاه السلجوقي.

وبذلك يكون السلام قد عاد إلى قلاع وحصون الإسماعيلية، وقام الحسن الصباح ودعاته بتنظيم صفوفهم والاستعداد للمواجهات القادمة، مستغلاً في ذلك فترة الاضطراب التي كانت تعيشها السلطنة عقب وفاة السلطان ملكشاه.

صراع الحركة مع أبناء ملكشاه

تمزّقت وحدة الدولة السلجوقية بعد موت السلطان ملكشاه وشرع أبناؤه بالتطاحن والاقتتال على تسلم زمام الأمور، مما قد ساعد الحسن الصباح فعمل على تقوية مركزه وتحصين قلاعه، فشحنها بالجنود الأشداء الذين استقدمهم من مختلف المناطق بعد أن تلّقوا تدريباً خاصاً على عمليات الحصار، كما وجه جل اهتمامه لتأمين طرق المواصلات السرية بينه وبين أتباعه في القلاع المجاورة ومع كبار الدعاة في أصفهان الذين أخذوا يمدونه بالرجال والسلاح والمواد التموينية.

انتهز الإسماعيلية فرصة صراع أبناء السلطان ملكشاه بركيارق ومحمد، واندسوا في عسكر بركيارق، بعد ما استفاد منهم في حربه مع أخيه، وفشت

دعوتهم بين ضباطه وجنده، وخشيتهم بطانة السلطان والخاصة ونُسبت إليهم كل الجرائم الخفية.

ولما ضجت بطانة السلطان بركيارق وضجّ الناس عامة من عيث الإسماعيلة، واتُّهم بركيارق بممالأتهم والميل إلى مذهبهم، وخشي الفتنة في عسكره وشعبه، أذن بمحاربتهم ومطاردتهم.

ويذكر ابن الجوزي: أن بركيارق بإعلانه العداء للإسماعيلية أزال الشبهات والشكوك التي نُسجت حوله.

عقد بركيارق اتفاقاً مع سنجر حاكم خراسان، وغيره من حكام الولايات الإيرانية، على ضرورة مكافحة هذا الخطر الداهم والمتمثل في حركة الحشاشين في جميع أرجاء البلاد. وتم على إثر ذلك عقد السلم بين الأخوين بركيارق ومحمد وتحالفا على إبادة وقتل جميع أعضاء الحركة.

قاد بركيارق حملة القتل بنفسه، وكان يتعرض للقتل كل من تحوم حوله الشبهات، حتى ذهب كثير من الأبرياء ضحية ذلك، وكان ممن اتُّهم باعتناق العقيدة الإسماعيلية الفقيه الشهير "الكيا الهراسي" الذي كان يدرس بالمدرسة النظامية، ولولا تدخل المستظهر باللّه الذي أرسل رسولاً من قبله شهد له بصحة الاعتقاد وعلوّ الدرجة في العلم، لما أطلق سراحه.

وشملت عملية القضاء على معتنقي العقيدة الإسماعيلية رجال السلطان نفسه، كأبي إبراهيم الأسد أباذي والأمير محمد بن دشمنزيار صاحب يزد.

بعد موت السلطان بركيارق تأهب أخوه السلطان محمد لقتال الإسماعيلية وسار إلى قلاعهم في شاه ديز سنة ٤٩٤هـ وضيّق الحصار عليها، وحاول الإسماعيلية مهادنة السلطان بالمفاوضة فلم يقبل، وهنا قام الداعي أحمد بن عبدالملك بن عطاش بمناورة ذكية إذ استطاع أن يشغل خصومه بخلاف عقائدي لفترة من الوقت تمكن خلالها من التقاط أنفاسه، فأرسل إلى السلطان وفقهائه رسالة هذا نصها: "ما يقول السادة الفقهاء أئمة الدين في قوم يؤمنون باللّه، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وإنما يخالفون في الإمام، هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم ويحرسهم من كل أذىً؟".

فاستشار السلطان الفقهاء فتباينت فتاواهم، واختلفت وجهات نظرهم بين مؤيد ورافض، فجمعهم السلطان للمناظرة في المسألة، وكان فيها الفقيه الشافعي أبو الحسن السمنجاني الذي قال: " يجب قتالهم، ولا يجوز إقرارهم بمكانهم، ولا ينفعهم التلفظ بالشهادتين، فإنهم يقال لهم : أخبرونا عن إمامكم إذا أباح لكم ما حظره الشرع، أو حظر عليكم ما أباحه الشرع، أتقبلون أمره؟ فإنهم يقولون: نعم، وحينئذ تباح دماؤهم بالإجماع".

ولكن ابن عطاش لم يكن يقصد بكل هذه المفاوضات إلا أن يفتح ثغرة يستطيع معها أن يدبر أحوال قلعته، ويرسل أعوانه ورجاله لشراء ما تحتاج إليه القلعة من طعام ومؤن حتى يتمكنوا من الصمود مدة أطول، عسى أن تأتيهم الإمدادات من باقي أجنحة الحركة أو يحدث ما يجعل السلطان يتراجع عن الحصار، لكن الأمر يبقى على حاله وازداد عزم السلطان على إبادة من بالقلعة،

هنا كلّف ابن عطاش أحد فدائييه بقتل أكبر أمراء السلطان عداوة وقتالاً لهم، فاستطاع الفدائي أن يطعنه، ولكنه جُرح فقط ونجا من موت محقق.

وبهذه العملية الفدائية انتهت المفاوضات، وجدّد السلطان حصارهم وتضييق الخناق عليهم، ولما رأى الإسماعيلية عزم السلطان وتمسّكه، فاوضوه في التسليم على أن يسيروا إلى قلاع أخرى لهم، وتبقى جماعة منهم لحماية "شاه ديز" حتى يصل إخوانهم إلى القلاع، ثم تُسلّم الحامية القلعة وتسير إلى الحسن الصباح في آلموت، فرضي السلطان بذلك، وتم لهم ما أرادوا، إلا أن عبد الملك ابن عطاش زعيم المعتصمين بالقلعة أبى تسليمها وتحمّل هو وأتباعه أهوال الحصار، ورفعوا الأخشاب والأسلحة فوق الأسوار وألبسوها الثياب إيهاماً للمحاصرين بكثرتهم، وكاد السلطان ييأس من التغلب عليهم لولا أن دلّه خائن منهم على مدخل خفي للقلعة فدخلها جنود السلطان وملكوها، ولم يجدوا فيها من الإسماعيلية سوى ثمانين رجلاً قتلوا معظمهم، وأسر ابن عطاش، وقُتل بعد ذلك.

ويحدثنا ابن الأثير[1] عن ذلك الحصار فيحكي أن السلطان محمد السلجوقي خرج على رأس عساكر جرارة لقتال الإسماعيلية، فحاصرهم مدة طويلة وتجمع لحربهم جموع كثيرة فأحاطوا بجبل قلعة "شاه ديز" ورتّب الأمراء لقتالهم، فكان يقاتلهم كل يوم أمير، فضاق الأمر بهم واشتد الحصار عليهم فاستبسلوا في معاقلهم ونفذت الأطعمة منهم ففتحت قلعتهم بعد حصار طويل وذلك في عام ٥٠٠هـ وأُخذ شيخ الجبل أحمد بن عبدالملك بن عطاش أسيراً

---

(١) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير أحداث من ٥٠٠هـ (٩/٤٣٠ - ٤٣٤).

فتُرك أسبوعاً في السجن ثم أمر به فشُهر في جميع أنحاء البلاد وسُلخ جلده حياً فتجلّد حتى مات، وقُتل ولده، كما أن زوجته فضّلت أن تقذف بنفسها من أعلى القلعة على أن تؤخذ أسيرة من قبل الأعداء.

وأصدر السلطان بياناً للاحتفال بهذا النصر، جاء فيه: "في قلعة شاه ديز .. باض الزيف وأفرخ .. هناك كان ابن عطاش الذي طار منه صوابه في طريق الخطأ وضل والذي قال لرجاله إن الصراط المستقيم، طريق زائف، وجعل مرشداً له كتاباً مليئاً بالأكاذيب، وأباح سفك دماء المسلمين والاستيلاء على ممتلكاتهم ... وحتى إذا لم يكونوا قد فعلوا أكثر مما فعلوه عندما جاؤوا أول الأمر إلى أصفهان حين اتبعوا أساليب الخيانة وأوقعوا فرائسهم في حبالهم بالغدر والخديعة وقتلوهم بوسائل التعذيب المريعة والموت الفظيع، وما قاموا به من اغتيالات عديدة بدأت بنبلاء البلاط ونخبة العلماء وما سفكوه من دماء زكية لا تُعد ولا تحصى وغير ذلك من الجرائم البشعة في حق الإسلام ... إن لم يكونوا قد فعلوا أكثر من ذلك فقد كان من واجبنا أن نحارب دفاعاً عن الدين وأن نركب السهل والصعب في حربنا المقدسة ضدهم حتى حدود الصين".

ولم تتوقف الحملات السلجوقية عند هذا الحد، بل شملت معظم قلاع الحركة في شرق وغرب وشمال إيران، وسقطت على إثر ذلك بعض قواعد الإسماعيليين القوية.

أعاد السلطان محمد تنظيم الصفوف ورأب الصدع الذي أصاب الجيوش، وطهّرها ممن تحوم حولهم شبهة اعتناق العقيدة الإسماعيلية، حيث إنه قتل في نفس السنة أربعة من كبار الشخصيات العامة.

أرسل السلطان بعد ذلك حملة عسكرية ضخمة لمهاجمة المعقل الأساسي للحركة، قلعة آلموت مقر مؤسس الحركة وزعيمها الحسن الصباح، وكانت الحملة تحت قيادة الوزير نظام الملك أحمد بن نظام الملك، وقد كان للوزير أسبابه القوية لكراهية الإسماعيليين، فإن أباه الوزير الشهيد كان أول ضحاياهم البارزين، كما أن أخاه فخر الملك كان قد سقط هو أيضاً تحت نصال خناجر أحد الفدائيين.

شنّ الوزير الهجوم على القلعة واستطاع أن يدمر محاصيلهم، ويمنع عنهم الإمدادات ويُحدث متاعب كبيرة للإسماعيليين، ولكنه فشل في تحقيق الهدف الرئيسي من الحملة وهو الاستيلاء على آلموت أو تدميرها.

يقول المؤرخ الكبير عطا مُلك الجويني: "إنه (أحمد بن نظام الملك) حاصر آلموت وأوستفاند التي تجاورها على ضفاف نهر أنديج وشنّوا الحرب بعض الوقت ودمّروا المحاصيل، ولما لم يستطع تحقيق أكثر من ذلك انسحب الجيش من رودبار. وفي القلاع كانت هناك مجاعة كبيرة وعاش الناس على أكل الحشائش ولهذا السبب فقد نقلوا زوجاتهم وأبناءهم إلى أماكن أخرى وأرسل الحسن الصباح أيضاً زوجته وأبناءه إلى جيردكوه".

وأقبل الشتاء ببرده وزمهريره، فحال ذلك دون بقاء قوات الوزير أحمد بن نظام الملك، فقرر العودة دون أن يحقق الهدف الرئيسي من الحملة.

بيد أن السلطان لم يقنع من الغنيمة بالإياب واتضح بعد ذلك أن الاستيلاء على قلعة آلموت بالهجوم المباشر مستحيل، ولذا فقد حاول طريقة أخرى هي حرب الاستنزاف التي كان يرجو عن طريقها أن يضعف الإسماعيليين إلى حد لا

يستطيعون معه الصمود للهجوم. يقول الجويني: "لثماني سنوات متوالية كانت القوات تأتي إلى رودبار وتدمر المحاصيل ويشترك الجانبان في القتال، وعندما أصبح معروفاً أن حسن ورجاله لم تعد لديهم قوة أو طعام عيّن السلطان محمد أنوشتكين شيركير قائداً للقوات وأمره بمحاصرة القلاع من الآن فصاعداً .. فحاصر العسكر لاماسار، كما حاصروا آلموت، وأقاموا المجانيق وحاصروا ببسالة وما أن هلّ شهر ذو الحجة من تلك السنة حتى كانوا قد أوشكوا على الاستيلاء على القلاع وتخليص البشرية من كيدهم، ولكن وصلت الأنباء بوفاة السلطان محمد في أصفهان فتفرق الجند وتركوا الملاحدة أحياء فأخذوا إلى قلاعهم كل المؤن والأسلحة ومعدات الحرب التي خلّفها جيش السلطان وراءه".

ويحدّثنا ابن الأثير عن ذلك بتفصيل أكبر أن السلطان محمد السلجوقي ندب لقتال الإسماعيلية الأمير أنوشتكين شيركير قائده الأكبر، فملك منهم عدة قلاع، منها قلعة كلام في جمادى الأولى سنة ٥٠٥ هـ، وكان مُقدَّمُها يُعرف بعلي بن موسى، فأمّنه ومن معه وسيّرهم إلى آلموت فيمن معه من العساكر، وأمدّه السلطان بعدد من الأمراء فحاصرهم وكان هو من بينهم صاحب القريحة والبصيرة في قتالهم مع جودة الرأي والشجاعة، فبنى عليها مساكن يسكنها هو ومن معه، وعيّن لكل طائفة من الأمراء شهراً يقيمونها، فكانوا يغيبون ويحضرون وهو ملازم الحصار، وكان السلطان ينقل إليه الميرة والذخائر والرجال، فضاق الأمر على الباطنية، وعدمت عندهم الأقوات وغيرها، فلما اشتد عليهم الأمر أنزلوا نساءهم وأبناءهم مستأمنين، ويسألون أن يُفرج لهم

ولرجالهم عن طريق يأمنوا بها، فلم يجابوا إلى ذلك وأعادهم إلى القلعة ليموت الجميع جوعاً، وكان ابن الصباح يجري لكل رجل منهم رغيفاً وثلاث جوزات، فلما بلغ بهم الأمر إلى الحد الذي لا مزيد عليه، بلغهم موت السلطان محمد، فقويت نفوسهم وطابت قلوبهم ووصل الخبر إلى العسكر المحاصر لهم بعدهم بيوم وعزموا على الرحيل، فقال شيركير: إن رحلنا عنهم وشاع الأمر نزلوا إلينا وأخذوا ما أعددناه من الأقوات والذخائر، والرأي أن نقيم على قلعتهم حتى نفتحها، وإن لم يكن المقام فلابد من مقام ثلاثة أيام حتى ينفذ منا ثقلنا وما أعددناه، ونحرق ما نعجز عن حمله لئلا يأخذه العدو. فلمّا سمعوا قوله تعاهدوا على الاتفاق بالإجماع، ولما أمسوا رحلوا من غير مشاورة، ولم يبق غير شيركير، فنزل إليه الباطنية من القلعة فدافعهم وقاتلهم وحمى من تخلف من العسكر، وأخيراً لحق بالعسكر، فلما فارق القلعة غنم الباطنية ما تخلف عندهم".

لقد كان انسحاب الجيش وهو على وشك الانتصار سبباً لخيبة الأمل الشديدة، وهناك ما يدل على أن أنباء وفاة السلطان لم تكن وحدها السبب في هذا الانسحاب المستعجل، إذ ثمة دور شرير لعبه رجل يُدعى قوام الدين نصير ابن علي الدرجازيني، وكان وزيراً في خدمة السلاجقة، ويقال إنه كان إسماعيلياً في السر، كان هذا الرجل شديد التأثير على خليفة السلطان ابنه محمود، واستطاع أن يقنعه بضرورة رجوع الجيش إلى أصفهان، وسمم ذهن السلطان

ضد قائد الحملة أنوشتكين شيركير، فسجنه ثم قتله، وأنقذ بذلك الإسماعيليين في آخر لحظة من نهاية مؤكدة[1] .

تسلم زعامة الدولة السلجوقية بعد ذلك السلطان سنجر شقيق السلطان المتوفى محمد، فحاول في مطلع حكمه أن ينهج نهج أخيه محمد في محاربة الإسماعيلية، فأعلن التعبئة العامة واستنفر الجيوش الجرارة لمحاصرة قلعة "آلموت"، فحاول الحسن أن يستميل السلطان بإرسال الرسائل والسفراء، علّه يرجع عن القرار الذي اتخذه والمتمثل في تعقب الإسماعيلية وإبادتهم، لكن السلطان لم يستجب لأنه كان يشك في صدق رغبة الحسن الصباح في طلب السلام، ولذلك سلك الحسن طريقاً آخر اقتنع معه السلطان بجدية الحسن في إرساء جسور السلام بينهما، حيث أوعز الحسن سرّاً لأحد غلمان السلطان بعد أن أعطاه مبلغاً كبيراً من المال، أن يغمد خنجراً منطعاً بالدم في وسادة مع الرسالة التالية[2] : " أيها السلطان المغرور ، لا تفكر إذا كان الحسن الصباح بعيداً عنك يعيش فوق صخرة آلموت، غير قادر على الوصول إليك، ثق أن من تمكن أن يضع هذا الخنجر في وسادتك، لقادر على غمسه في فؤادك، إلا أنني رأيت الرجل الطيب الصالح متجسداً فيك، فاحببت أن أستبقي عليك لفرصة أخرى، فقد أعذر من أنذر والسلام على من اتبع الهدى وخشي عواقب الردى".

ارتاع السلطان سنجر، عندما انتبه من نومه فوجد الخنجر ورسالة

---

(١) ليتدبر الحكام وأهل الشأن في عالمنا خطورة أن يكون وزيرهم مجهول وعلى الخيانة مجبول! فليتنبه القوم لما في القصور يدور!!

(٢) نص هذه الرسالة موجود في كتاب البستان، وهو من الكتب الإسماعيلية.

الحسن، فتأكد أن الحسن لو أراد قتله لفعل، لذا قرر أن يضع حدّاً للحروب التي استمرت طويلاً، فأخذ يفاوض الإسماعيلية، وتمخّضت عن هذه المفاوضات عقد معاهدة صلح بين الطرفين سنة ٥١٣ هـ، اعترف السلطان بموجبها باستقلال الإسماعيلية الذاتي ومنحهم الحرية لمزاولة شعائرهم الدينية ضمن مناطق نفوذهم، كما سمح لإسماعيلية جيردكوه بخراسان أن يفرضوا الضرائب على القوافل التجارية التي تعبر بلادهم، وتنازل الحسن عن دخل (قوس) وملحقاتها، ومقابل ذلك اشترط السلطان على الحسن أن لا يبني قلاعاً جديدة، ولا يشتري أسلحة، وأن يخفّف من الدعاية الدينية لدعوته.

وبهذا يكون الحسن وجماعته قد حصلوا على الاعتراف السياسي الذي يعطي لهم الشرعية في الوجود والحرية في علانية العمل.

وبالرغم من هذه المعاهدة فإن الحركة لم تنبذ أهدافها النهائية ولكن خففت من حركة التخريب والإرهاب التي كان يقوم بها فدائيو الحركة في البلاد الرئيسية، وركّزوا بدلاً من ذلك على حماية الأقاليم التي يسيطرون عليها وتدعيمها.

ويحكي المؤرخ الجويني قصة تسامح السلطان سنجر إزاء استقلال الإسماعيليين فيقول: "كان حسن الصباح يرسل السفارات في طلب السلام فلا يجيبه أحد، ولذا فإنه بشتى طرق الخداع والإغراء استطاع أن يرشي بعض رجال البلاط للدفاع عنه أمام السلطان، وحرض أحد طواشي السلطان بمبلغ كبير من المال، وأرسل إليه خنجراً قام الطواشي برشقه في الأرض إلى جانب سرير السلطان بعد أن آوى ذات ليلة إلى فراشه وهو مخمور، وعندما أفاق

السلطان في الصباح ورأى الخنجر ملأه الذعر ولكنه أمر بإبقاء الأمر سرّاً لأنه لم يكن يعرف من يتهمه بذلك، وبعد ذلك أرسل له حسن الصباح رسولاً يحمل الرسالة التالية: " ألا ترى أنني أردت بالسلطان خيراً إذ إن هذا الخنجر الذي غُرس في الأرض الصلبة لم يغرس في صدره الطري". فخاف السلطان ومنذ ذلك الحين مال للسلام معهم، وباختصار امتنع السلطان بسبب هذه الحيلة عن مهاجمتهم مما أدى إلى ازدهار أحوالهم في عهده، فسمح لهم بمنحة مقدارها ٣٠٠٠ دينار من الضرائب التي تحصل عن الأراضي التابعة لهم في إقليم "قميش" كما سمح لهم بفرض رسم صغير على المسافرين الذي يمرون تحت قلعة جيردكوه وهي عادة مستمرة حتى هذا اليوم، وقد اطلعت على عدة فرمانات للسلطان في خزانة كتبهم وفيها يخطب السلطان ودّهم ويثني عليهم ومن ذلك استطعت أن أستنتج إلى أي مدى كان السلطان يتغاضى عن أفعالهم ويرغب في أن يكون على علاقة سلمية معهم، وباختصار فإنهم تمتعوا خلال حكمه بالهدوء والسلام.

وهكذا تحقق للحسن بعض ما كان يصبو إليه، وهو استقلال دولته الذاتي ومنح الحرية التامة للإسماعيلية لممارسة طقوسهم الدينية علناً وأن يستتب الأمن بينه وبين خصومه التقليديين من السلاجقة.

وفاة الحسن الصباح

استطاع الحسن وعلى مدى خمسة وثلاثين عاماً، أن يدير دفة دولة صغيرة منشقة على الحكم السني، وهي دولة من نوع خاص، يتمتع فيها زعيمها قبل كل شيء بصفة القائد الروحي الذي يستند في سلطانه إلى قوة خفية جبارة قوامها جيش من الدعاة المحنكين والفدائيين المتعصبين، الذين يظهرون للناس بأثواب من الزهد والورع، ويهدفون إلى غزو الأذهان والعقول، ويعتمدون على سلاح المؤامرة والغيلة، ويفتحون الطرق أمام تعاليمهم الباطنية بالخناجر المستورة.

وبعد أن ركّز الحسن دعائم دولته وأحكم بناءها، انصرف إلى التأليف والكتابة فدوّن مذكراته، وكتب سيرته بقلمه، ووضع عدة كتب فلسفية ومذهبية واستمر على هذه الحال حتى وافته المنية.

وقد كان مصير هذه الكتب البعثرة والحرق، حينما دخلت جيوش هولاكو خان قلعة آلموت، وقد حفظ لنا المؤلفون السنيون نصين من تأليف الحسن: أحدهما: شذرات من قصة حياته بقلمه، والآخر مختصر لمقال من اللاهوت، تدل كلها على مقدرة الحسن الجدلية وتعمقه المتميز في فهم أصول المذهب الإسماعيلي.

وإذا رجعنا إلى الترجمة الإسماعيلية لحياة الحسن نجدها تركز على زهده وتقشّفه فنقرأ فيها: "طول ٣٥ عاماً عاشها في آلموت لم يجرؤ أحد على شرب الخمر علناً أو وضعه في الجرار". ولم تكن شدة الحسن على خصومه فحسب وإنما على أقرب الأقربين له، فقد أعدم ابنين له، أحدهما لشربه الخمر، والثاني بتهمة التآمر لقتل أحد زعماء الحركة، كما طرد أحد أتباعه من القلعة لأنه كان يتسلّى بالعزف على الناي، وقد اعتاد الحسن أن يشير إلى إعدامه لابنيه ليروع كل من يعتقد أن الحسن يقول ما لا يفعل، وبأن مصلحة الحركة العامة فوق كل اعتبار، وأن تنفيذ تعاليم دستور الحركة قبل كل شيء.

نال الحسن بذلك الزعامة الدينية عن جدارة واستحقاق وأحاطه الإسماعيليون المتأخرون بكل مظاهر القداسة والتبجيل والاحترام البالغ باعتباره أول محرك للدعوة الجديدة أي النظرية الإسماعيلية التي برزت بعد الانشقاق عن القاهرة، وأنه الحجة أي البرهان أو نبع المعرفة للإمام المخبوء في عصره والرابطة الحية بين خط الأئمة الظاهرين في الماضي وفي المستقبل وزعيم الدعوة.

وفي ربيع أول سنة ٥١٨ هـ مرض الحسن مرضاً شديداً، أحسّ منه أن أجله قد حان، بعث إلى كبار الدعاة الذين كان يثق بهم ليعهد إليهم بزمام الدعوة، يقول المؤرخ الجويني: "بعث إلى لاماسار لإحضار برزجميد وعيّنه خليفة له وجعل ديدار أبو علي الأردستاني يجلس على يمينه وكلّفه بشؤون الدعوة، وحسن بن آدم القسراني يجلس على شماله ليتولى شؤون الإدارة، وكيا باجعفر أمامه قائداً للقوات، وكلّفهم بالعمل أربعتهم في اتفاق وتعاون إلى أن يظهر

الإمام المستتر ويتولى شؤون المملكة، وفي ليلة الأربعاء ٦ ربيع ثان عام ٥١٨ هـ انطلقت روحه عائدة إلى نار اللّه وجحيمه".

وكانت تلك نهاية الحسن الصباح بعد حياة مديدة مؤثرة ومليئة بالأحداث، شق خلالها إلى الرئاسة والزعامة طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر، وتمكّن فيه من إرساء دعائم حركة مثيرة، مزودة بأسباب البقاء والاستمرارية، عظيمة القدرة على مواجهة الأحداث الجسام، قادرة على بث الرعب وزرع الهلع في قلوب الناس بأساليبها الدموية ووسائلها الميكيافيلية.

وضعية الحركة بعد رحيل الحسن الصباح

قرر السلطان سنجر بعد موت الحسن الصباح عدم المزيد من التسامح إزاء هذه القوة الخطرة، كما شعر بالثقة المتزايدة بقوته وظنه بضعف الإسماعيليين تحت حاكمهم الجديد فكان أن شنّ السلطان هجوماً على الخلافة الجديدة.

وقد لعب معين الدين كاشي وزير السلطان دوراً هاماً من أجل اتخاذ إجراء قوي وعنيف ضد الخطر الإسماعيلي.

ويتحدث ابن الأثير عن ذلك فيقول: "في هذا العام أعطى الوزير أوامره بالحرب ضد الإسماعيليين لقتلهم حيث ثُقفوا وهزيمتهم ونهب حوائجهم واسترقاق نسائهم وأرسل جيشاً ضد توراي ثيث في (كوهستان) التي كانت في أيديهم وضد بيهق في إقليم نيسابور .. وأرسل قواته ضد كل جزء من ممتلكاتهم بعد أن زودها بالأوامر بأن تقتل كل من تجده من الإسماعيليين".

ويسجل ابن الأثير انتصارين لقوات السطان على الإسماعيلية، الأول: هو الانتصار الذي أحرزته هذه القوات ضد قرية "تاز" الإسماعيلية بالقرب من بيهق، حيث أعمل جنود السلطان السيف في أهلها و لم يسلم منهم إلا القليل، وانتحر زعيم الإسماعيلية في هذه القرية بأن ألقى نفسه من فوق منارة المسجد، أما الانتصار الثاني: فهو الذي أحرزته قوات السلطان على توراي ثيث، ويبدو أن الحملتين لم تسفرا على نتائج واضحة وحاسمة، أما الحملة التي وُجهت إلى

الشمال بقيادة ابن أخ شيركير ضد رودبار، فلم يسعفها الحظ وعادت تجر أذيال الهزيمة، وغنم منها الإسماعيليون غنائم كثيرة.

كما لم يتأخر انتقام الإسماعيليين طويلاً، إذ سرعان ما تمكن الفدائيون من اغتيال الوزير معين الدين الذي كان يعاديهم عداوة لا هوادة فيها، وكان قد تسلل اثنان منهما متخفين في زي سائسي الخيول واستطاعا أن يظهرا الطاعة ويحوزا على ثقة الوزير، و لم يتوانيا عن قتله عندما لاحت لهما الفرصة السانحة.

ويقول عنه ابن الأثير: "إنه فعل أفعالاً حسنة وأظهر عزماً صادقاً في الحرب ضدهم وقد منحه اللّه الشهادة".

وفي نفس العام (٥٢٠هـ) تمكّن مجموعة من الفدائيين من قتل قسيم الدولة "آقسنقر" البرسقي صاحب الموصل وهو يصلّي الجمعة بجامع الموصل، ويذكر المؤرخون أنه رأى في تلك الليلة في المنام أن مجموعة من الكلاب قد هاجمته، فقتل بعضها، ونال منه الباقي، فقصّ رؤياه على أصحابه فأشاروا عليه بعدم الخروج لعدة أيام، ولكنه أبى وقال: لا أترك صلاة الجمعة لشيء أبداً. وأخذ المصحف يقرأ فيه فأول ما وقعت عليه عيناه: ﴿**وكان أمر اللّه قدراً مقدوراً**﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وبينما هو يؤدي الصلاة إذ وثب عليه بضعة عشر من الفدائيين عددهم عدد الكلاب التي رآها في منامه، فطعنوه بخناجرهم، فقُتل بعد أن جرح هو ثلاثة منهم.

وإزاء هذا الخطر المتزايد للحركة، والمواجهة المستميتة لنظام الحكم السلجوقي، والذي بلغ ذروته باغتيال الوزير معين الدين، قام السلطان بشن

أخطر هجوم منذ أن تولّى السلطنة على معقل الحركة الأساسي آلموت، فأهلك خلاله أكثر من عشرة آلاف إسماعيلي.

وبالرغم من فداحة الخسائر في الصف الإسماعيلي، إلا أنهم استطاعوا أن يلتقطوا أنفاسهم وينظموا صفوفهم ويدعموا قواهم وبناء قلعة قوية أسموها "ميموندیز"، كما وسّعوا أملاكهم بالاستيلاء على طالقان، بينما أغارت قوات تابعة لهم في كوهستان على منطقة سيستان.

في سنة ٥٢٣هـ وجد السلطان السلجوقي محمد المقيم في أصفهان أنه لا بد من إجراء مفاوضات بغية عقد صلح يوقف استمرار الحرب بين الطرفين، وبالفعل حضر وفد من آلموت لدراسة مشروع الصلح الذي عرضه السلطان، غير أن عمر هذه المفاوضات لم يستمر طويلاً وانتهت بمقتل الوفد على يد الجماهير انتقاماً من الحركة لأعمالها البشعة وأساليبها الدموية.

ولما لم يقم السلطان بمعاقبة القتلة، وقدم بدلاً من ذلك اعتذار الدولة الرسمي للحركة الشيء الذي لم يقنع بزرجميد وطالب بالقصاص منهم، عندها استعرت المواجهات مرة أخرى ونشط الفدائيون حيث ردّوا بمهاجمة قزوين حيث تقول سجلاتهم إنهم اغتالوا ٤٠٠ شخص وغنموا غنائم كثيرة، وذلك بالرغم من محاولة أهل قزوين التصدي لهذا الهجوم وردّه، إلا أن الإسماعيليين كانوا هم الأقوى.

تعاظم في هذه الفترة نشاط فدائيي الحركة، إذ سقط تحت نصال خناجرهم عدد من الشخصيات الهامة ليس داخل إيران فقط، وإنما أيضاً خارجها في سوريا ومصر، إذ قد نجحت الحركة في اغتيال الخليفة الفاطمي

بمصر الآمر بأحكام الله أبا علي بن المستعلي أثناء عودته من إحدى متنزهاته، وقد سبق أن ذكرنا أنّ الحركة في آلموت لم تكن على وفاق مع خصوم الإمام نزار، لذلك لم تعترف بشرعية الخلفاء الفاطميين بعد الشقاق الذي وقع في صفوف الإسماعيليين، والذي انقسموا على إثره إلى إسماعيلية نزارية، وإسماعيلية مستعلية.

أما من جهة أخرى فقد أدّت وفاة السلطان محمد أن نشب الصراع على خلافته بين إخوته وابنه، وقد استطاع بعض الأمراء أن يورطوا الخليفة العباسي في بغداد "المسترشد" في تحالف ضد السلطان مسعود أحد المتنازعين على الحكم في إيران، وفي سنة ٥٢٩ هـ وقع الخليفة ووزيره وعدد من كبار رجاله في أسر السلطان مسعود بالقرب من همدان، وساق السلطان الخليفة إلى مكان يقال له مراغة، ووضعه تحت الحراسة، ولكن ذلك لم يمنع جماعة كبيرة من الفدائيين من اقتحام المعسكر واغتيال الخليفة " المسترشد" بعد أن كانت الأمور بين الخليفة والسلطان تسير نحو الانفراج والصلح.

أما في آلموت فقد كان لخبر اغتيال الخليفة وقعه، إذ احتفل الإسماعيليون بها سبعة أيام بلياليها وأكرموا الرفاق الذين ارتكبوا هذه الفعلة وسبوا ولعنوا العباسيين وشعاراتهم.

ويمكننا أن نقرر هنا أن الفترة التي قاد فيها بزرجميد حركة الحشاشين كانت فترة خصبة بعمليات الاغتيال، ومقياس الخصوبة هنا كيفي وليس كمي، إذ إن قائمة المغتالين تضم عدداً من الشخصيات الهامة الكبيرة، كالخليفة العباسي، والخليفة الفاطمي وعدداً من الولاة وكبار علماء أهل السنة.

وهناك تغيير آخر طرأ على استراتيجية الحركة بعد رحيل الحسن الصباح يتمثل في هدوء طبيعتها الثورية، ذلك أن بزرجميد كان من مواطني رودبار المحليين و لم يكن أجنبياً عن المنطقة خلافاً للحسن الصباح، كما أنه لم يشارك في تجربة الحسن كداعي سري وإنما أمضى حياته العملية كحاكم إداري، وقد لقبه بهذه الصفة غير الإسماعيليين أيضاً.

وقد استمر بزرجميد يتزعم الدعوة ما يقرب من أربعة عشر عاماً، انتهت بوفاته سنة ٥٣٢هـ وخلفه بعده ابنه محمد.

ويسجل المؤرخ الجويني الحدث بأسلوبه الأنيق قائلاً: "ظل بزرجميد مستوياً على عرش الجهل حاكماً بالخطأ حتى ٢٦ جمادى الأولى عام ٥٣٢هـ عندما سُحق تحت كعب الهلاك وحمي الجحيم بإدام جثته".

حكم محمد بن بزرجميد

ما أن تسلم محمد بن بزرجميد إمامة الحركة حتى سارع في إعداد الكوادر العلمية وتأهيلها تأهيلاً يزيد من قدرتهم على مواجهة الخصوم والناس على السواء، وإقناعهم بالعقيدة الإسماعيلية، فكانوا يدرسون العقائد والفلسفات ومقارنة الأديان وغير ذلك من العلوم.

و لم يكن الاهتمام والعناية موجهين إلى الجانب العلمي فقط، بل لقد نال الجانب العسكري اهتماماً واسعاً من فكر إمام الحركة الجديد، إذ اهتم بتدريب الفدائيين وتثقيفهم، وكان مقرراً عليهم أن يتقنوا عدداً من اللغات الأجنبية

واللهجات المحلية حتى يمكنهم إخفاء شخصياتهم الحقيقية، ويمكنهم من أداء مهامهم على أحسن حال.

وكان أول ضحايا الحكم الجديد عباسي آخر هو الخليفة "الرشيد" ابن وخليفة "المسترشد" الذي اغتاله الحشاشون من قبل، وكان الرشيد مثل أبيه من قبل قد تورط في منازعات مع السلاجقة وخلعته هيئة من القضاة والفقهاء جمعها السلطان، فغادر الرشيد العراق إلى فارس ليلحق بحلفائه، وبينما كان مقيماً بأصفهان للإبلال من مرض أصابه، هاجمه مغتالوه من الفدائيين سنة ٥٣٢هـ، وابتهجت آلموت مرة أخرى بوفاة الخليفة، واعتُبر ذلك أول نصر للحكم الجديد.

والجدير بالذكر هنا أن حاكم آلموت الجديد محمد بن بزرجميد لم يكن يهتم بشؤون الحركة داخل إيران فقط، بل كان على اتصال باجنحة الحركة خارج البلاد، وعلى الأخص بجناح الحركة في سوريا الذي سيلعب بعد ذلك دوراً كبيراً في استمرارية الدعوة الإسماعيلية بعد أن تضعف بإيران.

كما كان الإمام محمد المهتدي يولي الاهتمام نفسه من أجل المحافظة على نفوذ الحركة والتوسع في بسطه، وكان هو الآخر على اتصال بجناح الحركة في سوريا، وقد حفظ لنا التاريخ نص رسالة كان قد بعث بها إلى أعضاء الحركة هناك، يوجههم فيها ويزيد في الصلة بينهم وبين الحركة الأم في إيران.

يقول الإمام محمد المهتدي : "أيها الإخوان الكرام وأهل السلام، أخلصوا إلينا بقلوبكم، وارحلوا إلينا بنفوسكم، إن عهدنا واصل إليكم وقد أمرنا أن يُتلى عليكم فتتلقوه بقلوب صادقة ونفوس طائعة غير آبقة.

وقد أرسلنا إليكم باباً من أبوابنا وداعياً من دعاتنا وهذا العهد يتلوه ويوضحه ولا يخفيه.

إنني أنا المولى محمد بن علي بن نزار، لعن اللّه من أنكر الحق وأخفاه، وقد عهدنا إلى الداعي زيد بن أبي الفرج بن أبي الحسن بن علي أن يوضح الحق حتى ينجلي.

أنا مولاكم محمد بن علي بن نزار من أفاق نوري على النهار.

إخواننا : أطيعوا مولاكم، وحافظوا على محبة إخوانكم، فقد أشرقت الأرض بنور ربها، وقد بان أوان الحق المبين عند انقضاء دور الأربعين وانتهاء مدة السبعين تتمة هذه الخلائق أجمعين وإشراق الأرض بنور اليقين، وسيظهر الحق بكلمته على قلوب العارفين الذين هم على عبادتهم عاكفين ولطاعتنا ملازمين.

وكل ما نريده من مريدنا ومخلصينا أن ينبذوا البغضاء، ويعيشوا باتحاد وتضامن، فمن كان على بيّنة من ربه، ويتلوه شاهد منه، ومن سمع ما أمرناه، وقام بتنفيذ ما فرضناه من عهد قد عهدناه، فوجهنا مصروف إليه ونفوسنا مقبلة عليه. أنا الذي ظهرت بالناسوتية، واختفيت باللاهوتية، أنا شمس اليقين، وقبلة العارفين، ونجاة الطالبين، فمن عرفني فقد نجا، وها قد سمعتم مني بواطن جواهر القدرة الإلهية، وأشرقت عليكم بأنوار عزتي الجبروتية، وأمرتكم بأمر فامتثلوه، وفرضت عليكم عهداً واجباً فاسمعوه، ولا تكونوا لعهدنا ناكثين، ولأوامرنا غير طائعين، لأن الرفيق رب على التحقيق، فمن خلصت نيته لمولاه، وصفت سريرته لإخوانه بالدين، تحدثت روحه بالعالم الروحاني، وتنزهت عما هو فانٍ،

وصارت في دار الكرامة التي لا تتحول، لأنكم إخوان صدق وإيمان وأصحاب نور وبرهان.

وهذه شرائط عشرة وفرائض عسيرة، فمن لزمها نجا، ومن تخلف عنها ضل وغوى، وكانت الجحيم هي المأوى، فما بعد الصبح خفي، ومهما أمركم داعينا فامتثلوه وما أوجب فأطيعوه، أنا مولاكم محمد بن علي بن نزار ... فقد جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً.

وأنزلنا عليكم رحمتنا، وشملتكم عين عنايتنا، واصطفيناكم من بين خليقتنا، وجعلناكم أبناء دعوتنا، فطاعتنا عليكم فرض، وهي نجاتكم ليوم الفصل والعرض.

إن اللّه اصطفى للمؤمنين أنفسهم وأموالهم، بالرضا والتسليم والصبر وحسن اليقين، أعاذنا اللّه وإياكم أيها المؤمنون الموحدون المهتدون ممن كان لعهدنا ناسياً وقلبه عن معرفة مولاه قاسياً.

أيها المؤمنون الموحدون العابدون: اركبوا طريق من كان قبلكم من المريدين الذين كانوا لنا طائعين، وبواجب ما فُرض عليهم قائمين، فهم في روح وريحان وجنات النعيم في مقعد صدق عند مليك مقتدر، يرقى له الجنات، ويشاهد بعينه الرحمات، ويُعرض عليه الحور والولدان، ترابهم السلسبيل، وناديهم الجليل، وساقيهم الخليل، وعن يمينهم إسماعيل، والبشير لهم جبرائيل، وخادمهم عزرائيل، فيا له من مقام محمود، وشاهد ومشهود، وحاضر وموجود، وشقي ومسعود، فعند معاينة الحق المبين، دعينا له خاضعين، وما افترضه علينا سامعين والحمد للّه رب العالمين.. الإمام محمد بن علي بن نزار المستنصر".

إن نص هذه الرسالة يكشف عن رؤية الإمام محمد المهتدي البعيدة المدى، والتي تجاوزت حدود القطر، كما يعني أيضاً دخول الحركة في طور جديد واستراتيجية جديدة، وفي هذه الفترة ركزت الحركة على جانب حيوي لم ينل التركيز والاهتمام الكبير في السابق، إنه الاقتصاد بجوانبه الثلاثة التجارة والزراعة والصناعة، وليس أدل على ذلك من المصانع التي أنشأها الإسماعيليون والخاصة بسك العملة، وتحولت بذلك القلاع والحصون التي كانت بالأمس نقاط انطلاق للهجوم على المدن والقرى، ورؤوس رماح للهجوم على الخلافة السنية إلى أسواق تجارية يؤمها كبار التجار.

أما الكفاح العظيم للقضاء على النظام القديم وإنشاء عصر جديد باسم الإمام الإسماعيلي المستور فقد خبا وتحول إلى مجرد مناوشات على الحدود وإغارات للاستيلاء على قطعان الماشية ولكن هذا لا يعني ردّة كاملة عن الاستراتيجية التي كان ينهجها زعيم الحركة الأول الحسن الصباح، فقد كانت الحركة التجارية يواكبها نشاط دعوي وبث للعقيدة الإسماعيلية والدعوة إليها سراً أثناء الرحلات التجارية في مختلف بلاد العالم الإسلامي، فقد أمكن التبشير بالدعوة الإسماعيلية في مناطق لم يكن من الممكن دخولها لولا قناع التجارة الذي تستر بها الإسماعيلية، وتمكن دعاتها من الدعوة إلى عقيدتهم دون عراقيل أو صعوبات تُذكر.

وكان بين أعضاء الحركة من لا يزالون يذكرون أيام الحسن الصباح العظيمة ويحنون إليها وإلى التفاني والمغامرة اللذين ميزا كفاحه المبكر والعقيدة

الدينية التي أنكتها، وهؤلاء وجدوا ضالتهم في زعيم جديد هو حسن ابن سيد قلعة آلموت محمد وخليفته المنتظر.

وقد كان اهتمام حسن بشؤون الدعوة والحركة منذ صباه المبكر حتى ألمّ بأصول المذهب ونال احترام الجميع، بل وأصبح الفارق واضحاً بينه وبين أبيه كبير الدعاة جعلت أباه يتخذ إجراءً إزاء ابنه ليحد من طموحه ويقطع عليه الطريق إلى زعامة الدعوة والحركة.

يقول مؤرخ إسماعيلي: "إنه عندما اقترب من سن الحكم أبدى رغبته في دراسة وبحث تعاليم حسن الصباح وآبائه (آباء حسن) وأصبح متفوقاً في عرض عقيدتهم وبسبب بلاغة كلماته استطاع أن يكسب الشطر الأكبر من هؤلاء الناس ولما كان أبوه (محمد) يفتقر تماماً لهذا الفن فقد بدا ابنه كأستاذ كبير بالنسبة له مما دفع العامة إلى اتباعه وإذ لم يكونوا قد سمعوا بمثل أقواله من أبيه فقد بدأوا يعتقدون أنه الإمام الذي وعد به حسن الصباح وزاد ارتباط الناس به وسارعوا إلى اتباعه كزعيم لهم".

ولكن محمد بن بزرجميد كان محافظاً في عقيدته الإسماعيلية ويذكر المؤرخون أنه كان متشدداً في المبادئ التي أرساها أبوه وحسن الصباح فيما يتعلق بأسلوب الدعاية للإمام والاحترام الخارجي للفرائض الإسلامية واعتبر أن سلوك ابنه لا يتطابق مع هذه المبادئ، ولذا فإنه استنكره بشدة ودعا الناس وتحدث فيهم قائلاً: "هذا الحسن ابني وأنا لست الإمام ولكني واحد من دعاته وكل من يستمع إلى هذه الأقوال واعتقد فيها كافر ملحد".

ولم يقف عند حد التنديد والتهديد فقط، بل عاقب بعض الذين اعتقدوا في إمامة ابنه بعقوبات بشعة، وكانت حصيلة ذلك أن أعدم ٢٥٠ شخصاً في آلموت ثم ربط جثثهم فوق ظهور ٢٥٠ شخصاً آخرين اتهموا بنفس التهمة، وبهذه الطريقة أثبط همم المنشقين عنه، وأطفأ جذوة حماسهم، وأخمد حركتهم.

ولكن عند وفاة محمد بن بزرجميد رحّب الجميع بحسن خليفة لأبيه، حيث بدأ فوره في إعادة هيكلة الحركة وصياغة تعاليمها.

حكم حسن بن محمد بن بزرجميد

كان حكم حسن للحركة في بدايته مثل أسلافه، خالياً من أي حدث بارز، ولم يميزه سوى بعض التخفيف من الاتباع الحازم للشريعة الذي كان سائداً بين أعضاء الحركة وأنصارها في آلموت.

وبعد فترة تقارب السنتين خرج عن منهج زعماء الحركة السابقين وفاجأ الجميع بإعلانه قيام "العهد الألفي السعيد" أو ما يُسمى بإعلان قيامة القيامة، وكان هذا الإعلان يتضمن مجيء إسلام روحاني خالص متحرر من كل تشريع، ومن كل عبودية للفرائض والقوانين، فهو دين شخصي للقيامة التي هي ولادة روحانية، لأنها تجعل الإنسان يتكشف ويعيش المعنى الروحاني للإيماءات الإلهية، وبلغة سهلة وبسيطة فإن إعلان قيامة القيامة يعني التحلل من الالتزام بالدين، وإسقاط الفرائض، وإباحة كل الملاذ والشهوات.

وأمر حسن بعد ذلك بتغيير اتجاه القبلة، فكانت ظهور الحاضرين في قلعة آلموت إلى مكة.

وكان لهذا الحدث وقعه في الأوساط الإسماعيلية إذ أقاموا الاحتفالات في مختلف المناطق التي تقع تحت سيطرتهم ابتهاجاً بانتهاء عهد الالتزام بقواعد الشريعة وفرائضها، وقد حفظ لنا الأدب الإسماعيلي اللاحق ذكر ما حدث، وتتفق المصادر جميعاً على سرد قصة غريبة: "ففي اليوم السابع عشر من شهر رمضان من عام ٥٥٩هـ تحت صعود العذراء وعندما كانت الشمس في برج السرطان أمر حسن بإقامة منبر في فناء آلموت يواجه الغرب ترفرف على أركانه الأربعة رايات أربع كبيرة بيضاء وحمراء وصفراء وخضراء ... وجاء الناس من مختلف الجهات وكان قد استدعاهم من قبل إلى آلموت، وتجمعوا في الفناء، فالذين أقبلوا من الشرق لزموا الجانب الأيمن، والذين جاءوا من الغرب على الجانب الأيسر، والذين جاءوا من الشمال، من رودبار والديلم، وقفوا في مواجهة المنبر، ولما كان المنبر يواجه الغرب لذلك كانت ظهور المجتمعين نحو مكة .. وبعد قرابة الظهر نزل السيد حسن على ذكره السلام من القلعة مرتدياً ثوباً أبيض وعمامة بيضاء، وتقدم نحو المنبر من الجانب الأيمن، وارتقاه في خطىً وئيدة، وتوجه بالتحية ثلاث مرات، الأولى إلى أهل الديلم ثم إلى الذين على اليمين ثمّ إلى الذين على اليسار، وظل جالساً برهة ثم وقف مرة أخرى وهو ممسك بسيفه، وتحدث بصوت جهوري مخاطباً سكان العوالم الثلاثة، عالم الجن وعالم الإنس وعالم الملائكة، فأعلن أنه قد وصلته رسالة من الإمام المختفي تحمل تعليمات جديدة تقول: إن إمام عصرنا يبعث إليكم تحياته وسلامه ويبلغكم أنه دعاكم خدمه الخصوصيين المختارين، وأنه حرركم من أعباء قواعد الشريعة وأحضركم إلى القيامة، وبالإضافة إلى ذلك فقد قضى الإمام بتعيين حسن بن محمد بن بزرجميد وكيلاً له وداعية وحجة، وعلى حزبنا أن يطيعوه ويتبعوه في

شؤونهم الدينية والدنيوية وأن يعتبروا أوامره ملزمة ويعرفوا أن كلمته هي كلمتنا".

وعندما أتم خطبته صلّى ركعتين أسماهما صلاة الاحتفال ثم دعا الناس إلى قطع صيامهم والمشاركة في الطعام والابتهاج، وبعث الرسل يحملون هذه التعاليم الجديدة شرقاً وغرباً، واحتفل جميع أجنحة الحركة بانتهاء الشريعة.

إن الانتهاك الصارخ للشريعة على هذا النحو يمثل الحد المتطرف من اتجاه الإيمان بالعصر الألفي السعيد، وهو ما يعني أن الدين قد استوفى غرضه، وبذلك انتهى حكمه، فالأسرار قد كُشفت، والإمام قد أظهر رحمته وعفوه، فهو إذ جعل المؤمنين خدمه المختارين الخصوصيين قد حفظهم من الخطيئة، وبإعلانه القيامة قد وقاهم من الموت ونقلهم أحياء إلى الفردوس الروحي، وهو معرفة الحقيقة والتأمل في جوهر اللّه المقدس، ويعلق الجويني على ذلك فيقول:

"إن جوهر هذه العقيدة الضالة يكمن في اتباع أقوال الفلاسفة الذي يقولون بأن العالم غير مخلوق، والدهر غير محدود، والقيامة روحية، وهم يفسرون الجنة والنار تفسيراً رمزياً على نحو يعطي هذه المفاهيم معنىً روحياً فحسب، فيقولون إن القيامة تكون عندما يصل الخلق إلى الخالق، وتُكشف كل أسرار الخليقة وحقائقها، فتُلغى أفعال الطاعة، لأنه في هذه الدنيا توجد أفعال ولا يوجد حساب، أما في الآخرة فيوجد حساب ولا توجد أفعال، وهذه هي القيامة الروحية الموعودة والمنتظرة في كل الأديان والمعتقدات، وقد كشف عنها حسن بن محمد بن بزرجميد، وكنتيجة لها أعفى الناس من الواجبات التي تفرضها عليهم الشريعة، لأنهم في فترة القيامة هذه يجب أن يتجهوا بكل

جوارحهم إلى اللّـه ويتخلوا عن شعائر الدين وما اعتادوه من عبادات، إن الشريعة تقول إن على الناس أن يقيموا خمس صلوات في اليوم كي يكونوا مع اللّه، ولكن هذا التكليف رسمي فحسب، ففي القيامة الروحية ينبغي على الناس أن يكونوا دائماً مع اللّه في قلوبهم ويتجهوا بأرواحهم دوماً نحو حضرته القدسية لأن هذه هي الصلاة الحقة".

ويضيف المؤرخ رشيد الدين إلى ذلك: "أنه بعد أن أعلن حسن قيامته، ووزع مكاتيب يقول فيها إنه وإن كان من الناحية الظاهرية يُعرف كحفيد لبزرجميد، إلا أنه في الحقيقة الخفية إمام العصر وابن الإمام السابق من نسل نزار....".

هذا النظام الديني الجديد قبله معظم الإسماعيليين، وحافظت القلة منهم على تمسكها بمبادئ الشريعة والالتزام بقواعدها، فاتخذ الحسن ضدها إجراءات وعقوبات تعسفية، يقول المؤرخ رشيد الدين: "إن حسن أوضح ضمناً وصراحة أنه كما أن في زمن الشريعة إذا لم يبد إنسان ما طاعة وعبادة واتبع قاعدة القيامة بأن الطاعة والعبادة روحيتان فإنه يعاقب ويرجم ويقتل كذلك فإن في زمن القيامة إذا التزم إنسان بحرفية الشريعة وأصر على الطقوس والعبادة البدنية فإنه يعاقب ويرجم ويقتل".

وكان من بين الذين لم يقبلوا هذا الإعلان وأعلنوا التمرد إزاءه صهر حسن وهو سليل أسرة ديليمية نبيلة ويصفه المؤرخ الجويني بأنه: "كان واحداً ممن بقي في قلوبهم ظل من الطاعة والدين، هذا الرجل لم يستطع أن يتحمل انتشار هذه الأخطاء المخزية، فليرحمه اللّه ويجازيه بحسن قصده، وفي يوم الأحد

٦ ربيع الأول عام ٥٦١هـ طُعن حسن بخنجر أثناء وجوده في قلعة لاماسار فرحل عن هذا العالم إلى نار اللّه المؤقدة".

حكم أعلى محمد

تولى الإمامة بعد حسن ابنه أعلى محمد وذلك في سنة ٥٦١هـ، وتشير الروايات إلى أنه تولى الإمامة وهو في التاسعة عشرة من عمره، وظل متابعاً لأبيه في آرائه، كما استمر في تأكيد إعلان قيامة القيامة، وخلال فترة حكمه الطويل أدخل بعض التطوير على نظرية القيامة [1] وعمل على تأسيسها عقائدياً وتثبيتها في نفوس الأتباع، وقد ساعده في ذلك سعة اطلاعه، وتعمقه الكبير في العقائد والفلسفات على وجه الخصوص.

أما على الصعيد السياسي والعسكري فلم تشهد فترة حكمه أحداثاً بارزة، باستثناء الإغارات التي كان يشنها الحشاشون على القرى المجاورة لهم، وقتل الفدائيين لأحد وزراء الخليفة في بغداد، وهو شيء محدود بالقياس بعهود حكام آلموت السابقين كحسن الصباح وبزرجميد وغيرهما.

حكم جلال الدين حسن

توفي أعلى محمد سنة ٦٠٧هـ وانتقلت إمامة الحركة إلى ابنه جلال الدين حسن، وكان قد عهد إليه أبوه بولاية العهد منذ وقت مبكر، مما أشعره

---

(١) ويبدو أن هذه النظرية لم يكن لها تأثير ملحوظ على العالم الخارجي، فما له دلالة خاصة أن كل فترة القيامة في قلعة آلموت مرت دون أن يذكرها أحد من مؤرخي السنة، ولم تُعرف وتُذاع إلا بعد دمار آلموت ووقوع كتابات الإسماعيليين في أيدي علماء ومؤرخي السنة.

بالمسؤولية، فكان يبذل قصارى جهده للإحاطة بأصول المذهب والتعمق فيه، كما كان منفتحاً على المذاهب الأخرى وخاصة السنية منها، ويبدو أن أمّه التي كانت على عقيدة أهل السنة استطاعت أن تلعب دوراً لا يُستهان به في تكوين جلال الدين الفكري والديني عموماً.

وظهر أثر ذلك في عدم رضا الابن عن نظريات وممارسات "القيامة" التي كان قد أعلنها أبوه، كما أبدى رغبة في قبول الأخوة الإسلامية بمعناها الواسع، يقول الجويني: "إنه منذ صغره عيّنه أبوه كخليفة له، ولما شبّ ظهرت عليه دلائل النجابة ورفض عقائد أبيه وشعر بالاستياء من عادات الكفر والانحلال، ولما أحس أبوه بمشاعره دبّت بينهما العداوة وأصبح كل منهما يكره الآخر ولا يثق فيه ... والآن أقدم جلال الدين حسن على التآمر ضد أبيه وبعث سرّاً برسائل إلى الخليفة في بغداد وسلاطين وحكام البلاد الأخرى يبلغهم فيها أنه على العكس من أبيه يؤمن بالإسلام وعندما يأتي دوره في الحكم سوف يلغي الكفر ويعيد اعتناق الإسلام ...".

وما أن تسلم جلال الدين إمامة الحركة الدعوية والروحية حتى جاهر بإسلامه وحاول القضاء على الإلحاد الذي ساد بين أبناء الحركة وحظر عليهم مواصلة ما هم فيه وحثهم على اعتناق الإسلام والالتزام بأحكام شريعته، وألغى القيامة وأعاد الشريعة بمرسوم لا يقل جرأة واكتساحاً عن المرسوم الذي أعلنت به.

هذه التغييرات التي طرأت فجأة على نهج الحركة كان لها الصدى الواسع في مختلف أصقاع العالم الإسلامي، وبارك أصحاب القرار فيها هذه العودة إلى

الدين، وحصل جلال الدين من وراء ذلك على الرضا والقبول بعضويته داخل الجماعة الإسلامية الأم، وصدر على إثر ذلك مرسوم يؤكد اعتناقه الإسلام، وعومل بكل تقدير واحترام وخوطب في المراسلات بألقاب الشرف وأصبح يُعرف باسم جلال الدين المسلم الجديد، وأصبح أتباعه يُعرفون في عصره بالمسلمين الجدد.

أما في المناطق المجاورة لقلعة آلموت فقد أبدى علماؤها مخاوف بشان إسلامه وتحفظوا في العلاقة معه، لكنّ جلال الدين قدّم لهم الدليل تلو الدليل ليقنعهم بصحة إسلامه، وإخلاصه في دينه، حتى أنه دعا العلماء لفحص مكتبة القلعة وإتلاف كل ماهو مخالف لعقيدة أهل السنة والجماعة.

يقول الجويني: "إن جلال الدين أمر بهذه الكتب فأحرقت في حضور أهل قزوين وبإرشادهم وصبّ الشتائم واللعنات على آبائه ومؤلفي هذه الكتب، وقد شاهدت بنفسي خطاباً في أيدي أعيان قزوين وقضاتها كان قد أملاه جلال الدين وأعلن فيه اعتناق الإسلام وقبوله فرائض الشريعة وبراءته من كفر آبائه وأسلافه ومعتقداتهم وقد كتب عليه جلال الدين بخط يده بضع كلمات تؤكد تخليه عن ديانتهم، وعندما كان يذكر أسماء آبائه وأسلافه يضيف قائلاً: "فليملأ اللّه قبورهم بالنار" أو "فلينزلهم اللّه منازل الجحيم".

وزاد جلال الدين من تأكيد روابط الصلة بعقده تحالفات عسكرية مع بعض الأمراء في ظل الولاء للخليفة العباسي، وكانت خناجر فدائييه، قد أطاحت برأس "شريف مكة" أحد وزراء السلطان خوارزمشاه المعارضين للخليفة العباسي، مما زاد من دعم هذا الأخير لجلال الدين. وأمر آخر يؤكد قوة

هذه الصلات التي كانت بينه وبين الخليفة وأمرائه على الأقاليم، أن جلال الدين قد قام برحلة خارج آلموت ولمدة سنة ونصف زار خلالها العديد من الأقطار التي تقع تحت نفوذ الخلافة العباسية، وهو الشيء الذي لم يحدث من زعماء الحركة من قبل، وكان جلال الدين خلال جولاته كلها يلاقي الاحترام والتقدير اللائقين، لا بوصف كزعيم لحركة الحشاشين بل كأمير من أمراء الإسلام.

وفي عام ٦٠٩هـ أرسل جلال الدين أمّه لأداء مناسك الحج، وعندما مرّت بعاصمة الخلافة الإسلامية ببغداد، لاقت ترحيباً وتقديراً منقطعي النظير من الخليفة العباسي.

ولم تقف جهود جلال الدين في إثبات صدق إسلامه، وحسن سيرته مع جيرانه عند هذا الحد، بل يساهم في تمويل المشاريع الخيرية، وبناء المساجد والتكايا، وغير ذلك من الخدمات العامة، واكتسب بذلك مكانة في قلوب الجماهير واستطاع أن يضيق الفجوة بين الجماهير والحركة، ليحول قلعته من وكر للقتلة إلى مملكة محترمة تربطها روابط التحالف وحسن الجوار بأبناء المنطقة كلها.

وبهذه السلسلة من الأعمال الخيرية التي أكدت حرصه وتفانيه في جمع الكلمة، ووحدة الصف المسلم، قدم الخليفة مساعدة لجلال الدين من نوع مختلف حيث وافق على زواجه من أربع أميرات من جيلان، يكون لإحداهن حق إنجاب الإمام اللاحق للحركة.

يقول الجويني: "... فإن جلال الدين بعد أن أقام عاماً ونصف العام في العراق وإيران وأذربيجان عاد إلى آلموت، وخلال رحلاته وإقامته في هذه البلاد

ازداد قبول المسلمين له كمسلم واصبح في مكنته أن يختلط بهم بحرية وشجّعه هذا أن يطلب من أمراء جيلان أيدي بناتهم للزواج".

وصاحب هذا التحول الجديد للحركة اكتساح جنكيزخان لدول العالم الإسلامي، ويقال إن جلال الدين انطلاقاً من حرصه على الاستقرار والسلام واستتباب الأمن في المنطقة، سارع إلى محاولة كسب جنكيزخان وعقد معاهدة سلام معه، بدل التصدي لقواته الجرارة.

ويقول الجويني بشأن هذا السلام الذي كان ينوي جلال الدين عقده مع جنكيزخان ما يلي: "ويقول الإسماعيليون إنه قبل أن يخرج الخان الأكبر جنكيزخان من تركستان إلى ديار الإسلام أوفد إليه جلال الدين سراً مبعوثين يحملون خطابات مكتوبة تعبر عن خضوعه له وولائه، هذا ما يقوله الملاحدة، ولا أعرف مدى صحته، ولكن من الواضح أنه عندما دخلت جيوش جنكيزخان بلاد المسلمين كان أول حاكم يرسل إليه السفراء ويقدم الهدايا ويقبل الولاء هو جلال الدين".

وبعد حكم دام عشر سنوات مات جلال الدين متأثراً بمرض "الدوسنتاريا" وبالتحديد في سنة ٦١٨هـ، وقامت الشبهات بأنه سُمّم من طرف زوجاته وأخته وبعض أقاربه، وأقدم على إثر ذلك وزيره ووصيه على ابنه علاء الدين بقتل الكثير من أقارب جلال الدين بما فيهم زوجاته وأخته.

وبذلك انتهى عهد جلال الدين الذي أعاد احترام الشعائر الدينية ونبذ معتقدات أسلافه الفاسدة وتصالح مع الخلافة وأهل السنة، وأعاد قومه إلى طريق الإسلام الصحيح.

حكم علاء الدين محمود

بعد وفاة جلال الدين حسن خلفه ابنه علاء الدين في إمامة الحركة، وهو لم يتجاوز بعد العاشرة من عمره، ولذا كان وزير أبيه والوصي عليه هو الحاكم الفعلي لآلموت والمسؤول الأول عن تسيير شؤون الحركة.

وحينما أخذ علاء الدين زمام الحركة بيده سلك في البداية مسلك أبيه في حكم الحركة، وحافظ على سياسة الوفاق مع العالم السني، غير أن رياح رد الفعل بدأت تتجمع في الأفق، وفق ما تشير إليه المصادر السنية، إذ لم يعد احترام الشريعة يُفرض في الممتلكات الإسماعيلية، وتصف علاء الدين بأنه كان مستهتراً وفاشلاً في إدارة الحركة داخلياً وخارجياً، وأدّى ضعفه ولا مبالاته إلى عودة الكثير من أتباع الحركة إلى الحياة وفقاً لمبادئ القيامة، وانتشرت عمليات الاغتصاب والاعتداء في المناطق المجاورة للقلعة.

يقول المؤرخ الجويني ما حاصله: "والآن كان علاء الدين صبياً لم يتلق قدراً من التعليم، وهم (الإسماعيليون) طبقاً لمعتقداتهم الفاسدة يرون أن الإمام معصوم سواء كان طفلاً أو شاباً أو شيخاً وكل ما يقوله أو يفعله صحيح ... وطبقاً لذلك فإن أحداً لم يكن يجرؤ أن يعترض على أي طريق يسلكه علاء الدين و لم يسمحوا لأحد بأن يؤدبه أو ينصحه أو يهديه إلى الصواب، فوقعت مقاليد الأمور في أيدي النساء، وأطيح بالأسس التي أرساها أبوه، وهؤلاء الذين كانوا خوفاً من أبيه يظهرون احترام الشريعة والإسلام ولكنهم يضمرون في قلوبهم الغافية وأذهانهم المظلمة الإيمان بالعقيدة المأفونة التي جاء بها جده ... هؤلاء وقد رأوا الآن أن أحداً لا يمنعهم ولا يحول دونهم وارتكاب الخطايا

الممنوعة ... عادوا مرة أخرى إلى إلحادهم واستعادوا قوتهم، أما الآخرون الذين قبلوا الإسلام عن اقتناع فقد خافوا وعادوا إلى إخفاء حقيقة أنهم مسلمون ... وبعد أن حكم هذا الصبي زهاء خمس أو ست سنوات أصابته لوثة عقلية، ولكنّ أحداً لم يجرؤ على معارضته، وأخفيت عنه كل شؤون مملكته في الداخل والخارج، ولم يجرؤ مستشار واحد أن ينطق بكلمة أمامه، وأصبحت السرقة وقطع الطريق والاعتداءات حوادث يومية شائعة في مملكته سواء بعلمه أو بغير علمه، وقد ظن أن في إمكانه أن يصفح عن هذا السلوك مقابل كلمات زائفة أو منح المال، وعندما تجاوزت هذه الأشياء كل الحدود خسر حياته وزوجاته وأبناءه وبيته ومملكته وثروته بسبب هذا الخبل والجنون".

أما من وجهة نظر الإسماعيلية فإن الحركة شهدت تطوراً على الصعيدين السياسي والعلمي خاصة، حيث اهتم بالمكتبة الإسماعيلية في القلعة اهتماماً كبيراً، حتى صارت تضاهي المكتبات الكبيرة في ذلك الوقت، وأمّها الدارسون والباحثون من كل فج، حتى إن الجويني على عدائه الشديد للحركة يعترف بإعجابه بها، كما كسبت الحركة أنصاراً جدداً في مناطق متفرقة من البلاد نتيجة هذا النشاط الدعائي المكثف، بل وتعدى ذلك إلى خارج الدولة حيث أحرز أنصار الإسماعيلية انتصاراً فكرياً باهراً حينما استطاعوا تحويل خصومهم التقليديين من الطائفة المستعلية في الهند إلى جانبهم.

أما على الصعيد السياسي والعسكري فإن المواجهة مع السلطات الخوارزمية لم تهدأ، إذ شنت هذه الأخيرة هجمات على قرى إسماعيلية فقتلت ما طالت يدها من أتباع الإسماعيلية كما دمّرت بعض ممتلكاتهم وحصونهم.

وردّت الحركة على هذه الاعتداءات المتوالية باغتيال قائد الهجوم أورخان، كما انتهزت الحركة فرصة انشغال السلطان الخوارزمي بتنظيم صفوف جيشه الذي كان قد انكسر في حربه مع التتار فاستولت على مدينة دمغان وضواحيها.

ولكن سرعان ما تقارب الطرفان وعقدا صلحاً تقوم الحركة بموجبه بدفع الجزية للسلطان الخوارزمي مقابل سيطرتها على المدينة.

كما أن الحركة من جهتها قد نجحت في استمالة بعض رجال السلطان الذين بسطت من خلالهم نفوذها في البلاط، وأصبحوا عيونها الساهرة على مجرى الأمور في سلطنة الخوارزمي، وكان أبرز هؤلاء وزير السلطان شرف الملك، والمؤرخ محمد ابن أحمد السنوي، **حيث سيطرت الحركة على الأول بالتهديد بالقتل، وعلى الثاني عن طريق إغرائه بالمال وإغداق الهدايا والمنح عليه.**

ولم يدم اتفاق الهدنة بين السلطان الخوارزمي والإسماعيليين طويلاً، فعاد الطرفان إلى المواجهة من جديد، ولكن هذه المرة كانت المواجهة شديدة الأثر على الحشاشين حيث لجأوا إلى العدوين الرئيسيين للخوارزميين وهما الخليفة العباسي والمغول، فأقاموا علاقات ود معهم من أجل الوقوف أمام هجمات الخوارزميين وصد عدوانهم على مدن وقرى الإسماعيلية.

حكم ركن الدين خورشاه

ركن الدين خورشاه هو الأبن الأكبر لعلاء الدين، وكان قد عيّنه ولياً للعهد وخليفة له وهو لا يزال في ريعان الطفولة، وفي السنوات الأخيرة من

وردّت الحركة على هذه الاعتداءات المتوالية باغتيال قائد الهجوم أورخان، كما انتهزت الحركة فرصة انشغال السلطان الخوارزمي بتنظيم صفوف جيشه الذي كان قد انكسر في حربه مع التتار فاستولت على مدينة دمغان وضواحيها.

ولكن سرعان ما تقارب الطرفان وعقدا صلحاً تقوم الحركة بموجبه بدفع الجزية للسلطان الخوارزمي مقابل سيطرتها على المدينة.

كما أن الحركة من جهتها قد نجحت في استمالة بعض رجال السلطان الذين بسطت من خلالهم نفوذها في البلاط، وأصبحوا عيونها الساهرة على مجرى الأمور في سلطنة الخوارزمي، وكان أبرز هؤلاء وزير السلطان شرف الملك، والمؤرخ محمد ابن أحمد السنوي، **حيث سيطرت الحركة على الأول بالتهديد بالقتل، وعلى الثاني عن طريق إغرائه بالمال وإغداق الهدايا والمنح عليه.**

ولم يدم اتفاق الهدنة بين السلطان الخوارزمي والإسماعيليين طويلاً، فعاد الطرفان إلى المواجهة من جديد، ولكن هذه المرة كانت المواجهة شديدة الأثر على الحشاشين حيث لجأوا إلى العدوين الرئيسيين للخوارزميين وهما الخليفة العباسي والمغول، فأقاموا علاقات ود معهم من أجل الوقوف أمام هجمات الخوارزميين وصد عدوانهم على مدن وقرى الإسماعيلية.

حكم ركن الدين خورشاه

ركن الدين خورشاه هو الأبن الأكبر لعلاء الدين، وكان قد عيّنه ولياً للعهد وخليفة له وهو لا يزال في ريعان الطفولة، وفي السنوات الأخيرة من

حكم علاء الدين دارت خصومة بينه وبين ابنه، وتفاقم الصراع بينهما حتى قرر الأب أن يُلغي تعيينه لركن الدين كولي للعهد، ويجعل بدله أحد أبنائه الآخرين، غير أن الإسماعيليين كما يقول الجويني: "تمسّكاً بمعتقداتهم رفضوا أن يقبلوا ذلك وقالوا إن التعيين الأول وحده هو الصحيح".

وأمام تفجر الصراع بين الإمام وابنه، قرر هذا الأخير أن يرحل عن آلموت ويدبر أموره بعيداً عن أبيه الذي أصبح لا يأمن جانبه.

يقول الجويني: "ازداد جنون علاء الدين سوءً وزاد سخطه على ركن الدين ... وشعر ركن الدين أن حياته غير آمنة ... وعلى هذا الأساس دبّر أن يهرب من وجهه ويذهب إلى قلاع سوريا ويستولي عليها أو أن يستولي على آلموت ومايموندين وغيرهما من قلاع رودبار المليئة بالكنوز والمؤن ... ويثور على أبيه ... واستطاع ركن الدين أن يجد حجة يستخدمها كطعم للحصول على مناصريه فكان يقول: إنه بسبب السلوك الشرير لأبي فإن جيش المغول ينوي مهاجمة هذه المملكة، وأبي لا يهتم بشيء، ولذلك فإنني سوف أنشق عليه ... وسوف لا أسمح لأحد في مملكتي بأن يرتكب عملاً شريراً وبذلك أضمن سلامة الأرض والناس".

ولم تكد تمضي مدة على هذا الخيار الرهيب الذي اتخذه ركن الدين إزاء والده حتى أقعده المرض ولزم الفراش لفترة، وفي هذا الأثناء اغتيل والده من طرف أحد مقربيه وكاتمي أسراره "حسن المازندارني" وتم إعدام هذا الأخير وإحراق جثته.

الحشاشون والتتار .... وجهاً لوجه

أمام زحف التتار المتواصل على البلاد الإسلامية، لم يجد حاكم آلموت في وقته "جلال الدين حسن" إلا المهادنة، لأن الوقوف في وجه التتار كان يعني الإبادة والفناء، فاختار أن يواليهم وبعث يعرض ذلك على قائد التتار، ولكن ابنه "علاء الدين" الذي خلفه في زعامة الحركة انحاز إلى جيرانه السنة، واقترب الإسماعيليون أكثر فأكثر من المواجهة النهائية مع التتار، ثم جاء ركن الدين خورشاه فحاول إرساء السلام بينه وبين الجميع، فركّز أولاً على حسن الجوار مع مختلف طوائف المسلمين، كما حاول كسب تسامح التتار لكن دون فائدة، ذلك أن التتار كانوا يدركون حجم الخطر الذي تشكله هذه الجماعة القتالية الخطرة من ذوي العقيدة، فلم يكونوا يرغبون في التسامح إزاء استمرار استقلاليتها.

وقد شنت جيوش التتار على إثر ذلك هجمات على مختلف القواعد الإسماعيلية بقصد تدمير القلاع التي يتمركز فيها مقاتلو الحركة.

تمكّنت الإسماعيلية في البداية من صدّ هذه الهجمات، وأبدوا صلابة في الاستماتة أمام التتار والدفاع عن القلاع والحصون، لكن أمام الهجمات المتوالية للتتار قرر ركن الدين أن يثبت حسن نيته تجاههم ويقدم خضوعه وولاءه إلى هولاكو شخصياً، نقرأ ذلك في الرسالة التي بعث بها إلى أحد أمراء هولاكو في

المنطقة والتي يخبره فيها: "بأنه قد جاء إلى الحكم يريد أن يتبع طريق الخضوع ويزيل غبار النفور عن ملامح الولاء".

وكدليل على هذا الولاء بعث بأخيه شاهنشاه إلى هولاكو، غير أن هذا الأخير، لم يكتف بهذه السفارة، وأمر مبعوثه أن يخبر ركن الدين بأن ولاءه وحسن نيته في أن يدمر قلاعه ويحضر بنفسه إلى هولاكو ليقدم الطاعة والخضوع.

حاول ركن الدين أن يساير هولاكو في ما طلبه فقدم بعض التنازلات المتمثلة في هدم بعض قلاع الحركة كما أمر قواده بأن يقدموا أنفسهم إلى الملك ويعبروا له عن ولائهم وطاعتهم، ولكن قائد التتار لم يكتف بهذا وأمهل ركن الدين بعض الوقت ليدبر أمره ويحضر إليه بشخصه، ومن ناحية أخرى لم تتوقف جيوش التتار عن التوغل في عمق الأراضي الإسماعيلية ونحو القلاع الحصينة، فقامت بمحاصرتها وأشرف هولاكو بنفسه على هذا الحصار.

وأمام هذا الوضع انقسم الإسماعيلية حيال الأحداث التي تجري إلى فريقين: **الأول** يرى أن من الأحكم الاستسلام والحصول على أحسن الشروط الممكنة من التتار، **والفريق الثاني** فضّلوا المقاومة والدفاع عن القلاع حتى النهاية، وكان ركن الدين نفسه يميل إلى الاستسلام وقد كان لديه الاستعداد لذلك، وقد حاول من أجل ذلك كثيراً لكنه لم يوفق.

استسلم ركن الدين لهولاكو وذهب إليه بنفسه، ولاقى ترحيباً وتكريماً فاقا كل التوقعات، لكن كان لحسن الاستقبال هذا ما يبرره، إذ كانت قلاع إسماعيلية أبدت مقاومة من شأنها أن تحدث متاعب كثيرة لجيش التتار، لذلك كان هولاكو يصحب معه ركن الدين في كل حملاته للتأثير على أهل القلاع

وإقناعهم بالاستسلام، مما يوفر على التتار مشقة كبيرة ونفقات باهظة، واستطاع التتار هزيمة المعتصمين بالقلاع والسيطرة عليها، والقضاء على عمليات المقاومة الإسماعيلية.

وبعد القضاء على المقاومة لم يعد لركن الدين قيمة عند المغول، وهكذا أرسلت الأوامر إلى قواد التتار في قزوين بقتل كل أعضاء أسرته، أما هو فقد قام برحلة إلى الخان الأكبر حاكم المغول لطلب العفو، لكن الخان الأكبر رفض مقابلته وقال: "لم يكن هنالك داع لأن يقوم بهذه الرحلة الطويلة لأن قوانيننا معروفة جيداً"، وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه أثناء عودته إلى بلاد فارس، ويصور الجويني مصرعه كما يلي: "لقد أحيط به وبأتباعه وأعمل فيهم السيف، ولم يتخلف عنهم أي أثر وأصبحوا حكاية على ألسنة الناس وعبرة في فم الزمن".

وبهذا خسر الإسماعيلية قضيتهم، ومُزِّقوا كل ممزق، ويصور الجويني دمارهم وذلهم تصويراً دقيقاً وقوياً فيقول: "في أرض الكفر حيث قلعة آلموت برودبار التي عاش فيها زمناً أنصار حسن الصباح الأشرار، لم تتخلف من منازلهم طوبة فوق طوبة، لقد خطت يد القدر بقلم الدمار على واجهة بيوتهم الآية الكريم ﴿**فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون**﴾ [النمل: ٥٢]. وفي خرائب سوق تلك المملكة البائسة ارتفع صوت المؤذن صائحاً ﴿**فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظالمين**﴾ [المؤمنون: ٤١].

ودخلت الحركة بذلك في دور ستر جديد مغرق في السرية والتخفي، وانتشروا في بعض البقاع الأسيوية كالهند وزنزبار وشمالي فارس ويُعرفون الآن باسم الخوجات أو المولوية أو الآغاخانية، نسبة إلى أسرة "آغا خان" الأسرة الأخيرة المعاصرة.

نشاط الحركة إقليمياً

لقد ظهرت "الدعوة الجديدة" أول ما ظهرت في إيران، وأحرزت أول نجاح كبير لها في المناطق ذات الثقافة واللغة الإيرانيتين، وكان مؤسس الحركة الأول حسن الصباخ يطمع في أن يصلح الوضع المتأزم في البيت الفاطمي ويعيد الأمور إلى نصابها، وذلك بأن يعتلي العرش الفاطمي الإمام نزار الذي كان يؤيده الحسن، وأمام تفاقم الصراع على الخلافة الفاطمية ومن ثم الزعامة الدينية للحركة الإسماعيلية نشط الحسن في أن يجد له مكاناً ونفوذاً في مصر.

ومن ثم برزت سوريا كأوضح اختيار أمام الحشاشين حتى يلعبوا الدور المطلوب منهم وهو رد الحق المغتصب من إمامهم.

وقد اختار الحشاشون سوريا لنشاط الحركة الإقليمي لنفس الأسباب التي جعلتهم يختارون الأماكن الجبلية الوعرة من قبل إيران.

لقد كانت سوريا تمتاز بتركيبة جغرافية متميزة، حيث البلاد تتخللها جبال ووديان وصحاري تحوي سكاناً يتباينون فيما بينهم تبايناً شاسعاً ولديهم نزعة قوية للاستقلال، وبعضهم أصحاب نزعة شيعية متطرفة.

ولقد كانت هذه الطوائف بالرغم من تباينها، إلا أن بعضها كان شديد القرب من النظرية والمظهر، الشيء الذي هيأ للحركة العمل بحرية أكثر، وجعل من تلك البلاد أرضاً خصبة لدعاية المبعوثين من آلموت.

وهكذا كان الزمان والمكان مناسبين للدعوة الإسماعيلية ومبشرّين بالخير لها.

في هذه الفترة كانت سوريا تشهد تحولات سياسية كبيرة، فقد دخلت الجيوش السلجوقية سوريا، وبرزت نزعة التمزق الإقليمي فيها مع تقاليد الصراع على العرش، وأثناء هذه الفترة من الفوضى والصراع المتزايد برزت قوة الصليبيين الذين قدموا من أنطاكية في الشمال، وتمكنوا من التغلغل على الشريط الساحلي وأنشأوا أربع ولايات صليبية دون أي مقاومة رسمية لهم.

كل ذلك ضاعف من هموم السوريين وأدى إلى كثير من التوترات والمشاكل الاجتماعية وجعلهم أكثر استعداداً للترحيب بحملة رسالةٍ تبشر بالأمل لا سيما هؤلاء الذين أعدتهم معتقداتهم القائمة لقبول مثل هذه الرسالة.

وكان الحشاشون الأمل والقوة الجديدة التي أبدت نشاطاً وميلاً للقتال، والتف حولها الناس باعتبارها وحدها القادرة على تهيئة التصدي الفعال للغزاة القادمين من الخارج والحكام القابعين في الداخل.

الاستراتيجية السياسية والعسكرية

لحركة الحشاشين في سوريا

استراتيجية الحشاشين في سوريا لا تختلف عن استراتيجيتهم في فارس، حيث تعتمد على نفس الوسائل من أجل تحقيق نفس النتائج.

واستغلالاً للوضع القائم الذي كان يتسم بالفوضى الاجتماعية التي أدى إليها دخول السلاجقة، ثم الصراع الذي كان قائماً بين حكام المناطق، حاول الحشاشون في خضم ذلك أن يستولوا على قلاع وحصون أو الحصول عليها لاستخدامها كقواعد خلفية لحملاتهم الإرهابية في مواجهة الخصوم.

وفي هذا الصدد قام الحشاشون بتجميع الناس الذين يقطنون المناطق الجبلية وإثارة الحمية والعاطفة الشيعية فيهم من أجل تجنيدهم في صفوف الحركة، كما عقدوا بعض التحالفات المحدودة والمؤقتة التي كانت تبدو في صالحهم مع بعض الحكام المحليين.

لقد كانت مهمة الحشاشين صعبة للغاية على الأقل في بداية نشاطهم بسوريا، وربما كان بعض السبب في ذلك أن الدعوة إلى العقيدة الإسماعيلية في هذا البلد بدأت بدعاة غريبين عن الوسط الذي ينشطون فيه، فقد كان معظمهم من الفرس، لذلك كان تجاوب الجماهير مع الحركة سلبياً بالمقارنة إلى بلاد

فارس لولا الظروف التي سهّلت المهمة حين حقق الحشاشون أول انتصار لهم بعد نصف قرن تقريباً من الجهد والعمل المتواصلين ومن ثمَّ حصلوا على مجموعة من المراكز القوية بوسط سوريا.

كان الحكيم المنجم هو الداعي الكبير الذي يقود الحركة في سوريا ويوجه تحركات عناصرها وقد تمكن من التحالف مع حاكم حلب، كما استغل هذا الداعي توتر العلاقات بين حاكم حلب وبقية حكام سوريا وخاصة حاكمي دمشق وحمص، وقام بمناورة ذكية حيث أقنع حاكم حلب أن حاكمي دمشق وحمص يحشدان الجيوش استعداداً لغزو إمارته، فأظهر الحاكم العداء ضدهما وأبدى رغبته في التعاون مع الحشاشين، وكانت أول بادرة لذلك أن جعل جميع حاشيته منهم، وتمكّن الحشاشون على إثر ذلك من الخروج إلى النور، والنشاط علناً، فقد وجدوا تربة خصبة للعمل السياسي والدعوي معاً، خاصة وأن المدينة غالبية سكانها من الشيعة الإثنى عشرية[1] ، ولاشك أنهم أقرب إلى إسماعيلية آلموت من أية فرقة أخرى.

وأمام هذه العزلة السياسية التي فرضها حاكم حلب على إمارته، تعرض لانتقاد لاذع من صهره حاكم حمص، ودارت من جراء ذلك رحى الحرب بين الأميرين، انتهت بهزيمة حاكم حلب، الذي فر خارج حدود إمارته ودبر مؤامرة مع الداعية الحكيم المنجم لاغتيال حاكم حمص والانتقام منه، وتمكن بعض الفدائيين الذين كانوا يلبسون زي الصوفية من الهجوم عليه واغتياله وهو يؤدي صلاة الجمعة في المسجد.

---

(١) هذا قديماً أما الآن فإن الحال تغير، فالغالبية من أهل السنة متمسكون بعقيدتهم.

وتكاد جميع المصادر تقتصر على هذه الأحداث دون غيرها التي دارت بين الحشاشين وخصومهم.

ولم يبق زعيم الحركة الحكيم المنجم على قيد الحياة طويلاً إذ توفي بعد فترة قصيرة من اغتيال حاكم حمص، وانتقلت زعامة الحركة إلى أحد الدعاة يدعى أبو طاهر الصايغ.

عهد أبي طاهر الصايغ

كان فارسياً هو الآخر، عمل في بداية الأمر على توطيد علاقته بحاكم حلب أكثر فأكثر، والحفاظ على تحالف الحركة معه أطول مدة، وحصل من خلال ذلك على حرية الحركة في النشاط داخل حلب، ثم سعى للحصول على نقاط استراتيجية في جبال المدينة وهضابها الواقعة إلى الجنوب.

ويبدو أنه بعد فترة استطاع أن يستولي على حصون هي من الأهمية بمكان في المنطقة وكان هذا الاستيلاء هو بداية النشاط العسكري للحركة.

كان أول هجوم للحركة ذلك الذي شنته على حصن أفاميا، بعد أن أدرك أبوطاهر الصايغ أن موقع المكان يصلح لاستخدامه كقاعدة لحملات ناجحة وواسعة النطاق لقطع الطريق، دبّر أبو طاهر خطة لقتل صاحب الحصن وكان اسمه "خلف بن ملاعب"، وكانت الخطة تعتمد بالدرجة الأولى على المعلومات التي سربها بعض سكان أفاميا، وكانوا من الإسماعيليين المحليين، وتم اغتيال خلف على يد مجموعة من الفدائيين عرضوا عليه خدمتهم وخضوعهم وأظهروا له الطاعة، فرحب بهم وأحسن إليهم، وبعد أن حازوا ثقته والقرب

منه غدروا به وأطاحوا برأسه، واستولى الحشاشون بذلك على الحصن، وقدم أبو طاهر بنفسه من حلب لتولي قيادته.

لكن سيطرة الحشاشين سرعان ما انتهت بفعل الهجوم الذي شنه أمير صليبي على القلعة يدعى "تانكريد"، فرض على إثرها الجزية على الحشاشين في مقابل كفّ قواته عن مهاجمة قلاعهم وحصونهم، غير أنه عاد بعد أشهر وحاصر المدينة بأكملها وأرغمها على الاستسلام، وحينئذ قام زعيم الحركة أبوطاهر بمغادرة الحصن، والاتصال فوراً بالقيادة في المركز الرئيسي آلموت لدراسة الموقف واتخاذ الإجراءات اللازمة لحفظ الكيان الإسماعيلي في حلب.

وبالرغم من هذا الصدام بين الحشاشين والصليبيين إلا أن صراعهم الأساسي ظل موجهاً ضد رموز الإسلام وليس ضد أعدائه، وكان غرضهم الأكبر ضرب السلطة التي تمثله أينما كانت.

أحرز الحشاشون بعد ذلك بسنوات أكبر انتصار لهم بقتلهم الأمير السلجوقي للموصل "مودود"، وكان قد حضر إلى دمشق لتدعيم الجيش الإسلامي في مواجهة الصليبيين الذين سببت غاراتهم المتوالية أزمة اقتصادية كبيرة لسكان المنطقة.

وقد نجح هذا التحالف في دحر الصليبيين وردّ هجماتهم، بل إحراز النصر عليهم، وعلى إثر ذلك عاد "مودود" للاستراحة في دمشق عند حاكمها، والاستعداد لمعاودة قتال الصليبيين في العام المقبل، ولكنّ الحشاشين رأوا في مكوث مودود خطراً واضحاً عليهم، ولم يكونوا وحدهم في مخاوفهم تلك، وتم التربص بحاكم الموصل "مودود" واغتياله بينما كان في رفقة طغكتين حاكم

دمشق، وكان الاثنان قد فرغا من صلاة الجمعة، إذ هجم على "مودود" فدائي من حركة الحشاشين فأرداه قتيلاً، وتم إلقاء القبض على الفدائي وقتله، وعرضت الشرطة رأسه على الجماهير فلم يعرفه أحد.

ويذكر بعض المؤرخين أن قائد الصليبيين لما علم بمقتل مودود بعث إلى طغكتين برسالة يقول فيها: "إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها".

وفي هذه السنة مات رضوان حاكم حلب الحليف الاستراتيجي لحركة الحشاشين بسوريا، وخلفه ابنه ألب أرسلان على عرش الإمارة، وقد سلك مسلك أبيه وحافظ على هذه العلاقة المتميزة مع الحشاشين، فكثر نشاطهم وازداد نفوذهم، فأدّى ذلك إلى سخط شعبي عارم كاد أن يؤدي بالوضع إلى الانفجار، ولكن لم يلبث أن حدث ردّ الفعل حيث وصل خطاب من السلطان السلجوقي الأكبر محمد إلى ألب أرسلان يحذّره فيه من خطر الحشاشين وعواقب تسامحه معهم، كما نصحه بتدميرهم والقضاء عليهم.

وقد التقط هذه المبادرة زعيم سكان المدينة وكبير أعيانهم وحث الحاكم على اتخاذ التدابير والإجراءات الكفيلة بإنهاء نشاطهم، وصدر على إثر ذلك أمر بملاحقة رجالات الحركة فألقي القبض على الرجل الأول في الحركة أبي طاهر الصايغ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فيه، وكذلك في إسماعيل الداعي وأخ الحكيم المنجم (الزعيم السابق للحركة) وجميع زعماء الطائفة في حلب، واعتُقل عدد كبير من الأتباع، واستُولي على جميع ممتلكاتهم فتفرق الباقون في البلاد شذر مذر.

ولكن بالرغم من هذه الانتكاسة والفشل الذريعين في الحصول على قواعد آمنة، فإن الحركة في عهد أبي طاهر الصايغ تمكنت من الاتصال بعناصر محلية موالية، وأن تكسب ولاء الإسماعيليين المنتمين إلى فروع أخرى وغيرهم من الفرق الشيعية المغالين، فحصلوا بذلك على نواة تأييد في المنطقة.

كما أن فدائيي الحركة قد تمكنوا في هذه الفترة من اغتيال عدد من الشخصيات البارزة، من وزراء وولاة وقواد وغير ذلك، وبذلك تمكن الحشاشون أن يحتفظوا لأنفسهم بموضع قدم، ولم ينته نفوذهم بالمنطقة إلا بعد اعتقال الحاكم الجديد للمدينة العميل الإسماعيلي المحلي لكبير الدعاة وطرد أنصاره الذين باعوا ممتلكاتهم ورحلوا.

عهد بهرام

تسلم قيادة الحركة بعد موت أبي طاهر الصايغ، بهرام الذي كان يعتبر عميل محلي لكبير الدعاة بسوريا في ذلك الوقت، وكان فارسياً هو الآخر، ومن مبعوثي آلموت إلى المنطقة، وكان أول عمل قام به بهرام أن نقل مركز النشاط الرئيسي للحركة إلى الجنوب على مشارف دمشق، مما مكّنه من لعب دور خطير في شؤون الإمارة بعد ذلك.

لم يكن ظهور بهرام على مسرح الأحداث كثيراً، بل كان يدير الحركة في تخفٍ مستمر وسرية تامة، وينتقل من مكان إلى مكان ومن قلعة إلى أخرى

لإدارة شؤون الحركة دون أن يتعرف على شخصيته أحد[1].

ولم يكد يمر الكثير من الوقت حتى قوي نفوذهم وانتشرت دعوتهم، واكتسبت الحركة أنصاراً جدداً، فلما رأى حاكم دمشق ذلك عقد حلفاً معهم لتفادي خطرهم المحدق بالإمارة وذلك عن طريق احتواء أتباع الحركة، ومن جهة أخرى من أجل تقوية موقف حاكم دمشق العسكري ضد خصومه.

وطبقاً لهذا التحالف برز بهرام للناس وخرج من سريته وأظهر عقيدته وجاهر بها، واكتسب مركز قوة بفضل الحماية الرسمية التي حصل عليها بموجب الحلف المعقود بين الطرفين.

وكان أول طلب للحركة بقيادة بهرام طبقاً لاستراتيجية الحركة الحصول على قلعة، وقد لعب الوزير المرغيناني دوراً كبيراً في كسب الحركة لبعض القلاع بفضل اقتراحاته التي قدمها للحاكم، ويلقي المؤرخ الدمشقي ابن القلانيس باللائمة على هذا الوزير ويصفه بأنه كان بمثابة النفوذ الشرير وراء العرش.

وحصل الحشاشون بعد ذلك على قلعة بانياس المتاخمة لحدود المملكة الصليبية في القدس، لكن ذلك لم يُثنِ من عزيمتهم واستطاعوا الحصول على مباني في دمشق نفسها، كبناية "القصر" و "بيت الدعوة".

---

(١) هكذا الحركات الثورية التي تعتمد العنف سبيلاً لها؛ يكون لديها قابلية العودة إلى العمل السري المتدرج حسب الحاجة سواء السرية الجزئية أو السرية التامة المحاطة بالأحاجي والألغاز إلا أنها ستستمر ما لم تحارب بالمواجهة الفكرية بل إذا لم يتم التعامل معها بالفكر الصحيح يتعاظم شأنها وتغرق في التطرف مع مرور الزمن واشتداد المحنة.

ومهما قيل من أن أسباب هذا التحالف كانت تكتيكية بالدرجة الأولى، إلا أنها عادت بالأثر السيئ على الدولة والمجتمع، أما حركة الحشاشين فلم تخسر شيئاً، بل بالعكس تضاعف نشاطها، وقويت شوكتها، وأصبحت طرفاً أساسياً في صنع قرارات الدولة الداخلية والخارجية.

وحينما استقر ببهرام الحال في الموقع الجديد، بدأ نشاطه الدعوي والعسكري في الأقاليم المجاورة، تارة بإرسال الدعاة وتارة أخرى يتولى ذلك بنفسه، يقول المؤرخ ابن القلانيس إنه: "بعث بمراسليه في كل الاتجاهات لإثارة جمهور كبير من الجهلاء من الأقاليم والفلاحين الحمقى في القرى والرعاع وحثالة المجتمع".

تمكنت حركة الحشاشين بقيادة بهرام من الاستيلاء على بعض القلاع عنوة، وعلى البعض الآخر بالأموال، وأصبحت هذه القلاع القواعد التي ينطلق منها الحشاشون لمهاجمة خصومهم، وفي إحدى هذه الغارات لقي بهرام مصرعه، وكان ذلك في سنة ٥٢٢هـ.

تولى قيادة القلعة بعد بهرام نائبه وكان فارسياً هو الآخر ويدعى إسماعيل، وقد سار على سياسة سلفه خطوة بخطوة، واستمر الوزير المرغيناني في تأييده، وتمكن القائد الجديد بفضل هذا الدعم الذي حظي به أن يعيد تنظيم صفوف الحركة، ويتجاوز تلك الهزيمة التي مُنيت بها الحركة على عهد بهرام.

وفي أعقاب هذا الوضع المتأزم الذي كانت تمر به المنطقة، اتفق الوزير المرغيناني مع الصليبيين على تسليم دمشق، وفي مقابل ذلك يتسلم هو بلده صور ويكون حاكماً فعلياً لها، وكان موعد دخول الصليبيين المدينة وتسليمها

لهم هو يوم الجمعة، وكان الوزير قد أعد العدة حيث اتفق مع الحشاشين على أن يقوموا بمنع خروج الجماهير من المساجد حتى يتخذ الصليبيون مواقعهم في المدينة ... ولكن الخبر كان قد وصل إلى حاكم دمشق الجديد تاج الملوك، فأمر بالوزير فقُتل، وفُصلت رأسه عن جسده وطيف بها في الشوارع، وما أن انتشر الخبر حتى قام العسكر ومعهم الجماهير على الحشاشين قتلاً ونهباً، يقول أحد المؤرخين: "وما أن جاء الصباح حتى كانت أحياء المدينة وطرقاتها قد طهرت من الباطنية والكلاب تلغ و تتشاجر فوق أشلائهم وجثثهم .." وكانت أعداد القتلى من الحشاشين يُقدّر يومها بالآلاف، وتحقق إسماعيل خليفة بهرام أن مقاومة هذه الجماهير الثائرة لا تجدي نفعاً، فتفاوض مع الصليبيين على تسليمهم القلعة، مقابل أن يمنحوه حق اللجوء هو وأتباعه إلى أراضيهم أو مناطق نفوذهم في الشام، وسلّم على إثر هذا الاتفاق القلعة وفرّ إلى أراضي الصليبيين حيث قوبل بالقساوة والشدة في المعاملة، ولم يعش بعد ذلك طويلاً فمات سنة ٥٢٤هـ.

بلغ خبر هذه المذبحة التي أحدثها حاكم دمشق تاج الملوك مسامع زعماء الحركة في آلموت، فأوعزوا إلى مجموعة من الفدائيين بالتحرك للانتقام منه، وبالرغم من الاحتياطات الواسعة التي اتخذها تاج الملوك للحماية، إلا أنه قد تمكّن فدائيان من التسلل في زي جنديين وتمكّنا من طعنه بخناجرهم المسمومة، ومات الرجل بعد ذلك بمدة متأثراً بالجراح التي لم تلتئم، وكان ذلك في شهر رجب من عام ٥٢٦هـ.

ولكن بالرغم من أن الحشاشين قد أحرزوا أكثر ضرباتهم طموحاً بقتل حاكم دمشق إلا أنهم لم يستردوا أبداً مراكزهم في دمشق.

إن الهزائم المتوالية التي تلقاها الحشاشون على يد خصومهم لم تفت في عضدهم، بل زادتهم إصراراً على الانتشار والتوسع والسيطرة[1].

وفي هذا الاتجاه تمكن الحشاشون من الحصول على قواعد قلاعية جديدة، فقد قاموا سنة ٥٢٧هـ بشراء قلعة قدموس الجبلية التي كانت بداية استيلائهم على المنطقة كلها، وتوالت حصولهم على القلاع تارة بالشراء بالمال، وتارة بالقتال، وثالثة بالخديعة والاحتيال إلى غير ذلك من أساليبهم الدنيئة المعروفة، ونذكر من هذه القلاع مصياف التي كانت تمثل أهم معقل الحشاشين ثم الخوابي والرصافة ... إلخ.

وخلال هذه الفترة لم يكن للحشاشين دور يُذكر أو تأثير كبير خارج الدائرة التي يعيشون فيها، كذلك موقفهم تجاه الصليبيين لم يكن واضحاً، فتارة يقاتلونهم، وتارة يقاتلون إلى جانبهم، لكن ما ينبغي تسجيله هنا هو تحالف الحركة مع الطائفة الصليبية السرية التي تُسمى "فرسان الهيكل" حيث شكلت الفرقتان وحدة عسكرية قوية ولعبت أدواراً مختلفة في الحروب الصليبية.

---

(١) إن استخدام العنف للقضاء على الأفكار الهدامة يؤدي إلى استفحالها في رأس أصحابها معتقدين بأنهم على الحق وتكتسب تلك الأفكار الأنصار المتعاطفين معهم والمعتنقين الجدد لها فلا بد للقضاء على تلك الأفكار الهدامة من مواجهتها بالفكر المضاد لها لتكوين قناعات لدى أصحابها بمجانبتها للصواب وضرورة تغييرها.

وحدث آخر نسجله في هذه الفترة يتمثل في القرار الذي اتخذه "نور الدين زنكي" والقاضي بإلغاء الأذان الشيعي الذي يُنادى به للصلاة في حلب، وأدّت هذه الخطوة إلى إثارة مشاعر سخط حادة من مختلف طوائف الشيعة لكنها لم تكن فعالة، وفي هذه الظروف وليس مما يدعو إلى الدهشة أن نرى كتيبة من الحشاشين تحارب إلى جانب "ريموند" حاكم أنطاكية ضد الزنكيين.

وآخر ما نسجله من أحداث للحركة هو قيامها باغتيال "الضحاك" الذي كان قد هزم قائد الحركة بهرام وقتله، ومن جهة أخرى اغتيالهم لحاكم طرابلس الصليبي الكونت "ريموند الثاني"، ودخلوا على إثر ذلك في مواجهة شديدة مع الصليبيين، ولم تنته هذه المواجهات إلا باستسلام الحشاشين وقبولهم بدفع الجزية للصليبيين.

عهد سنان ... شيخ الجبل

يمثل هذا العهد العصر الذهبي لحركة الحشاشين في سوريا، كما أن سنان كان أعظم زعيم تشهده الحركة، يشبه في إدارته للحركة وقدراته في مواجهة الخصوم زعيم الحركة الأول الحسن الصباح.

كان مولد سنان بالبصرة سنة ٥٢٨هـ، وقد درس مختلف العلوم الفلسفية والعقدية المنتشرة في عصره، حتى صار أحد دعاة الإسماعيلية النزارية، التابعة لدولة آلموت الجديدة.

غادر سنان البصرة موطنه الأصلي على إثر خلاف عائلي، والتحق بآلموت حيث أكمل تكوينه المذهبي والفكري، وعندما تمّ هذا التكوين ونضج فكر

الرجل وأصبح مؤهلاً للقيادة صدرت إليه الأوامر بالتوجه إلى سوريا حيث المعقل الأساسي للحركة خارج إيران.

ويحكي أحد الذين عاصروا سنان ما ذكره عن طفولته ونشأته وتدريبه وظروف بعثته إلى سوريا فيقول: "نشأت في البصرة وكان أبي أحد نبلائها، وقد دخلت هذه الدعوة إلى قلبي، ثم حدث شيء بيني وبين إخوتي أجبروني على تركهم وخرجت على وجهي بدون ذخيرة أو وسيلة ركوب، وظللت أسير حتى وصلت إلى آلموت ودخلتها، كان حاكمها هو كيا محمد وكان له ولدان يدعيان حسن وحسين، وقد وضعني في المدرسة معهما، وأولاني تماماً نفس العناية التي أولاهما بها في كل ما يحتاج إليه الأولاد من مساعدة وتعليم وملابس، وبقيت هناك حتى مات كيا محمد وخلفه ابنه حسن، فأمرني أن أذهب إلى سوريا، فانطلقت إلى هناك كما انطلقت من البصرة وكنت لا أدخل أية مدينة إلا نادراً، وكان قد زودني بأوامر وخطابات، ودخلت الموصل ونزلت بمسجد النجارين حيث قضيت الليلة هناك ثم واصلت طريقي لا أدخل أية مدينة حتى بلغت الرقة وكنت أحمل خطاباً لواحد من رفاقنا هناك فسلّمته إليه، وأعطاني الرجل مؤناً وأتاح لي وسيلة ركوب حتى حلب، وهناك التقيت برفيق آخر سلّمته رسالة أخرى، فأجّر لي وسيلة ركوب وأرسلني إلى كهف، وكانت الأوامر التي معي أن أقيم في هذه القلعة، وبقيت هناك حتى مات في الجبل الشيخ أبو محمد رئيس البعثة، وخلفه خواجا علي بن مسعود بدون تعيين (من آلموت) ولكن باتفاق الجماعة، ولكن الرئيس أبا منصور ابن أخ الشيخ أبو محمد والرئيس فهد تآمرا وأرسلا شخصاً طعنه حتى الموت بينما كان يغادر حمامه،

وظلت الزعامة شورى بينهم وتم اعتقال القتلة وسُجنوا، وبعد ذلك جاءت الأوامر من آلموت بإعدام القاتل وإطلاق سراح الرئيس فهد وجاءت معها رسالة وأمر بقراءتها أمام الجماعة".

كانت حياة سنان الظاهرة تتسم بالتقشف والزهد والصلاح، والتفاني في خدمة العقيدة الإسماعيلية، والعمل على نشرها، أو على الأقل هذا ما أظهره للناس، وتمكّن بذلك من الانفراد بزعامة الحركة دون أن ينازعه عليها أحد، وأصبح "داعي الدعاة" و "شيخ الجبل" ابتداءً من سنة ٥٥٨هـ.

كان سنان رجلاً قوي الشخصية، شديد البأس، حازماً في اتخاذ القرارات فانعكس ذلك على الحركة كلها، وأصبحت أقوى مما كانت عليه، وارتفع شأن الحشاشين في ربوع الشام كله، وأخذ نفوذ سنان في الإشعاع والارتفاع، حتى أصبح في نظر الأتباع يماثل نفوذ الحسن الصباح في وقته.

وبعد أن وطّد سنان سلطانه في القلعة وأحكم قبضته على الأمور، التفت إلى مملكته فاهتم بها أعظم الاهتمام، إذ أعاد بناء بعض القلاع وأعاد تحصينها، كما دعم مملكته باستيلائه على قلعة "العليقة".

يقول المؤرخ السوري كمال الدين: "إنه بنى قلاعاً في سوريا للفرقة وقد كان بعضها جديداً وبعضها قلاعاً قديمة حصل عليها بالخديعة ثم حصّنها وجعلها منيعة، وغفل عنه الزمان، ولم يهتم الملوك بمهاجمة ممتلكاته خوفاً من الانتقام باغتيالهم ...".

وفي هذه الأثناء كان نفوذ آلموت آخذاً في التراجع، ولم يعد الزعماء هناك بقادرين على السيطرة على أجنحة الحركة المتعددة، وعلى وجه الأخص بسوريا حيث بلغت حركة الحشاشين أوجها على يد سنان، الذي أخذ يعمل بالتدريج على الاستقلال عن قيادة الحركة في آلموت، ولم يعد يربطه بها إلا الانتماء للمذهب الواحد فقط، وأصبح يمارس نشاطه بشكل مستقل تماماً.

وخوفاً من أن يغتصب سنان الرئاسة العامة للحركة، فكّر زعماء الحركة في آلموت في التخلص منه، فأرسلوا مجموعة من الفدائيين لاغتياله، لكن سنان تمكّن من إحباط المؤامرة، وكانت محاولة اغتياله هذه سبباً في توتر العلاقات بين الحركة الأم في آلموت والجناح التابع لها في سوريا، وحدثت القطيعة بين الفصيلين.

يقول المؤرخ كمال الدين: " ... وبعث كبير دعاتهم في آلموت مبعوثين لقتله عدة مرات خوفاً من أن يغتصب الرئاسة، ولكنهم كانوا يقعون في قبضة سنان فيقتلهم أو يخدعهم ويقنعهم بعدم تنفيذ ما لديهم من الأوامر".

وفي هذه الأثناء تمكّن الحشاشون من اغتيال الزعيم الصليبي "كونراد أوف مونتفرات"، وأعقب ذلك محاولتان لاغتيال القائد الأيوبي صلاح الدين وأسقطت المحاولتان[1] وقاد صلاح الدين حملة لمحاصرة قلاع الحركة وإبادة أتباعها، إلا أن هجومه باء بالفشل لأسباب سياسية وأمنية، حيث كانت الرقعة الإسلامية تشهد غزواً صليبياً فاضطر صلاح الدين للانسحاب من أجل مواجهة

---

(١) يروي المؤرخون أن صلاح الدين اتخذ احتياطات واسعة للحفاظ على حياته، فكان ينام في برج خشبي أقيم خصيصاً لحمايته ولم يكن يسمح لأحد لا يعرفه شخصياً بالاقتراب منه.

هذا الغزو.

لقد كان ظهور صلاح الدين كحامي للعقيدة الدينية، ومهندس الوحدة الإسلامية، وبطل الحرب المقدسة ضد الصليبيين، قد أقضّ مضاجع الحشاشين، وأدّى إلى جعله العدو الرئيسي للحركة، فلم يدّخروا أدني جهد للتخلص منه، حيث تحالفوا مع خصوم صلاح الدين التقليديين من آل زنكي، مما حدا بصلاح الدين أن يراسل الخليفة ويشعره بخطورة هذا التحالف ويتهم فيه الزنكيين بالتحالف مع الحشاشين الملاحدة، ويتحدث في هذا الخطاب عن أن الزنكيين وعدوا الحشاشين بمنحهم قلاعاً وأراضي لنشر دعوتهم.

وأمام الحصار الشديد الذي فرضه صلاح الدين على قلاع الإسماعيلية، لم يجد سنان شيخ الجبل بداً من مفاوضة صلاح الدين، وكان ذلك بواسطة صاحب حماه خال صلاح الدين، وانتهت هذه المفاوضات بعقد مصالحة بين الطرفين يقوم بموجبها صلاح الدين بفك الحصار المضروب على القلاع، وفي مقابل ذلك يكفّ الحشاشون عن عمليات الاغتيال وأساليب التخريب التي يتبعونها.

وهكذا تمكن صلاح الدين من تجاوز عقبة الحشاشين واستثمار طاقة جنوده وقوتهم لمهام أكثر أهمية وجذرية، كما استفاد من ناحية أخرى من الاستفادة من قوة الحشاشين الذين انخرطت طائفة منهم في صفوفه أثناء حربه مع الصليبيين.

ويقص المؤرخون عديداً من القصص بغرض تفسير تسامح صلاح الدين مع الحشاشين، فيقال: إن صلاح الدين بعث برسالة ذات مرة إلى رئيس الحشاشين فكان ردّ هذا الأخير كما يلي: "قرأنا خطابك وفهمنا نصه وفحواه،

ولاحظنا ما يحتوي عليه من تهديدات لنا بالكلمات والأفعال، ووالله إنه لشيء يدعو إلى الدهشة أن نجد ذبابة تطنّ في أذن فيل وبعوضة تلدغ تمثالاً، كثيرون قبلك قالوا مثل هذه الأشياء، ودمرناهم دون أن يشفع لهم شفيع فهل تبطل الحق وتؤيد الباطل؟ ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾ إذا كنت حقاً قد أصدرت أوامرك بقطع رأسي، وتمزيق قلاعي في الجبال الصلدة فإن هذه آمال كاذبة وخيالات واهمة لأن الأساسيات لا تدمرها العارضات كما أن الأرواح لا تدمرها الأمراض، أما إذا عدنا إلى المحسوسات التي تدركها الحواس وتركنا جانباً المعنويات التي تدركها الأذهان فإن لدينا أسوة حسنة برسول الله الذي قال: «**لم يقاس نبي مثلما قاسيت**» وأنت تعرف ماذا حدث لدعوته وأهل بيته وحزبه، ولكن الموقف لم يتغير والرسالة لم تفشل وحَمْدُ الله لا يزال أولاً وأخيراً.

إننا مضطهدون ولسنا طغاة، محرومون ولسنا حارمين، ﴿**قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**﴾. وأنت تعرف ظاهر أحوالنا وقدر رجالنا، وما يمكن أن يحققوه في لحظة واحدة وكيف يحبون الموت ﴿**قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين**﴾، والمثل الشائع يقول: إنك لا تستطيع أن تهدد بطة بإلقائها في النهر، فخذ كل ما في استطاعتك اتخاذه من احتياطات دون الكوارث والفواجع فإنني هازمك من داخل صفوفك، ومنتقم منك في مكانك، وستكون كمن يدمر نفسه بنفسه، وماذلك على الله بعسير، عندما تقرأ خطابنا هذا فارتقبنا وترحم على نفسك

واقرأ أول النحل[1] وآخر صاد[2] ".

وبالرغم من التعاون الوثيق الذي ساد العلاقات فيما بعد بين صلاح الدين والحشاشين، إلا أن سنان قائد الحركة استطاع أن يحافظ على استقلالية الحركة، دون المساس بالاتفاق المذكور.

وبعد ثلاثين سنة قضاها سنان شيخ الجبل في قيادة حركة الحشاشين بالشام وافته المنية سنة ٥٨٨هـ، بعد أن أعاد بناء الحركة بمهارة عالية تذكرنا بالحسن الصباح المؤسس الأول للحركة.

وبموت سنان شيخ الجبل دخلت الحركة مرحلة الضعف، وهذا بالرغم من أن خلفاءه ظلوا أوفياء لخطه، يمارسون نفس السياسة، ويجعلون من الاغتيال الوسيلة الوحيدة لإثبات الوجود ومقاومة الخصوم، وتمكنوا تحت التهديد والوعيد من الحصول على الجزية خاصة من الأمراء الصليبيين.

وعندما دخل التتار الشام عملوا على القضاء على الحشاشين، إذ شنوا هجوماً واسع النطاق على مختلف قلاعهم، وتمكنوا على إثر ذلك من السيطرة على بعض القلاع الهامة في المنطقة، ولكن سرعان ما ردّت الحركة بقوة واسترجعت بعض ما ضاع منها من قلاع.

وفي هذه الفترة كان السلطان المملوكي الظاهر بيبرس يقود حرباً ضد الصليبيين والمغول الوثنيين، وكان هدفه تحرير الشرق الإسلامي من هذا التهديد المزدوج، كما أنه لا يمكن أن يُتوقع منه التسامح إزاء استمراء وجود جيب

---

(١) ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾.

(٢) ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين﴾.

مستقل خطر من الملحدين والقتلة في قلب سوريا، وشدد قبضته على الحشاشين فأقروا له بالخضوع والطاعة وأمر بيبرس بجمع الضرائب والرسوم التي تُدفع إلى الحشاشين، ولم يكن باستطاعة الحشاشين الذين أضعفوا في سوريا وأثبطت همتهم نتيجة مصير إخوانهم الفارسيين أن يبدوا مقاومة، فقبلوا جميع إجراءات بيبرس، حتى أصبح - أي بيبرس -، بدلاً من سيد آلموت هو الذي يعين رؤساء الحشاشين ويخلعهم كما يريد، كما أصبح رجال الحركة وأتباعها تحت تصرفه المباشر.

ومنذ ذلك الوقت صار الحشاشون مجرد مجموعات صغيرة تمركزت في مناطق معينة، ولم يعد لها أية أهمية سياسية أو تأثيراً على مجرى الحوادث، ولم يعودوا يظهرون في صفحات التاريخ حتى أوائل القرن التاسع عشر عندما عُرف أنهم في نزاع دائم بينهم، ويبلغ عددهم في الوقت الحاضر بضعة آلاف شخص[۞]، يدين البعض منهم بالولاء لآغاخان كإمام لهم.

وهكذا توقفت الإسماعيلية مرة أخرى وإلى الأبد عن أن تكون بديلاً جاداً للفكر السني الذي يسيطر على الحياة الفكرية في مختلف البلاد الإسلامية[1]، وإنها لصفحة من أغرب صفحات الثورة على الإسلام، بل وعلى العقل والمنطق، وأشدها غلواً وإغراقاً.

۞ أي في سوريا وإلا ففي العالم يبلغ تعدادهم عدة ملايين [الناشر].

(١) لكن بالرغم من هذا الفشل الذريع إلا أن تيار العنف الثوري الذي دفع الإسماعيلية استمر في التدفق، ولم تلبث أفكارهم ووسائلهم أن وجدت كثيرين من المقلدين، وهؤلاء المقلدون أمدتهم التغيرات الكبرى في عصرنا الحديث بأسباب جديدة للغضب والعنف، وأحلام جديدة تبحث عن التحقق وأدوات جديدة للهجوم.

التركيب الديني للحركة أو عقائد الحشاشين

الألوهية:

ينزهون اللّه عن التشبيه بكل ماهو صادر عنه، فهو لا يُعرف ولا يوصف، ولا يُسمى فلا يمكن أن يُنسب إليه اسم ولا صفة ولا نعت ولا وجود ولا عدم وجود، ويعللون ذلك بأن اللّه فوق متناول العقل، ومن أجل ذلك، "لا يقال عليه حي، ولا قادر، ولا عالم، ولا عاقل، ولا كامل، ولا تام، ولا فاعل، لأنه المبدع الحي القادر العالم التام الكامل الفاعل، ولا يقال له: ذات، لأن كل ذات حاملة للصفات".

وعلى ذلك فلا يقولون "بالإثبات المطلق، ولا بالنفي المطلق، بل هو إله المتقابلَيْن، وخالق المتخاصمين، والحاكم بين المتضادين، وليس هو بالقديم كما أنه ليس بالمحدث، فالقديم أمره وكلمته، والحديث خلقه وفطرته"[1].

فاللّه غيب الغيوب ومبدع الوجود، لذلك لايمكن أن تدركه الأبصار، ولا تحيط به العقول، فهو فوق الكائنات، وهو ليس بكائن ولا يكون. إنه يمنح الكينونة، وهو فعل الكينونة ذاته.

---

(١) الملل والنحل، الشهرستاني (١/٢٢٦)، طبعة دار المعرفة، بيروت.

وهم بهذا يحاولون الابتعاد عن التعطيل من جهة، وعن التشبيه من جهة أخرى، فكان التوحيد الذي نادوا به توحيداً جدلياً سلبياً، فالمبدع هو في آن واحد: عَدم ـ وجود، وليس بعدم ـ وجود ....".

وهكذا نجد الإسماعيلية يعمدون إلى التعسف وهم بصدد الحديث عن اللّه وصفاته مع أن أولى مقتضيات الإيمان والدوافع إليه ينبغي أن تُصاغ في قوالب من البساطة واليسر والسماحة.

ويقولون بأن اللّه سبحانه أبدع العقل الكلي بعمل من أعمال الإرادة، والعقل الكلي محل جميع الصفات الإلهية، وهو في نظرهم الإله ممثلاً في مظاهره الخارجية.

ويعللون هذه الفلسفة فيقولون لما كانت الصلاة لا يمكن أن تُؤدّى لكائن لا يدرك، فهي تؤدى في رأيهم لمظهره الخارجي وهو العقل الذي أصبح تبعاً لذلك الإله الحقيقي من وجهة نظرهم، ولما كان الإنسان غير قادر على معرفة ذات اللّه وإنما يعرف ذلك العقل وحده، فإن الإسماعيلية يسمون العقل الحجاب أو المحل أو الصلة.

فالخالق تبعاً لهذه الاعتقاد عند الإسماعيلية هو العقل الكلي والنفس الكلية، وبمعنى آخر إن ما يقوله جمهور المسلمين عن اللّه تعالى خلعه الإسماعيليون على العقل الكلي الذي هو الإله عندهم.

وانتهوا من ذلك إلى أن العقل الكلي في العالم العلوي يجب أن يقابله الإمام في العالم الجسماني، وأن جميع الأسماء والصفات التي خُلعت على العقل

الكلي، هي أيضاً أسماء وصفات خُلعت على الإمام، لأن الإمام مثل العقل الكلي.

ويصور أحد شعرائهم ذلك في قصيدة يمدح فيها أحد الخلفاء الفاطميين فيقول:

ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره ... تناهياً جاز حدّ الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت ... خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر

قصة الخلق:

يزعمون أن اللّه سبحانه وتعالى أبدع الكون دفعة واحدة، على شكل أشباح نورانية وصور محضة متساوية في الكمال الأول الذي هو الوجود والحياة والقوة والقدرة.

ثم حدث أن واحداً من تلك الأشباح نظر بذاته إلى ذاته وأبناء جنسه، فعلم أن له مبدعاً مغايراً له ولهم، فأثبت له الألوهية والوحدانية، وعندئذ اتصل به من مبدعه التأييد الإلهي الذي هو كلمة اللّه، وذلك العلم الذي جاءه من المتعالي هو كماله الثاني، وبهذا العلم صار عقلاً كاملاً أزلياً محيطاً بكل شيء، عالماً لما كان وما يكون، فاتخذه المتعالي حجاباً وصار "الاسم الأعظم" الذي به وحده يُتوسل إلى المتعالي ... وانتبه شبح ثان إلى نفس ما انتبه إليه العقل الأول، فنظر بذاته إلى ذاته، وإلى بني جنسه وعلم أن له مبدعاً، فاتصل بواسطته بالعلم

الإلهي وحصل على كماله الثاني وصار عقلاً أزلياً كاملاً لا فرق بينه وبين الأول إلا برتبة السبق.

ثم اتحد السابق بالتالي واتخذه حجاباً وباباً، وأقام الدعوة بأن خاطب بقية الأشباح النورانية ودعاهم إلى تأليه وتنزيه وتوحيد المتعالي، فاستجاب له سبعة أشباح، كل منهم حدّ المتعالي واعترف برتبة العقل الأول وبكونه السابق، وبالعقل الثاني وبكونه التالي، وهنا اتصل بالأشباح السبعة بالنور الساري والعلم الجاري من خلال العقلين الأول والثاني، فحصلوا على كمالهم وصاروا عقولاً سبعة هي عقول الكواكب السبعة السيارة.

ولكن الشبح الثاني وهو التالي، زلّ زلّة كبيرة وأخطأ حينما اعتقد أنه والعقل الأول في مرتبة واحدة، فأراد أن يتخطاه للاتصال بالعلم المحيط ومعرفة الحقائق قبل الأوان. فكان نتيجة ذلك أن انقطعت عنه مادة السابق له، فأظلمت ذاته وسقطت مرتبته وصار عاشراً.

ولكنه اعترف بخطئه، وأعلن توبته، وتوسل بالعقول السابقة له التي رمته بأشعتها النورانية، وأمكن له الاتصال بالنور الجاري والعلم الساري، فأشرقت ذاته وتخلص من تلك الظلمة وبلغ كماله الذي عليه من جديد ... وهذا العقل هو آدم الروحاني .. آدم الملكوتي ...

وهناك أشباح أخرى زلّت بزلة هذا العقل، ولكنها لم تتب وترجع عن خطئها، وكُلف آدم الروحاني بتخليصها من الضلال، ولكنها لم تستجب له فازدادت مراتبها سقوطاً وازدادت صورها ظلمة.

وتراكمت هذه الأشباح وتحركت حركة لزم منها الطول، ثم تحركت ثانية فكان العرض، ثم تحركت ثالثة فوقعت في العمق، وهكذا صارت تلك الأشباح من خلال حركاتها وبواسطتها هيولى وصورة.

وقد تمت هذه الحركة تحت العناية الإلهية التي علمت أنه لا خلاص لتلك الأشباح الضالة بدون دعوة مماثلة للدعوة التي قامت في دار الإبداع ... وأن هذه الدعوة تكون بمثابة اختبار تصفية، فمن كان صافياً طاهراً صعد .. ومن ارتكس بقي في الظلمة.

ثم عمدت العناية الإلهية إلى هذه الأشباح التي صارت هيولى وصورة، فصنعت من جزء منها، عالم الأفلاك وهم الآباء، ومن جزء آخر عالم الأمهات أو العناصر الأربعة، أما الباقي فقد انعقد لشدة ظلامه حتى صار كالصفرة، فجعلت منه العناية الإلهية الأرض.

ثم وبتأثير الآباء (عالم الأفلاك) على الأمهات (عالم العناصر الأربعة) أخذت الموجودات في الظهور، ثم تلا ذلك ظهور الإنسان.

أما عن خلق العالم والحكمة من وراء ذلك، فإن الإسماعيلية ترى السؤال والبحث عن ذلك غير منطقي وغير مقبول، لأن الإنسان عاجز عن إدراك كيفية العالم، ومن باب أولى يكون عاجزاً عن إدراك الحكمة من خلقه.

يقول الداعي الإسماعيلي أبو يعقوب السجستاني: "... من المتفق عليه أن أحداً لم يقف على كيفية كون العالم من الصانع، وإن كان بعض الحكماء قد أطلقوا على أن كونه من الصانع بالأمر، فلم يقفوا على كيفية ذلك الأمر، فلما

اتفقت آراؤهم على أن درك كيفية كون العالم غير ممكن، كان طلب لمّيـة (لِـمَ) كونه أمحل وأبعد عن القياس، ولعل لمّيته داخلة في كيفيته، فيعسر الوقـوف علـى لمّيته لخفاء كيفيته ..".

ويذهـب الإسماعيليـة إلى أكـثر مـن هـذا، إذ يـرون أن ملكـة المعرفـة الـتي يستخدمها الإنسان في محاولة معرفة حكمة خلق العالم، هي جزء من هذا العالم، وبالتالي كيف يمكن للإنسان التوصل إلى حكمة خلق العالم بواسطة جزء منه؟.

يقول السجستاني في هذا الصدد: "إن القوة الباحثة على لمّيـة خلـق العـالم في الإنسان جزء من العالم، فكيف يمكنه الوقوف على لمّية خلـق شـيء، والقـوة الباحثة جزء من الشيء الذي يريد الوقوف على لمّيته؟ فإذا أمكنه الوقـوف علـى لمّية خلق العالم بالقوة الباحثة التي فيه، كانت هذه الصورة خارجـة عـن الشـيء الذي أحاط الإنسان به، والجزء لا يخرج من كله".

ونحن إذا تتبعنا هذه النصوص الإسماعيلية فإنه يمكننا أن نسـجل أن حكمـة خلق العالم غير معلومة لدى الإسماعيلية، ولا يمكن معرفتها ـــ في نظرهـم ـ قبـل إدراك كيفية كون العالم، لأن اللمّية تتوقف على الكيفية، وقد كان الوصول إلى هـذه النتيجـة أمـراً طبيعيـاً في مقـابل التناقضـات الكثـيرة الـتي يحملهـا الفكـر الإسماعيلي القائم على التلفيق واللامعقول.

مصير الموتى:

إن مصير الموتى يتحدد في عقائد الحركة، حسب إيمان المرء بالمذهب أو كفره به، وحتى المؤمنون منهم فليسوا في درجة واحدة من الإيمان والعمل، لذلك فإن مراتبهم الأخروية تكون بحسب هذا التفاوت بين طبقاتهم.

فالطبقة الأولى من المؤمنين كما يحكي الحارثي هم: "أهل المعارف الحقيقية، والعلوم الإلهية، والأعمال الصالحة، والموالاة لجميع الأئمة، من ناطق الدور ووصيه إلى إمام الزمان وحدوده".

فهذه الطبقة من المؤمنين عندما تفارق أرواحهم أجسادهم، فإن الجنة هي المستقر وذلك على النحو التالي:-

بعد أن تفارق النفس جسدها تتحد بالنفس التي فوقها، ثم تصعدان معاً إلى النفس التي فوقها، وتندمجان معاً، وهكذا تستمر عملية الاتحاد بالأعلى مرتبة، والصعود والاندماج حتى الوصول إلى النفس الكلية المرجع الأصلي لكل النفوس الجزئية.

ويشير أحد دعاة الإسماعيلية إلى ذلك بقوله: "إن إمام الزمان يحرك عمود النور فيجذب صورة المتوفى (نفسه) إلى صورة حدّه العالي ... يسمع سؤال من يسأله عن المعارف وجوابه بالحقائق ويترقى بالإفادة والاستفادة ... فيستكمل الاطلاع على الحقائق حتى إذا جاء دور انتقال حده العالي إلى صورة العالي عليها جذبها عمود النور إلى صورة هذا الأخير، فتصير الصور الثلاث صورة واحدة، وتستمر عملية اتحاد النفوس وصعودها على هذا النحو حتى الوصول

إلى رتبة الحجة ... مجمع المجاميع نهاية كل حد شريف إلى دار القدس جنة المأوى المجتمعة جميع الصور إلى شريف مقامه".

وحسب درجة الإيمان والمعرفة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ تكون رتبة الروح، وإلى هذا يشير الحارثي بقوله: "وعلى قدر مبلغ كل واحد منهم في العلم والمعرفة والولاء يكون علوه في ذلك الهيكل النوراني".

وهكذا تكون مصير الأرواح وفق المذهب الإسماعيلي، أما عن مصير الأجساد فيذكر أحد المفكرين الإسماعيليين أنها: "تكون محفوظة في أعز عز، وأحرز حرز، وذلك أنها تعود إلى السحيق بعد مفارقتهم لطائفهم، ثم إلى المزاج والممتزج، ثم تعود إلى الأرض أمطاراً، ثم تلطف إلى أن تحلل بخاراً، وتصعد إلى فلك البروج في أماكنها، وينحدر ذلك من البروج إلى الأرض، ثم يصير تراباً سحيقاً، ثم ترتقي إلى أن تصير في القامة الألفية إنساناً، وذلك الكائن الصاعد خلفاً للمنحدر ... وعند كمال هذه الأشخاص وبلوغها الحلم تُدعى فتجيب ويؤخذ عليها العهد الكريم، وترتقي في الرتب الدينية والمعارف الحقيقية شيئاً بعد شيء من غير أن يدخلها شك ولا يعرض لها شبهة، بل تكون جارية في مضمار الصعود، إلى أن تبلغ مالها أن تبلغه، وهو مبلغها الذي بلغته في أول وهلة عند كونها وظهورها بالجثة الإبداعية فالباب يعود باباً، والحجة يعود حجة، وداعي البلاغ يعود داعي بلاغ ... ولا يزالون كذلك كلما صفت نفس وصعدت إلى عالم الصفا، انبعث في جسمها المتخلف نفس أخرى بتدبير المتدبرات ونظر العناية الإلهية".

مصير الموتى:

إن مصير الموتى يتحدد في عقائد الحركة، حسب إيمان المرء بالمذهب أو كفره به، وحتى المؤمنون منهم فليسوا في درجة واحدة من الإيمان والعمل، لذلك فإن مراتبهم الأخروية تكون بحسب هذا التفاوت بين طبقاتهم.

فالطبقة الأولى من المؤمنين كما يحكي الحارثي هم: "أهل المعارف الحقيقية، والعلوم الإلهية، والأعمال الصالحة، والموالاة لجميع الأئمة، من ناطق الدور ووصيه إلى إمام الزمان وحدوده".

فهذه الطبقة من المؤمنين عندما تفارق أرواحهم أجسادهم، فإن الجنة هي المستقر وذلك على النحو التالي:-

بعد أن تفارق النفس جسدها تتحد بالنفس التي فوقها، ثم تصعدان معاً إلى النفس التي فوقها، وتندمجان معاً، وهكذا تستمر عملية الاتحاد بالأعلى مرتبة، والصعود والاندماج حتى الوصول إلى النفس الكلية المرجع الأصلي لكل النفوس الجزئية.

ويشير أحد دعاة الإسماعيلية إلى ذلك بقوله: "إن إمام الزمان يحرك عمود النور فيجذب صورة المتوفى (نفسه) إلى صورة حدّه العالي ... يسمع سؤال من يسأله عن المعارف وجوابه بالحقائق ويترقى بالإفادة والاستفادة ... فيستكمل الاطلاع على الحقائق حتى إذا جاء دور انتقال حده العالي إلى صورة العالي عليها جذبها عمود النور إلى صورة هذا الأخير، فتصير الصور الثلاث صورة واحدة، وتستمر عملية اتحاد النفوس وصعودها على هذا النحو حتى الوصول

إلى رتبة الحجة ... مجمع المجاميع نهاية كل حد شريف إلى دار القدس جنة المأوى المجتمعة جميع الصور إلى شريف مقامه".

وحسب درجة الإيمان والمعرفة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ تكون رتبة الروح، وإلى هذا يشير الحارثي بقوله: "وعلى قدر مبلغ كل واحد منهم في العلم والمعرفة والولاء يكون علوه في ذلك الهيكل النوراني".

وهكذا تكون مصير الأرواح وفق المذهب الإسماعيلي، أما عن مصير الأجساد فيذكر أحد المفكرين الإسماعيليين أنها: "تكون محفوظة في أعز عز، وأحرز حرز، وذلك أنها تعود إلى السحيق بعد مفارقتهم لطائفهم، ثم إلى المزاج والممتزج، ثم تعود إلى الأرض أمطاراً، ثم تلطف إلى أن تحلل بخاراً، وتصعد إلى فلك البروج في أماكنها، وينحدر ذلك من البروج إلى الأرض، ثم يصير تراباً سحيقاً، ثم ترتقي إلى أن تصير في القامة الألفية إنساناً، وذلك الكائن الصاعد خلفاً للمنحدر ... وعند كمال هذه الأشخاص وبلوغها الحلم تُدعى فتجيب ويؤخذ عليها العهد الكريم، وترتقي في الرتب الدينية والمعارف الحقيقية شيئاً بعد شيء من غير أن يدخلها شك ولا يعرض لها شبهة، بل تكون جارية في مضمار الصعود، إلى أن تبلغ مالها أن تبلغه، وهو مبلغها الذي بلغته في أول وهلة عند كونها وظهورها بالجثة الإبداعية فالباب يعود باباً، والحجة يعود حجة، وداعي البلاغ يعود داعي بلاغ ... ولا يزالون كذلك كلما صفت نفس وصعدت إلى عالم الصفا، انبعث في جسمها المتخلف نفس أخرى بتدبير المتدبرات ونظر العناية الإلهية".

إن مفهوم كلام هذا الداعي هو أن الإسماعيلية يقولون بأن أجساد المؤمنين (بمذهبهم) تمر بدورات تناسخية، في حين تشير كتابات فريق منهم إلى عدم القول بذلك ويبرئون ساحتهم منه.

والواقع أننا نجد تخبطاً كبيراً في هذه المسألة، وتعارضاً واضحاً في داخل المذهب وبين مفكريه حول تحديد مصير الأجساد ومستقرها.

أما عن مصير الطبقة الأخرى من المؤمنين وهم أهل الولاء المتعلقون بشيء من العلوم الدينية والحكم الإلهية، فإن أرواحهم تكون في درجة أدنى من داخل الهيكل النوراني وذلك حسب إيمانهم ومعرفتهم، إذ لكل درجته وموضعه الذي يستحقه.

أما عن أجسامهم فهي بلاشك أدنى وأوضع من محل أجسام النوع الأول من المؤمنين إذ إنها تبقى كما يذكر أحدهم: "مرتهنة بتلك الأفعال القبيحة التي تعدت إليها، وأقدمت عليها من غير حلّها، فيقتص منها بجميع ما أسلفته وفعلته من قليل وكثير، ويُسلك بها في شيء من العذاب، ومطامير العقاب الأدنى، وتُعرف بالنار المصفية، إلى أن يكمل ما عليها من المظالم واستُؤنف بها العمل والترقي إلى أن تظهر إلى القامة الألفية، ثم تُدعى فتجيب، وتتصل إلى حدها الذي بلغته أولاً".

أما عن مصير الكافرين أي غير المؤمنين بمذهبهم، فإنهم يرون بأن نفوسهم تظل في عالم الطبيعة الأرضية تتناسخها أجسام الكائنات المختلفة، كلما بليت صورة بالفساد كونت أخرى بالكون فلا تزال تتعرض فيها للألم والأسقام، فلا

تفارق جسداً إلا ويتلقاها آخر، ودليلهم على ذلك قوله تعالى: ﴿**كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب**﴾ [النساء :٥٦].

يقول أحد دعاة الإسماعيلية: "إن النفس في عالم الكون والفساد، كائنة في الأجساد، وهي الأرواح الهابطة للزلة التي كانت منها، والخطيئة التي جنتها، فأهبطت وأبعدت من دار الكرامة، فبقيت معذبة مربوطة، بالطبيعة الحسية والتكليفات اللازمة لها في الشرائع الناموسية، جزاءً لها بما أسلفت، وما ذكر الحكماء من الهيولى والصورة، إلا تنبيهاً للنفس اللاهية، والأرواح الساهية الغافلة عن آيات اللّه وتذكاراً لهم ... وأن الهيولى والصورة أعراف عليها واقف وبرازخ لهم إلى يوم يبعثون، كلما بليت صورة بالفساد كونت أخرى بالكون فهم بين البلاء والنشوء، مترددون ما بين الهيولى الجسمانية والصورة التركيبية".

ومرة أخرى نزعة التناسخ التي يؤمن بها الإسماعيلية، إذ يرون أن الكافرين يمرون بأدوار تناسخية متكررة يصاحبها ألوان من العذاب والآلام بعد الموت.

ويحدث ذلك كالآتي: عند موت الكافر تتحد نفسه بجسده حتى يصيرا جوهراً واحداً، ثم يصير هذا الجوهر الواحد إلى تراب، ثم يتبخر هذا التراب، ويتحول إلى مطر، ولكنه ليس مطر خير، وإنما مطر سوء، حيث يحدث معه البرق والرعد والسيول الجارفة، ثم تتحول النفس والجسد معاً إلى نبات أو حيوان ويستقبل العذاب، ويكون المرور بهذه الأدراك السبعة التالية:ـ

درك الرجس وهي قمص البشر، فيصير ذلك المغتذي به نطفة يرتقي إلى أن يخرج من بطن أمه جنيناً في قمص الزنج والبربر والترك وغيرهم من الذين لا

يصلحون لمخاطبة الحق، ولا يزال ينتقل من قميص إلى قميص، إلى أن يستكمل في كل نوع من أنواع هذا الدرك سبعين قميصاً.

ثم الدرك الثاني المماثل للتركيب البشري، وهم القرود والدببة، ويسلك في كل نوع من هذه الأنواع سبعين قميصاً، وهو في جميعها يتحقق أنه في حال العذاب.

ويسلك بعد ذلك في قمص العكس، وهو الدرك الثالث، وهم سباع البر والبحر كالأسود والذئاب وغير ذلك، إلى أن يستكمل سبعين قميصاً أيضاً.

ثم قمص الحرس، الدرك الرابع، وهم هوام البر والبحر، كالأفاعي والعقارب ... ثم النجس الدرك الخامس وهم طير البر والبحر ...

ويلي ذلك الدرك السادس ويُسمى النكس وهو النبات المحظور القاتل المهلك للحيوان.

وفي الأخير يسلك الدرك السابع الذي يُسمى الركس، وهو المعدن والحجر ... وهو في كل هذه الأنواع يستوفي السبعين قميصاً.

وبعد أن يمر الميت الكافر بجميع هذه الأدوار السبعة، يتم نفيه وإبعاده إلى أماكن بعيدة، غير آهله بالسكان وفي أجزاء غير معتدلة من الكرة الأرضية.

الإمامة:

يقول النوبختي عن الإمامة: "هي من أجلّ الأمور بعد الرسالة، إذ هي فرض من أجلّ فرائض اللّه، فإذن لاتقوم الفرائض ولاتُقبل إلا بإمام عدل".

والإمام عند الشيعة عامة مكانه على رأس الجماعة الإسلامية حاكماً وفقيهاً، وقد وهبه اللّه قوىً روحية فائقة تسمو به عن مستوى البشر، فروحه أنقى من روح الآدميين العاديين لخلوها من نزعات الشر وتحلّيها بالصفات القدسية.

والإمام فوق أنه معصوم من الخطأ بلطف من اللّه ﷻ يتميز بأنه يتوارث علماً باطنياً وآيات رمزية متواترة تنتقل بالوراثة في أسرة النبي من جيل إلى جيل، وهي تشمل حقائق الدين وكافة حوادث العالم، وعلى ذلك لا يصح عندهم الفصل في المسائل الدينية إلا برأي الإمام، ولا يكون للإجماع، وهو من المبادئ الأربعة التي أقرتها عقائد أهل السنة والجماعة قيمة إلا بمساندة الإمام ومعاونته.

ولعل محور العقيدة عند الإسماعيلية يدور حول شخصية الإمام بعد الذات الإلهية لأنهم ربطوا بين الإمام والإله بكثير من الروابط الوصفية والإسمية.

إن الإمام هو مركز النظام الإسماعيلي سواء في النظرية أو التنظيم، فهم يؤمنون أنه بعد أن تم خلق العالم نتيجة فعل العقل الكوني في الروح الكونية دخل التاريخ البشري في سلسلة من الحقب أو الدوائر، كل دائرة تبدأ بإمام ناطق والنبي المرسل من اللّه، ويتتابع بعده أئمة صامتون، وهؤلاء الإئمة الصامتون يكونون أحياناً مستترين وأحياناً ظاهرين تبعاً لفترات اختباء العقيدة أو ظهورها.

ويقولون إن أئمة الدورة أو الدائرة الحالية من نسل علي وفاطمة عبر إسماعيل وهم معصومون وموحى إليهم بمعنى أنهم أنفسهم في الحقيقة مقدسون إذ إن الإمام هو تجسيد وصورة مصغرة لروح الكون الميتافيزيقية (اللّه).

يقول الإسماعيلية: إن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء في مرتبة واحدة وصفات واحدة، ونتيجة ذلك فإن إمام العصر هو وارث الأنبياء جميعاً وكل من سبقه من الأئمة، فهو صاحب صفات كل الأنبياء والأئمة السابقين، ولذلك كان يوصف الإمام الإسماعيلي في الدور الفاطمي بأنه خليل اللّه وكليم اللّه والمسيح الذي يحيي الموتى ..إلخ.

وجعلوا الإمام هو الواسطة بين اللّه والبشر، ووضعوا كافة أركان الدين وشرائعه في قبضته، وجعلوه لازمة من لوازم الوجود، فهو المصدر النهائي للإرشاد، أما المصدر المباشر فهو ممثله المعتمد، والناس لا يختارون أئمتهم كما يقول بذلك أهل السنة ولا يصدرون الأحكام في صحة الشؤون المتعلقة بالدين والشريعة، فاللّه هو الذي يعين الإمام، والإمام هو مستودع الحقيقة وهو فقط الذي يشرع بالعقل والنقل، والإمام الإسماعيلي فحسب بطبيعة منصبه وتعاليمه هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك، ولذا هو وحده الإمام الحق، ومنافسوه مغتصبون وأتباعهم خطاة وتعاليمهم مزيفة.

جاء في كتاب "تاريخ جهانكشاي" للمؤرخ عطا الملك الجويني ما معناه أنهم قالوا: "لم يخل العالم من إمام قط ولن يخلو من إمام، وكل من كان إماماً لابد أن يكون أبوه إماماً وأبو أبيه وهلم جراً حتى آدم عليه السلام، بل حتى الأزل كما يذهب بعضهم لأنهم يقولون بقدم العالم، كما لابد من أن يكون ابن

الإمام إماماً وابن ابنه، وهلم جراً إلى الأبد، ولايمكن أن يموت الإمام إلا بعد أن يكون ابنه الذي سوف يتولى الإمامة من بعده قد ولد أو انفصل عن صلبه، ويقولون إن هذا هو معنى الآية: ﴿**ذرية بعضها من بعض**﴾ والآية ﴿**وجعلها كلمة باقية في عقبه**﴾.

ويقولون إن الإمام لا يكون ظاهراً على الدوام، فهو أحياناً يظهر وأحياناً يستتر مثله في ذلك مثل الليل والنهار متعاقبان، فإذا كان الإمام ظاهراً يجوز أن تكون دعوته مستورة، وأما إذا كان الإمام مستوراً فلابد أن تكون دعوته ظاهرة وأن يعين دعاته بين الناس، حتى لا يكون للناس على اللّه حجة.

فالرسل أصحاب التنزيل والأئمة أصحاب التأويل، ولا يخلو عهد أي رسول من إمام.

لقد جعلوا لأئمتهم صفات لم تعرفها الفرق الأخرى، ذلك أنهم يقولون ظاهراً إن الأئمة بشر كسائر الناس يأكلون وينامون ويموتون، ولكنهم في تأويلاتهم الباطنية يقولون إن الإمام هو "وجه اللّه" و"يد اللّه" و"جنب اللّه" وأنه الذي يحاسب الناس يوم القيامة ويقسمهم بين الجنة والنار وأنه هو الصراط المستقيم والذكر الحكيم والقرآن الكريم!!!

وفيما يلي أبيات للشاعر أبي الحسن الأخفش لاتخرج معانيها عما تعود عليه الإسماعيلية أن يصفوا به أئمتهم:-

بشر في العين إلا أنه ... عن طريق العقل نور هدى
جلّ أن تدركه أعيننا ... وتعالى أن نراه جسدا
تدرك الأفكار فيه بانياً ... كاد من إجلاله أن يُعبدا

وجعل الإسماعيلية الإمامة على نوعين: إمام مستودع، وإمام مستقر، وقالوا إن الإمام المستودع هو الذي يكون وصياً على الإمام المستقر في حالة انتقال الإمام، ويكون المنصوص عليه صغير السن فيُسمى وصيه إماما مستودعاً، أي تكون الإمامة وديعة لديه يردها لصاحبها الشرعي متى بلغ أشده، ولا يحق له أن يورثها لأبنائه.

ويرى الإسماعيلية أن ولاية الإمام هي الركن الأساسي لجميع أركان الدين، التي هي سبعة في نظرهم: الطهارة، الصلاة، الزكاة، الصوم، الحج، الجهاد، الولاية، وهي أفضل هذه الدعائم.

ويذهبون إلى تفسير الآية الكريمة: ﴿**أطيعوا اللّه وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم..**﴾ [النساء:٥٩] بأن أولي الأمر هم الأئمة، وهذا تقول به جميع فرق الشيعة على اختلافها، إلا أن الإسماعيلية جعلوا للأئمة صفات باطنية، وقال الإسماعيلية تبعاً لذلك: إن العبادة نوعان: عبادة عملية وهي علم الظاهر وما يتصل بفرائض الدين وأركانه، وعبادة علمية وهي علم الباطن من تأويل وغيره، وفرضوا وجوب الاعتقاد بالظاهر والباطن معاً.

يقول المؤيد في الدين هبة اللّه الشيرازي وهو أحد الدعاة الإسماعيلية البارزين: "من عمل بالباطن والظاهر معاً فهو منا، ومن عمل بأحدهما دون الآخر فالكلب خير منه وليس منا".

فالإسماعيلية لا يعملون بالتفسير الظاهري، بل إن للشرائع والقرآن تأويلاً باطنياً مأخوذاً ـ في نظرهم ـ عن مصدر ثقة يُعتبر عندهم ممثل العقل الكلي.

لقد كان النظام الفكري الإسماعيلي يوجب على المستجيب أن يعترف بمبدأي الظاهر والباطن معاً، لأن المبدأين في نظر أصحابهما يشكلان روح الدين ومتصلان ببعضهما البعض ومرتبطان تمام الارتباط، فالظاهر عندهم يعني المفهوم العام للتوصيات المتعلقة بقواعد الدين، والباطن هو روح الدين المستور عن الأنظار، والمخصص للألباب، ولهذا كان الدعاة الإسماعيليون يدعون الناس إلى مذهبهم بطريقتين:

الأولى: وذلك فيما كان متعلقاً بالنبوات والنصوص والشرائع فقد كانوا يدعون الناس إلى اتباعها بطريقة ظاهرة جبراً وتقليداً.

الثانية: بالدعوة والتبشير بتعاليم مذهبهم عن طريق التأويل الباطني، فالدين في نظرهم لا يمكن اختراقه والوصول إلى ما وراءه إلا عن طريق معنى حقيقي روحي ثابت وجوهر قائم بذاته، فالآيات القرآنية لا تخلو من معنى باطني وروح وجوهر ككل كائن في هذه الموجودات.

وكل شيء في هذا الإطار لا يسجل بالعقل أو ضمن دائرته يكون معدوم الأصل ولا يدوم طويلاً.

وجوب الأخذ عن الإمام:

إن الطريق إلى ذلك يستلزم تصديع سلطة العقل، لأن العقول تختلف فيما بينها اختلافاً كبيراً، مما يؤدي إلى ضياع الحقيقة وشتاتها.

يقول الحسن الصباح: "للمفتي في معرفة اللّه تعالى أحد قولين: إما أن يقول أعرف الباري تعالى بمجرد العقل والنظر دون احتياج إلى تعليم معلم، وإما

أن يقول: لا ... ومن أفتى بالأول فليس له الإنكار على عقل غيره ونظره، فإنه متى أنكر فقد عَلَّمَ، والإنكار تعليم، ودليل على أن المنكر عليه محتاج إلى غيره ... والقسمان ضروريان، لأن الإنسان إذا أفتى بفتوى أو قال قولاً، فإما أن يعتقده من نفسه، أو من غيره".

ولذلك فإننا نلاحظ أن الحسن قد حصر وسائل التعليم في وسيلتين اثنتين، فإما أن يكون العلم عن طريق العقل والنظر، وإما عن طريق المعلم أو الإمام.

ولما كان عقل الإنسان كثير الخطأ، وثبت بطلان الآراء المتعارضة التي يصل إليها، ثبتت الحاجة إلى المعلم المعصوم من الخطأ والغلط، كما أنه لا يجوز الأخذ عن عدة معلمين حيث إن كثرة عددهم تؤدي إلى تنوع آرائهم مما يدل على بطلان التعلم منهم.

يقول الحسن الصباح في وجوب تعيين الإمام: "إذا ثبت الاحتياج إلى معلم صادق، أفلا بد من معرفة المعلم أولاً والظفر به ثم التعلم منه؟ أما جاز التعلم من كل معلم من غير تعيين شخصه وتبيين صدقه؟ والثاني رجوع إلى الأول، ومن لم يمكنه سلوك الطريق إلا بمقدم ورفيق، فالرفيق ثم الطريق".

وهكذا نرى كيف يدلل الحسن على ضرورة الإمام وحتمية التعلم منه والأخذ عنه دون سواه لأنه معصوم من الخطأ، كما يتجاهل دور العقل بل ويعمل على إبطال استعماله، ومثل هذا يكون في كافة طوائف الشيعة ثم الصوفية والمقلدة والمنخرطين في الأحزاب والجماعات الدينية المبنية على أساس الحزبية و التعصب الأعمى.

ولذلك فإن استعمال العقل والنظر فيما ليس في الكتاب أو السنة، في نظرهم باطل لأن اللّه تعالى قال: ﴿**ما فرطنا في الكتاب من شيء**﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال أيضاً: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾ [المائدة:٣].

فليس هناك نقص في الكتاب إذن كما يقول القاضي الإسماعيلي النعمان ـ وإنما هناك جهل من الناس وقلة إدراك، والجاهل مأمول بسؤال أهل العلم والذكر لقوله تعالى: ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾ [النحل:٤٣]، وقوله: ﴿**ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾ [النساء:٨٣].

والمقصود من أهل الذكر وأولي الأمر والذين يستنبطونه في نظرهم الأئمة المعصومون.

ويضيف القاضي النعمان راداً على الذين يقولون باستخدام النظر وحجة العقل ما يلي: "ما قولكم في من نظر مثلكم واستدل بحجة عقله مثلكم، فخالفكم فيما توصلتم إليه أنتم بالنظر وحجة العقل؟ ما حجتكم عليه وقد استعمل ما استعملتموه وذهب إلى مثل ما ذهبتم، فهل يكون الحق فيما قلتم أنتم وفيما قال مخالفكم، فيكون الشيء حلالاً وحراماً؟".

بهذا الكلام الواهي وأمثاله يلغي النعمان دور العقل، ويجعله تابعاً لوهم مختفٍ عن الأنظار اسمه الإمام المعصوم.

ولذلك يقولون بأنه لا يجوز أن تخلو الأرض من إمام، وإلا مات الإنسان ميتة جاهلية، وينسبون إلى جعفر الصادق مقولة مفادها أن "الجاهلية جاهليتان:

جاهلية كفر، وجاهلية ضلال، فجاهلية الكفر ما كان قبل مبعث النبي، وجاهلية الضلال ما يكون بعد مبعثه فيمن ضل عن إمام زمانه".

ومعرفة الإمام تتفاوت فيما بين عارفيه، فمعرفة العامي غير معرفة الخاص، ومعرفة الطالب غير معرفة الحجة ... وهكذا تكون المعرفة على حسب الرتبة والدرجة.

وبعد معرفة الإمام تأتي مرحلة أخرى يجعل فيها المؤمن من حياته وقفاً على الإمام ومبادئه، حيث يصبح الإمام يمثل بالنسبة له كل حياته، وأحب إليه منها.

يقول الفيلسوف الإسماعيلي نصير الدين الطوسي: "آية هذه المحبة عدم محبة النفس، ذلك لأن من أحب نفسه مثقال ذرة فكأنما هو لم يحب الإمام قط، لأن محبته إياه قد خالطتها محبته نفسه فلا تكون محبته خالصة له".

وهذه المحبة الخالصة للإمام المعصوم تقتضي الطاعة المطلقة والتسليم التام لكل ما يصدر عنه من أوامر أو نواهي[1] ... ذلك أن أي موجود لكي يصل إلى درجة الكمال يقتضي منه أن يسلم نفسه إلى من هو أعلى منه مقاماً ورتبة.

---

(١) هذا مكمن الخطر حيث يربى الفرد الإسماعيلي وكذا الشيعي على التسليم لقول الإمام المعصوم صح النقل عنه أم لا، فإنهم لا يعرف عنهم التحقيق والتثبت، وكذلك يكمن الانقياد لوكيل الإمام بالادعاء حيث من الممكن أن يدعي من شاء تلك الوكالة فيطلب لنفسه الطاعة والتسليم . ومن المعروف أن العصمة للأنبياء فإذا انصرفت إلى غيرهم كان التناقض والتخبط والتشتت فتأمل. أما نصير الدين الطوسي هذا فهو ذاك الخائن الذي ساهم في تمكين عدو اللّه هولاكو الوثني من دخول بغداد عاصمة الخلافة بالتعاون مع الخائن ابن العلقمي ومستشاره ابن أبي الحديد واسم نصير الدين هذا هو محمد بن محمد بن الحسن الخوجة (٥٩٧ ـ ٦٧٢ هـ).

ويشير نصير الدين الطوسي إلى ذلك بمثل مفاده أن التراب إذا وضع نفسه تحت النبات حتى يضرب النبات فيه بجذوره ويستخلص غذاءه من صفوانه وخلاصاته وينمو ويرتفع وتظهر خاصياته، وصل من الترابية إلى النباتية، والنبات إذا وضع نفسه تحت تصرف الحيوان فجعل هذا منه غذاءه، فكمل جسمه وهيكله وحواسه وصل من النباتية إلى الحيوانية، والحيوان إذا وضع نفسه تحت تصرف الإنسان حتى يستغل بعضه في تقويم جسمه وتقوية روحه الحيوانية التي بها يحس الإنسان ويتحرك، ويجعل منه غذاءه، ويستغل بعضه الآخر في إنجاز مصالحه، وصل من الحيوانية إلى الإنسانية. وهكذا ينطلق من مبدأ التفاضل السائد في الوجود، ليصل إلى نتيجة مفادها أن هناك صنف من البشر أفضل من الآخرين علماً وكمالاً، وهم الأئمة ... الذين يحق لهم وحدهم دون غيرهم إمامة البشرية والبلوغ بها إلى الموضع الذي فيه مصلحتها، وفي مقابل ذلك على سائر البشر الامتثال لهم حتى يمكنهم الترقي في مراتب الكمال الوجودي. وبالنسبة لحركة الحشاشين فإن الإمام ممثل اللّه على الأرض، وظله ... والإنسان الكامل . !!

يقول نصير الدين الطوسي: "من الممكن أن تسمي القائم الإمام أو وجه اللّه الباقي، أو الصفة العظمى التي هي اسم اللّه الأعظم، ولك أن تسميه مظهر الكلمة العليا، أو محق الوقت، وهو الكل بلا خلائق، وكل الخلائق بدونه عدم، وكلا الأمرين بمعنىً واحد".

ويؤكد الطوسي على هذا المعنى بعبارة أقوى فيقول: "إن قوله قول اللّه، وفعله فعل اللّه، وأمره أمر اللّه، وكلمته كلمة اللّه، وحكمه حكم اللّه، وإرادته

إرادة اللّه، وعلمه علم اللّه، وقدرته قدرة اللّه ... وهو المولى الذي بإرادته يصبح المعدوم موجوداً وبقبوله يصبح الممتنع واجباً".

وهكذا يقفز الطوسي بالإمام كما يشاء من مرتبة إلى أخرى حتى يصل به الأمر إلى أن يضعه في مقام واحد مع اللّه جلّ جلاله، ولعل سبب هذا الغلو في تصوير الإمام هو أن الصورة الإنسانية ـ في نظرهم ـ مثال عن الصورة الإلهية، والإمامة هي المظهر الإلهي الوحيد الدال على الوحي، والإمام هو الحجة العظمى الذي ينوب عن الألوهية.

والإمام عندهم يظهر في أشكال وصور مختلفة تماشياً مع مصلحة العباد، فيبدو في صورة الطفل، والشاب، والشيخ ... وذلك كما يقول أحدهم: "حتى يستقر الوجود للخلق، ويظهر لهم حكم إمام زمانهم في يومهم وغدهم".

والإمام أيضاً كما أنه يظهر في صور وأزمنة مختلفة، فإنه بمقدوره أيضاً أن يظهر في أماكن مختلفة، وهذه الصور والأشكال التي يبدو بها رجال مختلفون هي في الحقيقة والجوهر شكل وصورة لمسمى واحد هو الإمام.

ويؤسس لمفهوم وحدة الأئمة فيلسوف إسماعيلي وهو الحامدي الذي يرى وجود: "نور ساطع متصل بالنفوس الخيرة .. هو العمود الذي يذكرون أنه بين الإمام وباريه، عمود من نور، مجرى الوحي على ممر الدهور ... هو الحبل المذكور أن طرفه بيد اللّه وطرفه الثاني بأيدي عبيده ... يدرك به ما في العالم العلوي وما في العالم السفلي كما قال مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: "والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً، فهو روح القدس الجاري عن النهاية الأوّلِةِ الذي هو الأمر، علة العلل، الموجود الأول".

إن نظرية الإمامة[1] ـ كما نلاحظ ـ بتركيزها على الولاء والطاعة ورفضها للعالم كما هو؛ أصبحت سلاحاً ماضياً في يد المعارضة الثورية بعد أن تكشفت المطاعن في الخلافة الفاطمية، ونقل الولاء إلى إمام غامض مخبوء مطلقاً لعقالٍ قِوىً والعاطفة المتأججة لدى الإسماعيليين، وكانت مساهمة الحسن الصباح المؤسس الأول لحركة الحشاشين أنه أطلق عقال هذه القوى وقام بتوجيهها.

وخلاصة القول: أن هذا المذهب وتلك المقالات قد انتشرت، وظهر في أكثر بلاد الإسلام، من المغرب والمشرق، قوم بعضهم مستترون وبعضهم ظاهرون كلهم متفقون على أن الزمان لا يخلو من إمام يمكن به معرفة اللّه ولا سبيل إلى معرفة اللّه بدون معرفة الإمام، وإلى هذا الإمام أشار الرسل في كافة العصور.

وظل الإسماعيلية على هذه الشاكلة من العقائد التي لم يتوجسوا خيفة من إعلانها طالما كانت لهم دولة، فلما عصفت الأيام بدولتهم عادوا إلى التقية والسرية، بحيث لا يُسمح إلا لكبار الدعاة فقط بمعرفة أسرار التأويل وبقي الحال على هذا المنوال إلى اليوم عند طائفة البهرة الأغا خانية والتي تمثل بقايا الإسماعيلية المستعلية.

---

(١) وخلاصتها من الناحية العملية، أن تراث النبي ﷺ لم يكن تراث أمة هداها اللّه إلى الإسلام، وتراث رياسة معنوية جاءت ثمرة الرسالة النبوية، وإنما كانت تراثاً شخصياً وميراثاً خالصاً لأسرة النبي، لا يليها حتى يوم القيامة أحد سوى آل البيت.

النتائج المترتبة على القول بالإمامة:

يترتب على القول بنظرية الإمامة التي نادى بها الإسماعيلية نتائج معرفية خطيرة، فإذا كان الإمام هو نائب اللّه في الأرض، والمظهر الوحيد للألوهية، فإن ذلك يعني أن معرفة الإمام هي السبيل الوحيد لمعرفة اللّه تعالى، لأنه " من لم يعرف إنسان زمانه الكامل (الإمام) فإنه سيبقى غريباً، وفي هذا المعنى قيل: "من رآني فقد رأى اللّه ".

وهكذا جعلوا معرفة اللّه والوصول إليه متوقفة على معرفة الإنسان الكامل في زعمهم وهو الإمام، فمن لم يظفر بهذه المعرفة يعيش غريباً وسيموت وهو جاهل بإمامه.

ويستدلون على ذلك استدلالاً تمثيلياً فيقولون: إن النور الذي يشع عن المصباح ليس المصباح نفسه، ولكن إذا لم نجد النور فكيف نعلم ما هو المصباح أو كيف نعرف إذا كان المصباح موجوداً أصلاً وأين هو؟.

ويؤكد نصير الدين الطوسي هذا المعنى فيقول: "وقد جعل الحق تعالى طاعة الإمام ميزاناً لطاعته وعبادته، ومعرفته (أي الإمام) هي عين معرفته (أي له)، ومحبته عين محبة نفسه".

وطالما أن الإمام هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة اللّه ، فقد أضحى وجوده بين الناس ضرورياً حتى لا يتيه الخلق في بحثهم عن الحقيقة الكبرى في الوجود وهي اللّه سبحانه وتعالى، ومن ثم فإن وجوده بينهم هو من نعم اللّه العظمى ورحمته بالبشر.

يقول الطوسي في ذلك: " ومن رحمة اللّه الكبرى على خلائق العالم بروز إمام الزمان كالخلق (أي على صورتهم وهيئتهم) بين الخلق حتى يعرف الخلق اللّهَ حق معرفته وبه يطيعون ...".

ولكن يبدو أن معرفة الإمام نفسها تحتاج إلى معرفة أخرى .. وإلا تعذر الوصول إليه، وهذه المعرفة تتم بواسطة النفس، إذ إنها الوحيدة التي توصل إلى معرفة إمام الزمان، ولذا نجد أنه قد شاعت بينهم حكمة تأسست عليها عقيدتهم في معرفة الإمام، ومفادها أن "من عرف نفسه فقد عرف مولاه (إمامه)".

والجدير بالذكر هنا أن معرفة الإمام ليست متيسرة من كل وجه، بل هي ممكنة في حالة كون الإمام "خَلْقاً" في مقابلة الخلق، أما في حالة كونه "حقّاً" في مقابلة الخلق فإن معرفته متعسرة بل وممتنعة.

يقول الطوسي: "إن قيل ليس لأحد إلى معرفة الإمام سبيل فكأنما قيل بأن معرفة اللّه هي معرفة أهل كل زمان لإمامهم الذي يجب عليهم طاعته ... وإنْ قيل: إن السبيل إلى معرفة الإمام مفتوح أمام كل الناس، فكأنما قيل إن الإمام محسوس بحس كل إنسان ومعقول بعقله، ومن أحد الوجهين يتأتى الكفر، ومن الوجه الآخر يتأتى الشرك، ومن ثم لزم أن تكون معرفة الإمام من حيث هو الحق في مقابلة الخلق غير ممكنة، لأن حس أي إنسان أو عقله لايمكن أن يصل إلى معرفة ذاته وحقيقة صفاته، أما معرفته من حيث هو خلق في مقابلة الخلق فممكنة".

أما الشطط الكبير في مسألة الإمامة، فيتمثل في تقديمهم الولاية أو الإمامة على مقام النبوة، وشخص الولي أو الإمام على شخص النبي.

في حين نجد الأمر مغايراً تماماً لما عليه الإمامية الإثنى عشرية، وكذلك الإسماعيلية الفاطمية، إذ يحتل النبي عندهم المقام الأول، في حين نجده يمثل عند حركة الحشاشين أو إسماعيلية آلموت المثل الأرضي للعقل الأول، وينتهي به الحال لأن يكون في المرتبة الثالثة، بعد الإمام والحجة، فهو في فكر الحركة لا يُعدّ مجرد كونه "ناطقاً" ومبلغاً للشريعة وهو بهذا يقوم بأمر الدعوة نحو الإمام الذي يمثل المعنى المستور والباطني لهذه الشريعة، ولذلك يقولون إن محمداً هو الناطق وعلياً هو الأساس.

وكثيراً ما نجد في كتب الإسماعيلية الآلموتية تتابع هذه الحروف الرمزية الثلاثة التي تمثل كل من: الإمام، الحجة، النبي، وذلك على النحو التالي: (ع) علي الإمام، (س) سلمان الحجة، (م) محمد النبي.

وهكذا نرى كيف اتجهت نظرة الإسماعيلية العَقَدِيَّة منذ الوهلة الأولى إلى الغلو، والتي اعتمدت أساساً على التعليمية التي نجد جذورها لدى أبي حاتم الرازي الداعي والفيلسوف الإسماعيلي المبكر حيث يقول: " ... ولا نرى أحداً يدرك شيئاً من الأمور بفطنته وكيسه وعقله إلا بمعلم يرشده ..".

وهذا الغلو المذهبي والعقدي يصل أشده في عهد الحسن بن محمد بن بزرجميد بدعوة القيامة التي أدت إلى تحليلهم لكافة المحارم ونبذهم لكل الأصول الشرعية والعقائد الدينية.

وجملة القول في عقائد الإسماعيلية أنها تُكوِّن مذهباً فلسفياً باطنياً استخدموا فيه الدين لخدمة الفلسفة وأخضعوا أحكام الشرع لها.

ويرى بعض الباحثين أن الحركة الإسماعيلية والحشاشية منها بصورة خاصة لم تكن في صميمها سوى حركة اتبعت أسلوب التوفيق بين الآراء المعارضة للحالة التي وصل إليها العالم الإسلامي في ذلك الوقت.

يقول أحدهم: "... لقد كانت هذه الحركة تهدف إلى إخضاع النظم القائمة والشرائع والعقائد للعقل، وإخضاع العلاقات الاجتماعية لمبادئها ..".

فلسفة المذهب الإسماعيلي

أقيم المذهب الإسماعيلي على دعائم فلسفية، واتشح بوشاح ديني نُسج من خيوط باطنية، ووجدنا دعاة المذهب يتعمقون في دراسة الفلسفة والشرح والتعليق على موروثات الفلسفة اليونانية، ككتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأفلوطين، كما حاولوا دمج الفلسفة بالدين، فجاء مذهبهم متناقضاً من كل وجه.

ذهبوا مذهب الفيثاغوريين الذين قالوا بأن الموجودات تكون بحسب طبيعة العدد وخواصه، وأن لكل عدد خاصية ليست لغيره، وعلى هذا قالوا إن لكل إمام خاصة و قوة وصفات ليست لغيره وفق تسلسل الأئمة.

كما أثّرت نظرية الفيض الأفلاطونية[1] في العقائد الإسماعيلية تأثيراً واضحاً، فنظام الأدوار النبوية ماهو إلا صورة تاريخية منعكسة لنظرية الفيض الكوني التي وضحتها هذه الفلسفة، ورتبوا العلوم وجعلوا المرتبة الأولى للعلم الإلهي، وموضوعاته تبحث في كنه اللّه ووحدانيته، ونفوا الصفات الموجودة في الموجودات عنه.

وبحثوا عن الفرق بين الوجود عن طريق الفيض وبين الوجود عن طريق الإبداع والوحدة والكثرة، وعن المبدع الأول بالانبعاث وكيفية الانبعاث

---

(١) وقد تبنت هذه الفكرة الصوفية، وتُعدّ أساساً للفلسفة الدينية لجماعة إخوان الصفا الإسماعيلية.

والمنبعث أو العقل الثاني، والمنبعث الثاني القائم بالقوة وهو الهيولى، والعقول السبعة المفارقة، والطبيعة وماهيتها ونهايتها، والكرسي والعرش وأجسام الأفلاك وحركاتها وأقسامها وأحوالها وأفعالها، والأجسام السفلية وما يتصل بها من المادة ... والمواليد الثلاثة من معدن ونبات وحيوان، والنفوس النباتية والحيوانية والإنسانية، والنفس الحسية والنفس الناطقة وعلاقة النفس الناطقة بالجسم ومفارقتها له ... وكيفية امتثال النفس بالروح القدس، وغير ذلك من المواضيع الفلسفية والميتافيزيقية التي تعلو على مدارك البشر، فأضحى استيعاب نصوص الفلسفة الإسماعيلية والوصول إلى نهايتها وفهم تعابيرها ومرموزاتها وما ترمي إليه من الصعوبة بمكان.

وحاصل هذا المذهب كما يقول المؤرخ عطا ملك الجويني أنه: "كان بلا حاصل كما كان سر هذه الدعوة كله سراً، ذلك أنهم قالوا قول الفلاسفة بقدم العالم وبأن الزمان غير متناه والمعاد روحاني، وقد أوّلوا الجنة والنار ومافيها جميعاً بهذه الطريقة لكي يؤولوا معاني تلك الوجوه تأويلاً روحانياً، ثم إنهم قالوا بناء على هذا الأساس: إن القيامة أيضاً هي الوقت الذي يصل فيه الخلق إلى اللّه وتظهر بواطن الخلائق وحقائقهم، وترتفع أعمال الطاعة، ففي عالم الدنيا يكون الكل عملاً، بينما لا يوجد حساب، أما الآخرة فكلها حساب ولا يوجد عمل، وهذه هي الروحانية.

وباتباع هذا الطريق الذي هو سبيل الغواية والإغواء والإبطال والإضلال غرق أولئك المخاذيل في بحار الضلال وتحيّروا في بيداء الحيرة، وخُسْرِ الدنيا والآخرة، فمارسوا الإباحية والتزم غلاتهم عن عمد أو عن جهل، مذهب

الإباحة وأطلق قوم (والتراب في أفواههم) الألوهية على أئمة ضلالهم، الذين كانوا في مرتبة أخس من البهائم والسباع والحشرات".

ويحمل الغزالي في رسالته "فضائح الباطنية" على مبادئ الإسماعيلية فيقول: "إن مذهبهم ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض"، ويلخص مبادئهم في قوله: "والمنقول عنهم الإباحة المطلقة، ورفع الحجاب، واستباحة المحظورات واستحلالها، وإنكار الشرائع، إلا أنهم بأجمعهم ينكرون ذلك إذا نُسب إليهم".

الخاتمة

إن كثيراً من الجمعيات والمنظمات السرية التي آثرت الظلام على الضياء، كانت تعمل لغاية هدامة يراد بها إبدال مجتمع بمجتمع أو سلطان بسلطان.

وقد اتخذت من العنف والإرهاب وسيلة لضرب سيطرة مقيتة وتحقيق إرادتها، وسلاحاً لتحقيق مصالح معينة.

وإن أية رؤية تحليلية لظاهرة الإرهاب السياسي والعقائدي لابد أن لا تخرج عن المنتظم الحضاري السائد، ولأن الرؤية إذا تمت خارج هذا الإطار معناه تجرد الظاهرة من إطارها الاجتماعي والسياسي.

إن الإرهاب يدفع إلى فعل أي شيء مهما كان لا عقلانياً ولا أخلاقياً، وذلك من أجل انتصار قضيته وسيادة مبادئه، لأنه ينطلق من موقف أيديولوجي معين، وقواعد وقوانين من داخل مفاهيمه وحقائقه.

والتجربة التاريخية والواقعية أثبتت أنه لا يراعي أي عرف أو أية حرمة اجتماعية أو سياسية، فالغاية تبرر الوسيلة، وجميع الطرق والأساليب والوسائل ممكنة لانتصار القضية وتحقيق الهدف، لا فرق عنده في ذلك بين أساليب ووسائل شرعية أو قانونية أو عادية.

إنه لا يُقدِّم إلا الانتحار والتدمير، لأنه يلعب لعبة الموت فقط، الموت من أجل حياة بعينها يريدها دون غيرها، فكل ما هو نافع وفعال فهو ضروري ومن مستلزمات الحاجة والإرادة التي تهدف إلى تجاوز العدو والانتصار عليه في المواطن التي يترجح بها الصراع في نظره.

إن الفكرة المسيطرة اليوم على كثير من المسلمين هي عبادة القوة وعدم اعتبار الحجة والبلاغ المبين أمراً هاماً، بل اعتبروا أن ذلك لا جدوى له ولا غناء فيه، بل زهدوا فيه عملياً وتطبيقاً لأفكارهم النظرية.

وإن الانشقاقات التي تشهدها الساحة الإسلامية بين الجماعات التي تطحن بعضها البعض، وكل منها تريد أن تكون في موقع الإمامة للجماهير لشاهد حي على أن ذلك يطيل من آلام المخاض للانتقال إلى عالم جديد تقل فيه المشكلات ويُعافى الناس فيه من دفع غرامات غياب المعرفة ضرائب من القلق والعرق والدماء.

وإنه يجب علينا أن نعلم أن نجاح الدعوات لا يمكن أن يكون إلا عن طريق التبليغ الكامل لآيات اللّه سواء أقبلها الناس أم لم يقبلوها ما دامت في مرحلة التكوين، لأن الذي لايقبل الرأي عن طريق الإقناع قد يمكنك أن ترغمه على رأيك بالقوة إلا أنه سينقضّ عليك حتماً متى سنحت له الفرصة ليثبت لك أنه لم يؤمن بفكرتك، وكم نكون خاذلين لحقيقة الحق ولحقيقة الإسلام في الوقت الذي نريد أن ندعمه، إذا ظننا أن الإسلام لا يمكن أن يقبله الناس إلا إذا أرغموا على ذلك.

إن على المؤمن الداعي تكوين الجو الصافي الذي يبعد عنه تهم أعدائه بأشياء لايؤمن بها ولا يدعو إليها، بحيث إذا أصروا على إدانته لا يستطيعون أن يدينوه إلا بالفكرة التي ينادي بها ويعتز بأن يموت من أجلها.

وإن البلاغ وعدم الكتمان رصيد المجتمع، حيث يبطل العنف ويحول دون انهيار المجتمع وانحداره، ويحفظ سلامته، ولولا التفريط في ذلك لما انهارت مجتمعاتنا.

إن السنة التي نشأ المجتمع الإسلامي الأول عليها ـ أي أسلوب الرسول ﷺ ـ في منع العنف قبل أن يصل إلى الحكم بغير عنف ـ إن هذه السنة هي التي تقطع تسلسل الخطأ بحيث لا يبرر إزالة الخطأ بالخطأ، وإن الذين لا يهضمون هذه الأفكار ولا يراعونها ويتجاوزونها في نظراتهم المستعجلة سيفاجؤون بما لم يحتسبوه، سيفاجؤون بأن الحكم الذي كانوا يظنون أنه شفاء من كل داء إنما هو مرآة تعكس سيئات المجتمع على أتم بشاعته وعنفوانه.

فلا بد للذين يستقبلون الأيام القادمة أن يتأمّلوا هذه النقطة بالذات حتى لا يرجع المسلمون يكفر بعضهم بعضاً، ويضرب بعضهم رقاب بعض، وأن يصبر الذين يرون الأخطاء وأن لا يصدروا حكم الموت وإنما عليهم أن ينكروا الخطأ ويقنعوا الناس بما يرونه صواباً وحين يفعلون هذا يكونون قد خرجوا من الدائرة المغلقة التي عاش فيها المسلمون حين لم يتحاكموا إلى البلاغ المبين وتحاكموا إلى السيف في الظلام الدامس.

إن هذا سيوفر حتماً الكثير من الهدر في الدماء والأرواح، ويفتح مجال إمكانية التحرك السلمي ضمن معادلات الممكن ودون القفز في عوالم المستحيل، وليس المطلوب في هذا المجال أكثر من التواضع على صعيد الطموح والوعي بالذات المرتكزة على أرضيةٍ من العلمية والموضوعية.

ورحم الله ابن تيمية عندما قال: "إذا كان الكتاب فوق السيف فهو الإسلام، وإذا صار السيف فوق الكتاب فهو المنكر".

فهرس المصادر والمراجع

أثر التراث الشرقي في أصول المذهب السبئي، د/ علي الشابي، كلية الزيتونية للشريعة تونس، نشرة السنة الأولى عدد أول ١٩٧١م.

الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د/ علي عبدالواحد وافي، دار نهضة مصر القاهرة، ١٩٧١م.

أصل الشيعة وأصولها، آل كاشف الغطاء: محمد الحسين آل كاشف الغطاء، مطبعة العرفان، صيدا ١٣٥١هـ ١٩٣١م، وطبعة دار القرآن الكريم بقم ١٣٧٧هـ.

أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرمطية، برنارد لويس، ترجمة حكمت تلحوق، راجعه وقدم له د/ خليل أحمد خليل، ط: ١٩٨٠م، دار الحداثة بلبنان.

أصول التشيع، هاشم معروف الحسيني، دار القلم بيروت .

الأعلام ، لخير الدين الزركلي، ط: ٣.

أوائل المقالات في المذاهب المختارات ، المفيد: محمد بن النعمان (٤١٣هـ)، تعليقات الشيخ فضل اللّه الزنجاني.

الإسلام والحركة المضادة ، الخربوطلي: د/ علي حسني الخربوطلي، ط: الأولى ١٩٧٢م، دار الفكر العربي القاهرة.

الإسلام، جيوم: ألفرد جيوم، ترجمة محمد مصطفى هدارة وآخر، ط: الأولى ١٩٥٨م، النهضة المصرية القاهرة.

الإسماعيلية ، إحسان إلهي ظهير.

الإمامة والسياسة وهو المعروف بتاريخ الخلفاء، ابن قتيبة: أبو محمد عبداللّه بن قتيبة (٢٧٦هـ)، نشر مصطفى الحلبي ١٩٦٩هـ.

الإنسان الكامل في الإسلام، د/ عبدالرحمن بدوي، نشر وكالة المطبوعات الكويت، ط: ٢، ١٩٧٣م.

اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا، المقريزي: أحمد بن علي عبدالقادر المعروف بالمقريزي (٨٤٥هـ)، مطبعة دار الأيتام السورية في القدس الشريف مع طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢، ١٩٧١م.

اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، الرازي: فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي (ت ٦٠٦هـ)، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد ومصطفى الهواري، نشر مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

البدء والتاريخ، المقدسي، أبو زيد أحمد بن سهل البلخي وهو المطهر بن طاهر المقدسي ، الناشر كلمان هوار ط: ١٨١٦م.

البداية والنهاية، ابن كثير، تحقيق أحمد عبدالوهاب فتيح، دار الحديث القاهرة، ط: ١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.ط

بواكير الإلحاد، جورج فيدا، ترجمة د/ عبدالرحمن بدوي، دراسة ضمن مجموعة من تاريخ الإلحاد في الإسلام، مكتبة النهضة العربية القاهرة ١٩٤٥م.

تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي، دكتور حسن إبراهيم حسن، ج٤ العصر العباسي الثاني، الطبعة الثانية ١٩٨٢م مكتبة النهضة المصرية القاهرة.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨هـ)، ط: ثانية: ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار الكتاب العربي بيروت.

تاريخ الإسلام، الذهبي، تحقيق: د/ عمر عبدالسلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، ط: ١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة، د/ عبدالله فياض، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، ط:٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

تاريخ الجاهلية ، د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين بيروت، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، محمد عبدالله عنان، إدارة الهلال بمصر ١٩٢٦م.

تاريخ الدعوة الإسماعيلية منذ أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر، د/ مصطفى غالب، تقديم أغاخان الثالث، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة سورية ١٩٥٣م.

تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، د/ حسن إبراهيم حسن، الطبعة الثالثة ١٩٦٤م، مكتبة النهضة المصرية.

تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) ، الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف مصر.

تاريخ الشعوب الإسلامية، كارل بروكلمان، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط: ٩/١٩٨١م، دار العلم للملايين بيروت.

تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، الخربوطلي: د/ علي حسني الخربوطلي، ط:١٩٥٩م، دار المعارف بمصر.

تاريخ الفلسفة في الإسلام، دي بور: ت. ج. دي بور، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة الطبعة: الرابعة ١٩٥٧م.

تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد والمذاهب الفقهية ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

تاريخ اليعقوبي، اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، دار صادر بيروت.

التعريفات، الجرجاني: علي بن محمد بن علي (٨١٦هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ط: ثانية ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م دار الكتاب العربي بيروت.

تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤هـ)، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي بالقاهرة.

التفكير الفلسفي في الإسلام، د/ عبدالحليم محمود، الدار المصرية للطباعة، ج١، ط: ٤، ١٩٧٧م.

تلبيس إبليس، ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، تحقيق وتخريج: خير الدين علي، ط: دار الوعي العربي بيروت.

التنبيه والإشراف، المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨١م.

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، الملطي: محمد بن عبدالرحمن الملطي (٣٧٧هـ)، مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة المعارف بيروت، ١٩٦٨.

الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي، البهي: دكتور محمد البهي، الناشر: مكتبة وهبة، ط: السادسة ١٩٨٢ القاهرة.

الجذور التاريخية للشعوبية ، دكتور/ عبدالعزيز الدوري، منشورات دار الطليعة بيروت، ط ١: ١٩٦٢م

الجذور التاريخية للنصيرية العلوية، الحسيني عبدالله، دار الاعتصام القاهرة. ط: ١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

الحاكم بأمر الله، د/عارف تامر، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٢م.

الحاكم بأمر اللّه وأسرار الدعوة الفاطمية، محمد عبداللّه عنان، ط: ١، ١٩٣٧، دار النشر الحديث، ط٢، ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م، لجنة التأليف والترجمة القاهرة.

حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية، د/ محمد جابر عبدالعال الحسيني، نشر دار المعرفة القاهرة، ط: ٢، ١٩٦٧م

الحركات الفكرية ضد الإسلام: أهدافها ومقاومتها، دكتور بركات عبدالفتاح دويدار، ط٢/١٩٨٠م.

حركة الحشاشين تاريخ وعقائد أخطر فرقة سرية في العالم الإسلامي، محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا.

الحسن بن الصباح الثائر الحميري، د/مصطفى غالب، ط:الثانية، ١٩٧٩م دار الأندلس بيروت.

الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي بيروت، ط: ٤، ١٩٦٧م.

الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، تعريب: د/ مصطفى طه بدر، نشر دار الفكر العربي ١٩٤٧م.

الحضارة الإسلامية، خودابخش (مؤرخ هندي)، ترجمة د/ علي حسني الخربوطلي، ط ١٩٦٠م، دار إحياء الكتب العربية.

الدر المصون تهذيب مقدمة ابن خلدون، تهذيب ضياء الدين شهاب الدين، ط: ١، ١٩٩٧م دار الفتح الشارقة.

دولة النزارية أجداد أغاخان كما أسسها الحسن الصباح (زعيم الإسماعيلية في فارس)، د/ طه أحمد شرف، النهضة المصرية القاهرة، ط: أولى ١٩٥٠مم.

راحة العقل، الكرماني: الداعي أحمد حميد الكرماني، تحقيق: د/ محمد كامل حسين وآخر، دار الفكر العربي القاهرة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

رسالة الغفران، المعري: أبو العلاء المعري (٤٤٩هـ)، تحقيق د/ بنت الشاطئ، دار المعارف، ط: السادسة ١٩٧٧م,

الرسالة الواعظة في نفي دعوى ألوهية الحاكم بأمر اللّه، الكرماني: الداعي أحمد حميد الكرماني، تحقيق: د/ محمد كامل حسين، مطبعة جامعة فؤاد الأول ١٩٥٢م

رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله، الكرماني: الداعي أحمد حميد الكرماني، تحقيق: د/ محمد كامل حسين، في كتابه طائفة الدروز، دار المعارف ١٩٦٢م.

روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الآلوسي: شهاب الدين محمد بن عبدالله الحسيني الآلوسي البغدادي (١٢٧٩هـ)، ط: أولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية بيروت.

الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعربية عليهما، سميره مختارا الليثي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٦٨م.

السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، فان فلوتن، ترجمة: د/ حسن إبراهيم حسو وآخر، النهضة المصرية: ط: ٢، ١٩٦٥م.

سير أعلام النبلاء، الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط: ١٠/١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

السيرة النبوية (سيرة ابن هشام)، ابن هشام: أبو محمد عبدالملك بن هشام ت(٢١٨) ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط: ٢، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد : أبو الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي (١٠٨٩هـ)، دار الكتب العلمية بيروت.

شرح عقائد الصدوق (أو تصحيح الاعتقاد) المفيد: محمد بن النعمان (٤١٣هـ)، تقديم السيد هبة اللّه الشهرستان، تصحيح ونشر الحاج عباسقلي (الواعظ الجرندانى) مكتبة سروسن بتبريز.

شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد: عز الدين أبو حامد بن هبة اللّه محمد بن الحسين بن أبي الحديد المدائني، ط: الثانية ١٩٦٥م دار إحياء الكتب العربية

الشيعة في التاريخ، الزين: محمد حسين الزين، ط: ٢، ١٩٧٩م دار الآثار بيروت

الشيعة والسنة، إحسان إلهي ظهير، مطبعة التقدم، توزيع دار الأنصار القاهرة ١٩٧٩م.

الصلة بين التصوف والتشيع ، د/ مصطفى الشيبي، دار المعارف مصر، الطبعة الثانية.

ضحى الإسلام، دكتور أحمد أمين، ج١: ط٩/١٩٧٧، ج٣: ط٩/ ١٩٧٨م، النهضة المصرية القاهرة.

طائفة الإسماعيلية ـ تاريخها ونظمها وعقائدها، د/ محمد كامل حسين، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م.

طائفة الاسماعيلية، د/ سليمان الحلبي.

طائفة الدروز تاريخها وعقائدها، د/ محمد كامل حسين، دارا لمعارف مصر، ١٩٦٢م.

طائفة النصيرية تاريخها وعقائدها، د/ سليمان الحلبي، المطبعة السلفية القاهرة.

العقائد الشيعية، تعريف بالفرق الشيعية ونقدها، ناصر الدين شاه، ط: ١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
عبدالله بن سبأ، مرتضى العسكري، المطبعة العلمية في النجف الأشرف، ١٩٥٦م.
عبيد الله المهدي إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، د/حسن إبراهيم حسن وآخر، مطبعة الشبكشي بالأزهر، الناشر: النهضة المصرية ١٩٤٧م.
العقد الفريد، ابن عبد ربه: شهاب الدين أحمد بن عبد ربه الأندلسي ، ط: ٢، ١٩٧٦م طبع المطبعة الأزهرية.
عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د/ عثمان عيش، مكتبة الأزهر ط: ١، ١٩٧٦م.
العقيدة والشريعة في الإسلام، جولد زيهر: المستشرق المجري اجنتس جولد زيهر، ترجمة وتعليق د/يوسف موسى وآخرون، ط: الثانية ١٩٥٩م، دار الكتب الحديثة مصر ومكتبة المثنى بغداد.
عوامل وأهداف نشأة علم الكلام، (الكتاب الثاني من جوانب التفكير في العقيدة الإسلامية)، د/ يحيى هاشم حسن فرغل، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م.
الغصن الذهبي، سير جيمس فريزر، ترجمة د/ أحمد أبو زيد الهيئة المصرية العامة للتأليف ١٩٧١م.
غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام، د/ فتحي محمد الزغبي، ط:١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م،
فجر الإسلام، دكتور أحمد أمين، ط ١٢/١٩٧٨م، مكتبة النهضة المصرية القاهرة
الفرق الإسلامية، البشبيشي: محمود البشبيشي، ط: ١٣٥٠هـ ١٩٣٢م، المكتبة التجارية الكبرى مصر.
فرق الشيعة، النوبختي: أبو محمد الحسن بن موسى النوبختي (٣١٠هـ)، جمعية المستشرقين الألمانية استانبول مطبعة الدولة ١٩٣١م.
الفرق بين الفِرق وبيان الفرقة الناجية منهم، البغدادي: عبدالقاهر بن طاهر (٤٢٩هـ)، ط: خامسة ١٤٠٢هـ دار الآفاق الجديدة بيروت.
الفصل في الملل والأهواء والنحل، ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري (ت٤٥٦هـ)، ط: مكتبة الخانجي بمصر ١٣١٢هـ.
فضائح الباطنية، الغزالي: أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، تحقيق عبدالرحمن بدوي، نشر الدار القومية للطباعة القاهرة، ١٩٦٤م.

الفلسفة الشرقية، د/ محمد غلاب، مكتبة الأنجلو المصرية، ط:٢.
الفلسفة الصوفية في الإسلام، د/ عبد القادر محمود، دار الفكر العربي.
في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، د/ إبراهيم بيومي مدكور، دار المعارف مصر ١٩٧٦م.
القرآن والفلسفة، د/ محمد يوسف موسى، دار المعارف، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م.
القرامطة: نشأتهم، ودولتهم وعلاقاتهم بالفاطميين، دي خويه: ميكال يان دي خويه، ترجمة وتحقيق حسني زينة، دار ابن خلدون، الطبعة: الثانية ١٩٨٠م.
القرامطة، د/ عارف تامر، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت .
القرامطة، ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق محمد الصباغ، المكتب الإسلامي، ط: ٥، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
قصة الحضارة، ديورانت : ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، ج٢،١، من الكتاب الأول الشرق الأدنى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٠، ج٢ من المجلد الرابع عشر عصر الإيمان لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، ط: ٣، ١٩٧٤م.
قصة الديانات، سليمان مظهر، دار الوطن العربي.
الكامل في التاريخ، لابن الأثير: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ)، ط٢: ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م دار الكتاب العربي.
كتاب أصول الدين، البغدادي: عبدالقاهر بن طاهر (٤٢٩هـ)، ط: أولى ١٤٠١هـ دار الآفاق الجديدة بيروت.
الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط: ٢، ١٩٧٢، طبع مصطفى البابي الحلبي مصر.
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، الحمادي: محمد بن مالك بن أبي الفضائل الحمادي اليمني، ملحق بكتاب التبصير للإسفراييني، الناشر: مكتبة الخانجي بمصر ومكتبة المثنى ببغداد ط٢ سنة ١٩٥٥م. وبتحقيق: د/ محمد زينهم محمد عزب، دار الصحوة، ط: ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م منفراً.
لسان العرب، ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل بن منظور (ت ٧١١هـ)، دار المعارف في سلسلة شهرية.

مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وابنه محمد، الطبعة: الثالثة ١٤٠٣هـ، مكتبة ابن تيمية.

مذاهب الإسلاميين، د/ عبدالرحمن بدوي، ج٢، دار العلم للملايين بيروت، ط١: ١٩٧٣م.

مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الفكر بيروت، ط: ٥، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

معجم ألفاظ القرآن الكريم: مجمع اللغة العربية القاهرة

المعجم الفلسفي ، مجمع اللغة العربية ١٩٧٩م.

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضع محمد فؤاد عبدالباقي، كتاب الشعب.

المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية ط: ٢، ١٩٧٢م.

مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير، الرازي: فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي (ت ٦٠٦هـ)، طبع المطبعة الحسينية المصرية.

المقالات والفرق، القمي: سعد بن عبدالله أبو خلف الأشعري القمي (ت٣٠١هـ)، تصحيح وتعليق: د/ محمد جواد مشكور، مطبعة حيدري طهران، نشر مؤسسة مطبوعاتي عطائي ١٩٦٣م.

مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون: عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق/ علي عبدالواحد موافي، الطبعة الثالثة، نهضة مصر الحديثة.

مقدمة كتاب أصول الإسماعيلية، برنارد لويس، ترجمة د/ عبدالعزيز الدوري، دار الكتاب العربي بمصر، ومنشورات مكتبة المثنى.

الملل والنحل، الشهرستاني: محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد (٥٤٨هـ)، تحقيق: أمير علي مهنا، وعلي حسن فاعور، ط: رابعة ١٤١٥هـ دار المعرفة بيروت.

من تاريخ الإلحاد في الإسلام دراسات ألف بعضها وترجم الآخر، د/ عبدالرحمن بدوي، مكتبة النهضة العربية القاهرة ١٩٤٥م.

من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام، جوزي: دكتور/ بندلي جوزي (مستشرق) ج١: مطبعة بيت المقدس القدس ١٩٢٨م.

المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ، ابن الجوزي: عبدالرحمن بن علي (٥٩٧هـ)، تحقيق محمد عبدالقادر عطا وآخر.

المهدية في الإسلام منذ أقدم العصور حتى اليوم، سعد محمد حسن، جماعة الأزهر للتأليف والترجمة، دارا لكتاب العربي ١٣٧٣هـ - ١٩٥٣م.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) المقريزي: أحمد بن علي عبدالقادر المعروف بالمقريزي (٨٤٥هـ)،دار التحرير ١٩٦٨م.

نشأة الآراء والمذاهب والفرق الكلامية (الكتاب الأول من جوانب التفكير في العقيدة الإسلامية)، د/ يحيى هاشم حسن فرغل، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م.

نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د/ علي سامي النشار، دار المعارف، ط: ٨، ١٩٨١، وج٢: نشأة التشيع وتطوره، دار المعارف، ط: ٤، ١٩٧٩م.

نظرية الإمامة لدى الشيعة الإثنى عشرية، دكتور/ أحمد محمود صبحي: ط: ١٩٦٩م دار المعارف مصر.

النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، د/ صبحي الصالح، دار العلم للملايين الطبعة الثانية ١٩٦٨م.

هداية الحيارى من اليهود والنصارى، ابن القيم: شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة ، ط: ٢، ١٣٩٩هـ.

الوشيعة في نقد عقائد الشيعة، جار الله: موسى جار اللّه (ت١٣٦٩هـ)، مطبعة الكيلاني القاهرة ١٩٨٢م.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان: أحمد بن محمد بن خلكان (٦٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت.

المحتويات

الموضوعات	الصفحة
مقدمة الشيخ عبدالله السبت	٣
المقدمة	١٦
الأحداث السياسية والتاريخية	٢٠
الدولة الفاطمية	٢٢
الدولة السلجوقية	٢٢
نظام الملك	٢٥
ظهور التتار	٢٧
الأصول التاريخية لحركة الحشاشين	٣٠
علاقة الحشاشين بالفاطميين	٣٨
نسب الفاطميين	٤٢
انقسام الإسماعيلية	٤٦
حركة الحشاشين أو الدعوة الجديدة	٤٩
الحسن بن الصباح الحميري: حياته:	٥٣
المبادئ العامة لحركة الحشاشين وأساليبها في الدعوة	٦٠
مراتب الدعاة	٦١
المرحلية في الدعوة	٦٥
النشاط العسكري لحركة الحشاشين	٧٤
نص رسالة السلطان السلجوقي إلى الحسن الصباح	٨٣
نص رسالة الحسن إلى السلطان	٨٤

الموضوعات	الصفحة

الدور الذي لعبته القلاع والحصون ٩٥

الفدائيون ٩٦

الاغتيال السياسي ١٠٤

لماذا يضحي الفدائي بحياته ١٠٩

الرموز السرية ١١٣

معارك الحسن الصباح مع السلاجقة ١١٦

صراح الحركة مع أبناء ملك شاه ١١٨

وفاة الحسن الصباح ١٢٩

وضعية الحركة بعد رحيل الحسن الصباح ١٣٢

حكم محمد بن بزر جميد ١٣٦

حكم حسن بن محمد بن بزرجميد ١٤٢

حكم أعلى محمد ١٤٦

حكم جلال الدين حسن ١٤٦

حكم علاء الدين محمود ١٥١

حكم ركن الدين خورشاه ١٥٣

الحشاشون والتتار وجهاً لوجه ١٥٥

نشاط الحركة إقليمياً ١٥٨

الاستراتيجية السياسية والعسكرية لحركة الحشاشين في سوريا ١٦٠

عهد أبي طاهر الصايغ ١٦٢

عهد بهرام ١٦٥

عهد سنان شيخ الجبل ١٧٠

التركيب الديني لحركة أو عقائد الحشاشين : الألوهية : ١٧٨

الموضوعات	الصفحة

قصة الخلق: ١٨٠

مصير الموتى ١٨٤

الإمامة ١٨٨

وجوب الأخذ عن الإمام ١٩٣

النتائج المترتبة على القول بالإمامة ٢٠٠

فلسفة المذهب الإسماعيلي ٢٠٤

الخاتمة ٢٠٧

المراجع ٢١٠

المحتويات ٢١٩

هذا الكتاب

* دراسة عقائدية وحركية عن فرقة من فرق الباطنية هي أساس للحركات الثورية السرية.
* يبين الأساليب التي اتبعتها الحركة لفرض سيطرتها وبث الرعب في منطقة نفوذها.
* يوضح كيفية تأثير دعاة الباطل على عقول الأتباع لتنفيذ مآربهم.
* يقرن بين ما قامت به تلك الحركة وبين ماتقوم به جماعات الإرهاب والعنف الثوري في العالم وكيفية الربط بينها.

الناشر
دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: ٣٢٦٠١٨ - ٣٢٢٥٢٤ - ٠٦ فاكس: ٣٢٦٨٣٨ - ٠٦
ص.ب: ٢٣٤٢٤ الشارقة - الإمارات العربية المتحدة